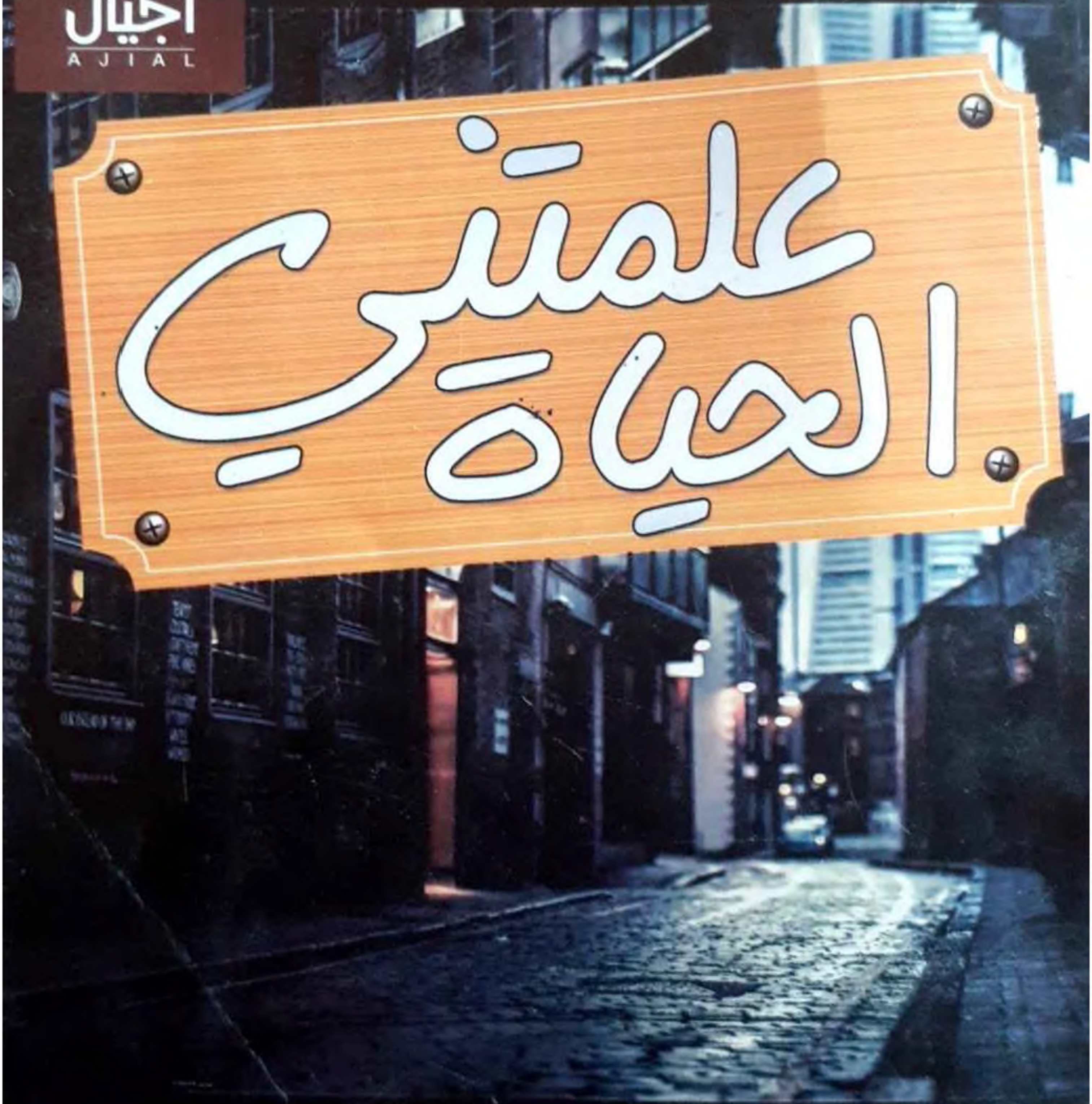
أجيال
AJIAL

علمتني الحياة



خلاصة حياة لأكثر من 60 كاتب ومفكر في المشرق والمغرب.

أشرف عليه

د. أحمد أمين

علمتني الحياة

بأقلام من الشرق والغرب

أشرف عليه

الدكتور أحمد أمين

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: علمتني الحياة (أقلام من الشرق والغرب)

أشرف عليه: د. أحمد أمين

الطبعة الأولى للناشر: ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

مقاس الكتاب: ١٤ × ٢٠

إخراج داخلي: مركز السلام للتجهيز الفني

الناشـــــر: دار أجيال للنشر والتوزيع

رقم الإيداع: ١١٠٥٢ / ٢٠١٣

الترقيم الدولي: 978-977-6277-59-5

العنـوان: ٦ أبـراج المهندسـين - الـدور السـادس
شقة ٢ كورنيش المعادي - القاهرة.

رقم الهاتف: ٠٠٢٠١٢٤٢٤٢٤٣٧ - ٠٢ ٢٥٢٨٦٥٤٠

الموقع على شبكة الإنترنت: www.dar-ajial.com

أجيال
AJIAL

مقدمة

هذا الكتاب موجز لفكرة بسيطة أساسية.. هي -على ما يبدو- هدف كثير من الناس، حتى لقد استجاب لها كل من سنحت له الفرصة للاستماع إليها، أو قراءتها، أو التفكير فيها. فلم تكد تكتب الصحف عن كتاب «علمتني الحياة» أو تتناوله الإذاعة، حتى تقدم آلاف الناس -منهم مئات من رجال التربية، وما لا يقل عن ست عشرة وكالة من وكالات النشر- تطلب طبع هذه المقالات في كتاب خاص.

ولقد ابتدئ بإذاعة موضوعات كتاب «علمتني الحياة» وكذلك تستمر إذاعة موضوعاته، والواقع أنه يذاع في الولايات المتحدة الأمريكية على فترات منفصلة يبلغ عددها ألفين ومائتي مرة في الأسبوع الواحد.

وتقوم بذلك مائة وست وتسعون محطة من أقوى محطات الإذاعة، يصل صوتها إلى آذان تسعين مليون نسمة في تلك البلاد فقط، بمعدل مرتين في الأسبوع. وكذلك تذاع ٩٠٠ مرة في الأسبوع من ١٥٠ محطة في خرجها، كما تذاع من محطة صوت أمريكا أسبوعيا مترجمة إلى ست لغات، أضف إلى ذلك أن الصحف الأمريكية تنشر عن هذا الكتاب ما

يقرب من ٨,٥٠٠,٠٠٠ مرة في الأسبوع، فتظهر مرة كل أسبوع في ٨٥ صحيفة يومية أساسية. وإلى جانب هذا يذاع في مئات من المدارس.

لقد اقترحت فكرة كتاب «علمتني الحياة» في عام ١٩٤٩ على مائدة غداء، جمعت أربعة رجال، كان حديثهم يدور حول ظاهرة خطيرة هي أن أغلب الناس -اليوم- يستهدف القيم المادية وحدها... أما القيم الروحية فآخذة في الانهيار.

وتطور الحديث إلى التفكير في اختيار عدد من الرجال والنساء يكلفون بعرض فلسفتهم وخلاصة تجاربهم في الحياة، على أن يكون ذلك في إذاعة تستغرق خمس دقائق، أو في مقالة أسبوعية لا تزيد على ٦٠٠ كلمة تنشر في الصحف. وأخذ «أدوار مارو» -أحد المتحدثين الأربعة- على عاتقه مهمة استكتاب عدد كبير من رجال الأعمال، والمحامين، والأطباء، والكتاب، والمربين، والرياضيين، والممثلين - رجالا ونساء ومن مختلف الأجناس والألوان والعقائد- معروفين وغير معروفين، يمثلون مختلف نواحي النشاط، يشترط فيهم النجاح فيما يقومون به من أعمال.. بالإضافة إلى استقرار يلائم بينهم وبين ظروف حياتهم. ومن مجموع هذه المقالات يتألف كتاب «علمتني الحياة».

ولنتساءل الآن عن هدف هذا الكتاب، وعن قيمته العملية، وكيف يستطيع أن يحقق أهدافك الخاصة.

من الواضح أن أهم ما يشغل بال الإنسان هو تسيير دفة حياته.

والواقع أن كل فرد مسئول عن تنمية مواهبه ومعارفه ومداركه، حتى يتمكن من المساهمة في النشاط الحيوي الدائر حوله بقدر.. ولكن فيما عدا دائرة هذا النشاط، تتركز حياة المرء على ما يدين به من معتقدات هي نسيج الشخصية الإنسانية ومكوناتها.

وتلك المعتقدات لا ينبغي أن تكون دينية فقط، أو خاضعة لسلطان الدين في مجموعها، رغم أن الاعتقاد في آله يبدو أنه أحد الأسس التي ينطوي عليها تفكير أغلب الناس.

تلك المعتقدات هي قوام الحياة اليومية. وهي التي نستطيع – استنادًا إليها– أن نجيب عن هذا السؤال: كيف أستطيع توجيه جهودي ابتغاء تحقيق حياة كاملة سعيدة تبعث على القناعة والرضى؟..

إن مئات الناس، ذوى الخلق الكريم، بحثوا في خفايا أنفسهم ثم حاولوا أن يصارحوك بحقيقة هذه الخفايا في الكتاب الذي نقدمه لك اليوم.

هناك مئات من الكتب تدور حول حقيقة موقف الإنسان في الحياة، والتزاماته، ولماذا يجب أن يعيش، وكيف يعيش.. وما جاء في هذه الكتب لا يعدو أن يكون لونا من ألوان التعليم أو النصح أو عرضا لوجهة النظر التي تقول: «عليك أن تفعل هذا أو ذاك».

أما كتاب «علمتني الحياة» فإنه لا يطلب إليك شيئا، وإنما يثير فيك اليقظة ويقدم لك المساعدة، فهو مادة للقراءة، ومادة للتأمل في نفس

الوقت. فإذا لم يوفق هذا الكتاب في إثارة ذهنك وحملك على تصوير معتقداتك فقد فشل في رسالته. أما إذا وفِّق إلى هذا فقد أدى هذه الرسالة خير أداء.

* * *

تصدير
بقلم الدكتور أحمد أمين

عهدت إليَّ مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر -وهي مؤسسة ثقافية تضم كبار الناشرين الأمريكيين- أن أشرف على ترجمة كتاب «This I believe» وهو كتاب يتبين القارئ أهميته من مطالعته وترجمة مقدمته. فلما قرأت الكتاب رأيت العنوان مضللا، إذ يفهم منه أنه كتاب يبحث في الأديان ورأيت أنسب عنوان له: «**علمتني الحياة**».

وقد ترددت في قبول هذا العمل لضعف صحتي أولا، ولأني لم أعتد أن أعمل غير ما أختار بنفسي لنفسي... ولكنني رأيت من العدل والإنصاف أن أرجئ البت في هذا الموضوع إلى أن أقرأ الكتاب، وأتبين قيمته. فلما قرأته أقدمت على العمل غير متردد، لأني رأيت فيه إيمانا بالله وإيمانا بالإنسان، وديمقراطية صحيحة، وتفاؤلا بالحياة.. وكل هذا أحبه، وأقف حياتي عليه.

وقد عهدت إليَّ المؤسسة أن أضيف إلى المقالات الأمريكية مقالات أخرى من رجال العرب مختلفي النوازع كرمز إلى الصداقة. فاستكتبت كثيرًا من رجال الفكر والأعمال والمال والفن، من رجال ونساء.

وأحمد الله أن أجابت طلبي نخبة ممتازة، فلهم الشكر أجمعين.

ولقد انتدبت لترجمة الكتاب الأستاذ محمد بكير خليل الموظف بالإدارة الثقافية بوزارة المعارف «وزارة التربية والتعليم» والدكتور مختار الوكيل الموظف بالإدارة الثقافية بالجامعة العربية، وقد كان كل منهما يترجم نصيبه ويراجعه الآخر، ثم يعرضان عليَّ ما ترجما لمراجعة الأسلوب العربي والكتاب يحتوي على نحو مائة مقالة.. كل مقالة في نحو خمسمائة كلمة، تسبقها ترجمة لحياة كاتبها.

وقد عهدت المؤسسة إلى الأستاذ الدكتور جون بادو مدير الجامعة الأمريكية السابق، باختيار نحو ثلاثين مقالة منها، ففعل.. فله الشكر. وأجاب طلبي من كتاب العرب المعروفين، عدد غير قليل، وكانت فكرة لطيفة يفرح بها الناقد العربي، لمعرفة الفروق بين كتابة الشرقيين وكتابة الأمريكيين.

وقد اغتبطت كثيرًا بما كتبه الشرقيون؛ لأنه لا يقل قيمة في نظري عما كتبه الأمريكيون. وربما لاحظ الناقد فروقا بين المجموعتين، منها أن الكتابة العربية رصينة بحكم أنها كتبت باللغة العربية بادئ ذي بدء.. وأما الأخرى فمترجمة إلى العربية، ومهما يكن من قوة المترجم، فلابد من أن يكون على المقالات المترجمة ظل ولو قليل من أثر الترجمة. وفرق آخر، هو أننا نلاحظ على الكتاب الأمريكيين الإيمان بالإنسان، والفرح بالحياة وحب الاستمتاع بها ونلاحظ على الكتاب الشرقيين عدم الإيمان

بالناس، وانقباض الصدر، نتيجة للظلم الذي وقع عليهم من آلاف السنين. وشيء ثالث، هو أن الروح الأمريكية تغلب عليها روح الديمقراطية... فتراهم يعهدون بالكتابة إلى شاب مغمور بجانب كاتب مشهور، وإلى سائق سيارة بجانب رئيس جمهورية، وإلى فتاة بجانب رجل، وهكذا..

وقد اشترطت حين قبلت هذا العمل، أن تكون لي حرية التصرف في حذف جمل نابية أو عبارات ترمى إلى ناحية سياسية، فأجبت إلى هذا الطلب.. وبحمد الله لم أجد هذا النوع إلا في القليل النادر فحذفته.

ومما بعثني على قبول هذا العمل أني وجدت هذا الكتاب يوافق مزاجي الخاص.. فالكتاب يدعو إلى الإيمان بالإنسان والإيمان بالله، والتفاؤل بالحياة، كما يدعو إلى التمسك بأهداب الفضائل... وكلها، والحمد لله، مما أغتبط به، وأدعو إليه، منذ تعلمت أن أمسك القلم.

وإني لأرجو أن يساعد هذا الكتاب الشباب الناشئ، فيؤمن بالإنسان وبالله وبالتفاؤل وبالفضيلة.. فذلك عندي من خير ما أصبو إليه.

والله الموفق.....

أحمد أمين

الجزء الأول

أقلام من الشرق

رضى الضمير مفتاح السعادة

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل

نشأ في كفر غنام من أعمال مديرية الدقهلية وحفظ في كتابها ما يزيد على ثلث القرآن، ثم التحق بالمدارس الأميرية وحصل على إجازة الحقوق في سنة ١٩٠٩، ثم سافر إلى فرنسا وحصل على دكتوراة الحقوق من جامعة باريس في سنة ١٩١٢، واشتغل بالمحاماة. وفي أثناء اشتغاله بالمحاماة قام بتدريس تحقيق الجنايات العملي، والاقتصاد السياسي، بالجامعة المصرية الأهلية. وترك المحاماة إلى رياسة تحرير جريدة السياسة، ثم تولى الوزارة، ثم انتخب رئيسا لمجلس الشيوخ.

كنت تلميذا بالمدرسة الثانوية.. وكنت معتزًا أشد الاعتزاز بمعلوماتي في اللغة العربية. وألقى علينا أستاذ هذه اللغة يوما سؤالا أجاب عليه أحد زملائي إجابة استرحت إليها موقنا بصحتها.

ولشد ما كانت دهشتي حين ذكر الأستاذ أن زميلي أخطأ، وحين صحح هذا الخطأ. عند ذلك أيقنت بأننا يجب ألا نبالغ في الاطمئنان إلى كل معلوماتنا، وأنه يجب علينا أن نراجع أنفسنا ما بين حين وحين؛ لنستوثق من هذه المعلومات حتى لا يدفعنا الخطأ في بعضها إلى التورط

في أخطاء أخرى.

وحينما كنت أدرس الحقوق، كنت قوي الذاكرة، فلا أحتاج إلى تلاوة الموضوع الذي أدرسه أكثر من مرتين لينقش في ذهني.. وإني لأناقش أحد زملائي الطلبة يوما وأدعم حجتي بنص حفظته، إذ أشار هو إلى نص آخر لم يغب عني حين سمعته، ولكني لم أفكر من قبل في التقريب بين النصين ومقارنتهما.

ومن يومئذ أيقنت أن الاعتماد على الذاكرة وحدها، وبخاصة في الشئون العلمية، لا يكفي لكشف الحقيقة كاملة.. بل يجب أن يهضم الفكر ما تعيه الذاكرة ليخلف منه مجموعة وثيقة لا تنافر بين أجزائها كما يتسنى لإدراكنا أن يتمثلها فتصبح جزءًا من محصولنا العقلي قائما بذاته، وله من ثم أثره في توجيه أحكامنا توجيها سليما.

فلما أتممت دراستي، ومارست شئون الحياة.. رأيت الكثير مما يقع فيها يخالف ما تعلمته من مبادئ وقواعد وقوانين، ورأيت كثيرين ينجحون، ويرجع سب نجاحهم الظاهر إلى مخالفة هذه المبادئ والقواعد والقوانين... لكني تبينت بعد سنين قليلة أن النجاح بمخالفة قواعد الخلق ومبادئ القانون، يعرض صاحبه لمتاعب جمة، وقد يهدم حياته من أساسها، وأن التشبث بما نؤمن أنه الحق، والدفاع عنه دفاعا صادقا، وسلوك سبيلنا في الحياة على هداه.. ذلك هو الذي يرضي ضميرنا ويبعث الطمأنينة إلى نفوسنا. ورضى الضمير وطمأنينة النفس

مفتاح السعادة وعمادها المتين.

وكان لما تعلمته من ذلك أبلغ الأثر في حياتي، فقد قضيت السنوات الثلاثين الماضية منها صحفيا، ومؤلفا للكتب، ووزيرًا، ورئيسا لمجلس الشيوخ... وكل وجهتي في هذه المراكز جميعا أن أدافع عما أؤمن بأنه الحق، وقد تعرضت بسبب هذا الدفاع لمتاعب كثيرة... قدمت من أجلها لمحكمة الجنايات في تهم صحفية، وتعرضت لغضب السلطات العليا، والسلطات الحاكمة، ولم أكسب في الحياة المادية ما كنت أستطيع أن أكسب أضعافه لو أنني جعلت قلمي أو جعلت مجهودي في خدمة هذه السلطات. ولم أنتصر في بعض الحملات التي أثرت غبارها إلا عدة سنوات. لكنني لم أيأس يوما من النصر، ولم أعن يوما بالكسب المادي، لأنني كنت مستريح الضمير لأداء ما آمنت بأنه الواجب دفاعا عن الحق، ولأنني رأيت الحق ينتصر آخر الأمر لا محالة، وإن طال انتظارنا قبل انتصاره.

وكثيرًا ما شرعت بأن السبب في طول الانتظار وقوعنا في خطأ عن غير قصد، كما أخطأ زميلي ونحن بالمدرسة الثانوية حين ألقى الأستاذ سؤاله في اللغة العربية، أو أن السبب يرجع إلى إغفالنا جانبا من الحقيقة كما حدث لي أثناء مناقشة صاحبي وأنا أدرس الحقوق.. على أن الكبرياء لم يدفعني يوما إلى التورط في الخطأ، بل كنت أعود دائما إلى الحق لكيلا يزيد الشطط في طول انتظاري، مع اقتناعي الثابت بأن الصبر مع صدق

الإرادة وحسن القصد كفيل بإدراك الغاية التي أقصد إليها.

ونحن مدركون هذه الغاية طالما كان هدفنا هو الحق، وهو الخير العام. ولا سبيل للخير العام إلا من طريق الحق. والحق والخير العام يقتضياننا إنكار الذات مع الثقة بالنفس، والثقة المطلقة في نفس الوقت بالله جل شأنه. فالله هو الحق، والحق سبيلنا إليه. ورضى الضمير وسيلتنا إلى رضى الله. والضمير لا يرضى إلا عن الخير وعن الحق.

وصدق الله العظيم: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[سورة العصر].

***

موقفي من الناس!

بقلم عباس محمود العقاد

ولد بأسوان في الصعيد الأعلى سنة ١٨٨٩. اشتغل بالوظائف الحكومية، وتركها ليشتغل بالصحافة، ثم اشتغل بالتعليم، ثم كانت الحركة الوطنية فخاض معركة السياسة وانتخب لمجلس النواب، وعين عضوًا بمجلس الشيوخ، فعضوا بمجمع اللغة العربية، وألف عشرات الكتب في النثر والنظم تدور حول الموضوعات الأدبية والفلسفية والاجتماعية، والتاريخية، والسياسية، وتراجم المشاهير، منها كتاب عن «عبقرية محمد»، وكتاب عن «عبقرية المسيح»، وكتاب «ابن الرومي»، وغيرها.

علمتني الحياة خطتين في سياستي مع الناس.. خطة أتبعها فيما يصيبني من الناس، وخطة أتبعها فيما يصيب الناس مني فاسترحت كثيرًا من تبديد شعوري في غير طائل، وعرفت كيف يكون الاقتصاد في إنفاق ثروة الحياة.

أما خطتي فيما يصيبني من الناس، فهي أن أتناول طباعهم وأخلاقهم جملة واحدة.. ولا أفرق بينهم على حسب اختلاف

الأشخاص والأفراد.

كان الخلق الواحد في مبدأ الأمر يسبب لي الألم وخيبة الرجاء عشرات المرات بل مئات المرات.. وكنت في كل مرة أشعر بصدمة المفاجأة كأنني أكتشف شيئا جديدا لم أتوقعه من قبل.

ثم تعودت مع الزمن أن أجعل للناس جميعا حسابا واحدا في رصيد المكسب والخسارة، فهبطت الخسارة كثيرًا على الأقل.. وهذا في ذاته مكسب معدود.

تعودت أن أجمع الأخلاق في أنواعها، وأن أضع كل نوع منها تحت عنوانه. في الناس أنانية.. في الناس صغار.. في الناس سخافة.. في الناس نقائص وغرائب.. وهكذا، وهكذا.. إلى آخر هذه المألوفات التي توارثناها نحن أبناء آدم وحواء، فليس فيها من جديد.

فإذا أصابني من الناس شيء مكدر رجعت به إلى عنوانه، فوجدته مسجلا هناك ولم يفاجئني بما لا أنتظر. في الناس أنانية.. في الناس صغار.. نعم.. نعم. وماذا في ذلك؟ ألم تعلم هذا من قبل؟ بلى، علمته مرة بعد مرة.. فما وجه الاستغراب، ولماذا الألم والشكوى؟

* وراقبت نفسي طويلا فوضعت نفسي في القائمة.. وتعودت أن أقول لها كلما أصابها ما يكدرها: (وأنت أيضًا كذلك). فلا محل للحساب والعتاب.

أما خطتي فيما يصيب الناس مني، فهي أن أسأل نفسي كلما شعرت بسخطهم وانتقادهم: (هل الأمر يعنيني؟) وبعبارة أخرى: (هل يضيرني أن أفقد رضاهم؟ وهل يعيبني أن أفقده؟ فإذا كان في الأمر ما يضير أو ما يعيب فالأمر يعنيني، ولابد من معالجته بما أستطيع وإلا فلا وجه للتعب والاكتراث.

وعولت دائما على المقياس العملي؛ لأن الجري وراء النظريات لا ينتهي إلى غاية.. فكنت أضع أمامي على الدوام خمسة أو ستة من الذين أعرفهم، وأعرف أنهم من أصحاب الحظوة عند الناس، وأن الناس لا يسخطون عليهم ولا ينتقدونهم فأتساءل: (هل يسرك أن تكون مثلهم، وأن تحصل على الرضى كما حصلوا عليه؟)، وكان جواب هذا التساؤل نافعا لي على الدوام؛ لأنه يحدد لي العمل اللازم، أو يعفيني من كل عمل، ويبين لي في معظم الأحوال أن ثروة الرضى والثناء عملة زائفة أو عملة صحيحة على أحسن الوجوه، ولكن الاستغناء عنها غير عسير. ومن التجارب الكثيرة في الأشخاص الذين عرفتهم حق المعرفة، تبين لي أنهم يحتالون، ويتعبون عقولهم وضمائرهم في الاحتيال طلبا للشهرة التي لا تهمهم لذاتها، ولكنها تهمهم لغاية يصلون إليها من ورائها. وحمدت الله لأن تلك الغاية لا تهمني أنا، ولا تستحق عندي أن أبذل فيها أقل تعب حتى لو استطعته كل لحظة وكنت كمن يتمنى نصيبا من المال ليشتري به شيئا، ثم علم أن الشيء لا يستحق الشراء، فاستغنى عن المال واستغنى عن تمنيه.

خطتان سهلتان: خطة مع الناس وهي أن أجمعهم جملة واحدة..

وخطة مع نفسي وهي أن تقصر جهودها وهمومها على ما يعنيها.

والخطتان سهلتان كما قلت، ولكنني لا أنسى أن أقول أنهما سهلتان على من هو مثلي، مطبوع على العزلة وقلة الاختلاط بالناس.

وحب العزلة عادة لم أتعلمها من الحياة، بل أخذتها من أبوي الاثنين بغير تعليم. فمن استطاع أن يتعلمها فليتعلمها.. إن كانت تعنيه!

***

الحياة هدف وإرادة

بقلم توفيق الحكيم

تخرج توفيق الحكيم في مدرسة الحقوق. ولكن اهتمامه كان موجها للأدب والفن المسرحي فألف مسرحيات مثلتها بعض الفرق التمثيلية. وإن كانت روايته التمثيلية الأولى قد كتبها قبل ذلك العهد بعدة أعوام - سنة ١٩١٨، واسمها «الضيف الثقيل» - وكانت ترمز إلى احتلال الإنجليز لمصر، فلم يسمح بتمثيلها. وسافر توفيق الحكيم إلى فرنسا وانغمر في جوها الأدبي والفني. ثم عاد ليبحث عن عمل يعيش منه. فاضطر إلى الانخراط في سلك القضاء ثم انتقل إلى وظيفة مدير للإرشاد الاجتماعي بوزارة الشئون الاجتماعية. ثم لاح له أمله القديم في ترك المناصب والانقطاع إلى الأدب والفن، فاعتزل خدمة الحكومة وخصص نفسه للكتابة أعواما طويلة في الكتب والصحف، ثم ترك الصحافة ليشغل منصب مدير لدار الكتب المصرية.

أعتقد أن أهم خطوة في حياتي، هي أني استطعت أن أحدد هدفي من الحياة منذ الصبا.. فإني لم أكد أمضي قليلا في مرحلة التعليم الثانوي، حتى وطنت العزم على أن أكون أديبا كاتبا، ولم أدر لذلك سببا. فأنا لم

أكن من المبرزين في اللغة وآدابها.. بل كنت تلميذا عاديا. على أني أذكر ميلي الخاص دائما إلى الفنون الجميلة منذ الطفولة. فكنت مولعا بالرسم ثم الموسيقى، ولكن ازدراء أهلي لهذا العمل لم يشجعني على التشبث به. فلما جاءت مرحلة المطالعة ووجدت في يدي ما صادفني من كتب وقصص، تيقظ في نفسي حب الفن في صورة أخرى. وكان والدي من رجال القضاء، ولم تكن الجامعة قد أنشئت في مصر وقتئذ.. فأدخلني مدرسة الحقوق لأصبح فيما بعد مثله من رجال السلك القضائي. ولكني لم أظهر ميلا إلى القانون، وكان حبي للأدب والفن قد نما بمطالعتي الكثيرة الخفية. ولاحظ والدي مني ذلك، فجعل يحذرني من سوء المصير إذا انحرفت غن القانون إلى الأدب. ولكني كنت قد قررت في نفسي مصيري.. وهذا القرار الذي يتخذه الإنسان في شأن مصيره قلما تنقضه الأيام، إذا كان صادرا حقا عن إرادة وإيمان.

ولا أعني بالإيمان هنا أن يؤمن الإنسان بمواهبه، فأنا من أقل الناس ثقة بأن لي مواهب.. وإنما أومن بالهدف الذي وضعته نصب عيني، وركزت إرادتي في السير نحوه.

و لم يكن أمامي خطر أخشاه إلا تعدد الهدف وحيرة الإرادة.

وكان هذا الخطر من أشد ما تعرضت له في حياتي وكافحت للتغلب عليه. فقد تفتحت أمامي أبواب كثيرة كان من الممكن أن تغير مجرى حياتي.. كانت أمامي وظائف السلك القضائي، وكان أمامي

الاشتغال بالسياسة.. بل كانت أمامي يوما فرصة العمل للسينما على نطاق تجاري. وكان في مقدوري النجاح في كل باب من هذه الأبواب، لأن طبيعتي قابلة للتكيف.. ولكن إيماني بوحدة الهدف جعلني أخصص نفسي لخدمة الأدب وحده.

وعلى الرغم من اعتقادي أن الحياة هدف وإرادة، فإني قد لاحظت فيها وجود كائن هائل هو وحده الذي أحسب له كل حساب.. ذلك هو (القدر) وهو معي ساخر دائما. وهو لا يبدو لاذعا في سخريته إلا عندما يلمح مني بادرة شعور بأني اقتربت من هدفي.

وقد علمني بذلك أن المقصود من الهدف هو السير نحوه لا بلوغه.. لذلك ما أحسست يوما بأني بمأمن إلا عندما أسير وأعمل،لأن القدر لا يسخر ممن يسيرون ويعملون. وإذا فعل فإنه لا يجد لديهم وقتا أو فراغا يتألمون فيه كثيرًا لما يفعل بهم.. ولكنه يسخر أقسى السخرية من أولئك الذين يظنون أنهم وصلوا وانتهوا إلى الغايات.

لذلك لا أعرف بالضبط ماذا جنيت من حياتي حتى الآن. فأنا -وقد تجاوزت الخمسين- لا أستطيع أن أقول إني بلغت هدفا. ولكني أستطيع القول إن حياتي كلها قد أنفقتها في السير المضني نحو هدف واحد لا يتغير.

وأني لأسأل نفسي أحيانا: هل كنت على صواب في تركي الأهداف الأخرى التي كان سن الممكن أن أنجح في تحقيقها..؟ فأتلقى الجواب

من طبيعتي الخاصة أن مجرد النجاح على إطلاقه ما كان قط يغريني. فالنجاح في الوصول –حتى في مجال الألقاب العلمية والأدبية والاجتماعية وغيرها– لا يهمني بقدر ما يهمني تكوين نفسي.

وكل نجاح يأتيني عن طريق آخر غير طريق هدفي الحقيقي، وهو تحقيق ذاتي في الخلق الأدبي الفني، هو نجاح لا يستحق في نظري بذل جهدي للحصول عليه؛ لأني لا أزن الحياة بميزان المنافع العاجلة. فالحياة عندي في جوهرها هي تحقيق الذات، أي استخراج خير ما في أعماق الإنسان من ملكات.

وفي الإنسان أحيانا ملكات كاذبة يجب في اعتقادي أن يضحي بها في سبيل إظهار الملكات الأصلية.. حتى ولو كلفه ذلك خسارة مادية أو معنوية.

فكرة واحدة هي التي تعذبني دائما.. هي احتمال الخطأ في تقدير الملكة واختيار الهدف. من أدراني أن ما حسبته ملكة أصلية لم يكن سوى ملكة كاذبة؟! وأن تلك الحياة التي ركزتها كلها في استخراج قطعة من حجر نفيس لم تكن سوى حياة ضائعة هباء؟ عزائي الوحيد هو أني أعتقد أن مجرد الجهد المبذول في الحفر على أعماق النفس لاستخراج خيرها هو عمل شريف في ذاته، حتى ولو كشف في النهاية عن حصى ورمال مخيبة للآمال.

***

الرجل الحق يغم نفسه ولا يغم عياله

بقلم شفيق جبري

ولد شفيق جبري في دمشق الشام سنة ١٨٩٨، ودرس في مدرسة فرنسية أصحابها رهبان عازاريون، ثم انصرف إلى المطالعات الخاصة.. فقرأ من شعر العرب وكتبهم طائفة لا بأس بها، وعنى بصورة خاصة بالكتب التي تغذي العقل، وأولع بالكتابات التي تشيع فيها بشاشة الحياة. عالج الشعر.. فكان شعره مطبوعا بطابع وطني قومي بالنظر إلى الأحوال التي قيل فيها، ومارس الكتابة التي يغلب عليها الجهد والتعب. وهو الآن عضو المجمع العلمي العربي في دمشق، وعضو مراسل في مجمع اللغة العربية، وعميد كلية الآداب في الجامعة السورية...

الحياة مسرح يجرب فيه الإنسان عقله وشعوره وعاطفته وحسه وذوقه، فيهتدي كل يوم إلى أمور جديدة؛ لأن الحياة غير ثابتة.. ففي كل عصر مذاهب جديدة في كل ناحية من نواحي الفكر، في الفلسفة والأدب والعلم والاجتماع والاقتصاد وما شابه ذلك، في كل عصر حركات جديدة وأزياء جديدة...

وعلى هذا الشكل تتسلسل آثار العقول، فيقدم كل عصر نتائج ما

يهتدي إليه إلى العصر الذي يليه. ويزيد كل عصر في هذه النتائج بقدر ما يتيسر له من العلوم والتجارب.

قد يكون من هذه العلوم والتجارب ما يحتاج إلى تعديل. فمن عصر إلى عصر يظهر علم جديد يعفى على آثار علم قديم، وتظهر تجارب حديثة تبطل تجارب عتيقة. فالإنسان يحتاج من حين إلى آخر إلى تعديل ما تعلمه أو جرَّبه، والخطأ كل الخطأ في الثبوت على علوم باطلة أو تجارب فاسدة، والذي يفيد البشرية إنما هي هذه التعديلات التي ندخلها على آرائنا من حين إلى آخر.

والآن نصل إلى جوهر السؤال: ماذا علمتني الحياة؟ أو ماذا تعلمت من الحياة؟

قد يتعلم المرء في حياته أمورًا لا سبيل إلى إحصائها في ورقة أو ورقتين.. ولكن لا نرى العبرة بكثرة علومه، وإنما نرى العبرة بمقدار انتفاعه بهذه العلوم. فإذا ذهبت إلى الإتيان على ذكر ما تعلمته في حياتي، طال علي المجال.

وقد يكون الذي تعلمته أو جربته قد تعلمه غيري أو جربه، فالمهم -على ما أعتقد- أن يذكر الإنسان ما انتفع به من علومه وتجاربه في حياته.

لقد قرأت بعض الكتب ووقفت على بعض التراجم.. فإذا كنت استعظمت رجلا من رجالنا في قديم الدهور، فقد استعظمت رجلا

قالوا فيه أنه إمام في العلم، رأس في الزهد عارف بالفقه، بصير بالأحكام، حافظ للحديث، مميز لعلمه، قيم بالأدب، جماع للغة. هذا الرجل إنما هو إبراهيم بن إسحق الحربي، عاش في القرن الثالث. وعلى الرغم من الأمور التي حصل عليها، لم تكن له شهرة كشهرة عظماء أدبائنا أو علمائنا.

قرأت ترجمته وعسى أن أنتفع بخلق من أخلاقه.. كان لا يشكو إلى أمه ولا إلى أخته ولا إلى امرأته ولا إلى بناته حمى يصاب بها. كان به صداع بأحد جانبي رأسه خمسا وأربعين سنة ما أخبر بذلك أحدا، وأفنى من عمره ثلاثين سنة برغيف في اليوم والليلة. ولو أردت الإتيان على هذا النوع من شظف عيشه وصبره، لذكرت الشيء الكثير.. وإنما المهم أن نعرف هذه الحكمة التي انتقلت إلينا على لسانه، وهي «الرجل الحق هو الذي يدخل غمه على نفسه، ولا يغم عياله». ما أظن أني أخرج عن موضوعي إذا استشهدت بسيرة عظيم من عظمائنا؛ لأن أصل السؤال «ماذا علمتني الحياة؟» فإذا قلبت السؤال، قلت: «ماذا علمني إبراهيم بن إسحق الحربي؟!..» والنتيجة واحدة.

إنا نعيش في عصر غلبت فيه المادة على كل شيء.. فكان لهذه الغلبة عواقب وخيمة في أخلاقنا واجتماعياتنا.. في حياتنا كلها، فالعصر الذي نعيش فيه إنما هو عصر المادة، فكل شيء يقاس بها. لقد ضعفت قيمة الروحانيات حتى كادت تموت، لقد أفسدت هذه المادية سياستنا وأدبنا

وعلمنا وأوضاعنا الاجتماعية بحذافيرها ولا سيما الزواج.. فإذا كان من الواجب على رجال الفكر أن يبينوا في هذه الأيام ماذا علمتهم الحياة حتى تنتفع البشرية بآرائهم، فمن الواجب عليّ أن أعترف بأن الذي علمني إياه إبراهيم بن إسحق الحربي في احتمال الحياة والصبر على مكارهها إنما هو شيء عظيم.

ولست أرى في هذا التعليم أثر زهد يقعد بصاحبه عن السعي في الحياة ويميل به إلى الكسل والخمول، وإنما أرى فيه جوا روحانيا يقوى سعي صاحبه ويشد آماله.. فالرجل الذي يدخل غمه على نفسه ولا يغم عياله، إنما هو رجل يخلق لنفسه أفقا روحانيا يعيش في ظلاله في كثير من الهدوء والعالم حوله مضطرب، وفي كثير من الراحة والدنيا حوله تعبه، وفي كثير من القناعة والجشع حوله هائج مائج.

ويستطيع في هذا الأفق الروحاني الهادئ المستريح القانع أن يعمل كثيرًا، وأن ينتج كثيرًا، وأن تنتفع البشرية بعمله وإنتاجه!

***

لتكن آراؤك من وحي ضميرك!

بقلم الدكتور فيليب حتى

ولد الدكتور فيليب حتى في يونيو سنة ١٨٨٦ ببلدة شيملان من أعمال جبل لبنان. وقد ظفر بدرجة البكالوريوس في الآداب من جامعة بيروت الأمريكية في عام ١٩٠٨، وحصل على الدكتوراة من جامعة كولومبيا الأمريكية سنة ١٩١٥، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة وأصبح مواطنا أمريكيا عام ١٩٢٠. وقد اشتغل بتدريس التاريخ بالجامعة الأمريكية في بيروت، ثم التحق بقسم الآداب الشرقية بجامعة برنستون في الولايات المتحدة حتى أصبح رئيسا وأستاذًا لهذا القسم منذ عام ١٩٤٤.

وهو معروف بنشاطه ومؤلفاته الكثيرة في الميادين الأدبية والثقافية والاجتماعية..

علمتني الحياة أن أعرب عن آرائي -إذا طلب إليّ ذلك- في اعتدال ولباقة، وطبقا لما يمليه الضمير، ووفقا لما تتطلبه الأمانة الفكرية وذلك بغض النظر عما إذا كانت تلك الآراء مناسبة أو مقبولة من الجانب الآخر، سواء أكان مستمعا أم قارئا.

وبعد، فإن المرء إنما يعيش مع نفسه، ولن تتاح السعادة أبدا ما لم

يتوفر السلام الوثيق بين اللسان والقلم من ناحية، وبين المبادئ الشخصية من الناحية الأخرى.

حدث في أوائل شهر يناير سنة ١٩٥١ أن نزلنا في القاهرة ضيوفا على الحكومة المصرية بمناسبة الاحتفال بمرور خمسة وعشرين عاما على إنشاء جامعة القاهرة، وكنت أنا ممثلا لجامعة برنستون. وكان هنالك مندوبون للجامعات وللهيئات العلمية من مختلف أرجاء العالم.

وسعى رجال الإذاعة الحكومية لتسجيل حديث يذاع في مختلف أرجاء العالم العربي. وكان بين الأسئلة المطروحة عليّ هذا السؤال المعتاد: «ما رأيك في مصر، وما هي الآثار التي انطبعت في ذهنك عن تقدمها في مختلف نواحي الحياة من ثقافية واجتماعية واقتصادية؟» وهنا ألفيتني في ورطة.. لقد كانت الحكومة تبالغ في إكرامنا، وكان مندوبوها يعاملوننا أحسن معاملة.

أفهل يسعني إذن أن أعرب عن آرائي بأمانة وصراحة بغض النظر عن كافة العواقب، أم أعرض ضميري وأمانتي الفكرية للمهانة لمجرد إرضاء المستمعين؟ ومهما يكن من أمر فقد جرت إجابتي على النسق التالي: «لا شك أننا قد تأثرنا بمدى التقدم الذي تحقق في المستوى العالي للتعليم، ولكننا تأثرنا بالمثل، بتلك الثغرة الواسعة التي تفصل ما بين القلة المتعلمة تعليما عاليا، والجماهير الغفيرة من الأميين. ومثل هذا يمكن أن يقال عن الثغرة الواسعة التي تفصل ما بين عصبة

الأرستقراطيين الثرية والجماهير الفقيرة التي يخطؤها العد والتي تعيش عيشة الحرمان والجوع، وما لم يعمد ذوو السلطة إلى التنازل عن بعض نفوذهم وسلطانهم، ويجعلوا الذين لا يملكون يشاركونهم بقسط أوفر فيما يملكون، ومن ثم يهبطون -من ناحية- بأعلى المستوى، ويرتفعون -من ناحية أخرى- بحده الأدنى، حتى تضيق المسافة بينهما - أجل، ما لم يبد ذوو السلطان طواعية واختيارًا رغبتهم في صنع ذلك، فلسوف يأتي وقت -وربما عن قريب- يضطرون فيه إلى صنع ذلك قسرا وعن غير رغبة منهم».

وحدث أن كان مدير جامعة استنبول على مقربة، بحيث استمع إلى الحديث المسجل، فأعرب عن دهشته من «جسارتي وجرأتي» وأفضى إليّ بما سمعه من همسات رجال الإذاعة باللغة العربية، التي لم يستطع فهمها بوضوح.

ولم يكن بفندق شبرد أي راديو. ومن ثم لم نستطع الإصغاء إلى إذاعة الحديث المسجل. ومع ذلك فقد أخبرني رجال الإذاعة عندما قابلتهم في الصباح التالي أن «رقيب جلالة الملك» قد مر بقلمه الأحمر على العبارة بحذافيرها، ومن ثم لم يذع حديثي المسجل.

وفي يوليو من عام ١٩٥٢ أي بعد مرور عام ونصف عام على هذه الحادثة أصبح الملك «لاجئا» إلى إيطاليا وقدم «رقيبه» للمحاكمة!

***

استقرار المرأة في البيت يربو على آلاف الحقوق السياسية

بقلم السيدة أمينة السعيد

دخلت الجامعة المصرية في الفوج النسائي الأول، وكانت أول فتاة تدخل قسم الأدب الإنجليزي وأول خريجة فيه.. وقد حصلت على شهادة الليسانس عام ١٩٢٥ ومنذ ذلك العهد وهي تشق طريقها في عالم الكتابة بجد ومثابرة. وكانت دائما شديدة الاهتمام بقضايا المرأة، فاشتغلت بالنهضة النسائية. وعندما أسست الزعيمة الخالدة هدى شعراوي الاتحاد النسائي العربي العام سنة ١٩٤٤، اختيرت السيدة أمينة السعيد أمينة سر عامة للاتحاد. وهي تشترك الآن في تحرير مجلات دار الهلال.

كنت في السابعة عشرة من عمري، عندما دخلت كلية الآداب بجامعة فؤاد.. «جامعة القاهرة الآن» وكان والدي على غير المألوف من أهل جيله رجلا تقدميا بكل ما في هذه الكلمة من معان كريمة فاضلة. فتمتعنا في صغرنا بكثير من الحريات التي لم يكن يستمتع بها البنات إذ ذاك. وكان طبيعيا أن أمضي في حياتي الجامعية على ما اعتدت من تحرر

عظيم، غير مبالية بتقاليد العهد الصارمة، فلم ألبث مثلا أن اشتريت مضربا للتنس، ومارست به رياضتي الحبيبة، وتدرجت من ذلك إلى الشيش، فكنت أول مصرية تمسك السيف بيدها.. وآلمني أن أرى الطالبات حزبا، والطلبة حزبا آخر، فأقمت في بيتنا حفلات للتعارف، أشرف عليها والدي بنفسه، وحضرها بعض أساتذتي وعمدائي.

وكان سلوكا غريبا لم تعرفه الجامعة في طالبة قبلي، وكانت التقاليد الرجعية مازالت سائدة والبنات يخضعن لها خضوعا تاما، فينطوين على أنفسهن، ويبتعدن عن كل وجه من أوجه النشاط الجامعي.. وأغضب المتزمتين أن أخرج عن العرف المألوف، واعتبروا تصرفاتي بدعا تسيء إلى المبادئ الاجتماعية الوطنية، فثارت نفوسهم لذلك ثورة شديدة، وبدأت الزوابع تتجمع حولي، وأنا لاهية عنها بحياتي الجامعية المسلية. ولم أنتبه إلا وقد انفجرت مراجل الغضب، فابتعد الزميلات عني خوفا من أن ينالهن الأذى بصداقتي، وانبرت المجلات الأسبوعية إلى التنديد بي في أسلوب جارح مهين. واشترك بعض رجال الإدارة الجامعية في الحملة. فكانوا ينتقدوني علنا وعلى مسمع مني، وغرضهم بذلك أن يسيئوا إلى شعوري بقدر ما أسأت -في رأيهم- إلى العرف الشرقي المألوف.

وأعترف صراحة بأن هذه الثورة أصابتني في صميم كياني وتركت في نفسي آثارا لم تزل حية إلى يومنا هذا، ولكني لم أكن بطبعي جبانة

لأتقهقر. ولم أكن أيضًا خبيرة بشؤون الحياة لأحسن تصريف الموقف، ولذلك اعتبرت الثورة تحديا من أسرة الجامعة.. فقبلت التحدي في غضب طائش، وجعلت أرد الصاع صاعين، لمن ألمح فيه بادرة للانتقاد. وكثيرًا ما كنت أبدأ بالعدوان وأمعن فيه لأنتقم لنفسي قبل أن ينالني الأذى.. فساءت الأحوال إلى أبعد حد، وأصبحت حياتي في الجامعة أشبه ما يكون بمعركة رهيبة أحارب فيها وحدي بأسلحة خائبة.

وظل أبي يرقب الحال من بعيد ولا يتدخل في أموري بكلمة أو إشارة، حتى إذا رأى أنني بدأت أخرج في غضبي عن دواعي الحكمة والمنطق ناداني إلى غرفته، وقال:

- إني أراك في ثورة جامحة، فما السبب؟

قلت وأنا أغالب الدموع:

- إنهم يظلمونني ويهاجمونني، وأحب أن أرد لهم إساءتهم بالمثل وأكثر..

- قال: «وماذا يأخذون عليك؟».

قلت: «إنني ألعب التنس والشيش، وهم يعتقدون أنني أخرج بذلك عن دواعي الاحتشام».

قال: «ولكنك تدفعين رسوم الاتحاد في أول العام الدراسي، ومن حقك أن تمارسي الرياضة على مختلف أنواعها.. فأنت والأمر كذلك

على حق، وليس لأحد أن يمنعك من الرياضة أو ينتقدك عليها.. فهل هذا كل ما يأخذون عليك؟».

قلت: «إنهم يكرهون أن أشترك في المناظرات الثقافية، وأن وقوفي على المنصة مع الرجال، جنبا إلى جنب، يتنافى مع الحياء النسوي».

قال: «ولكن المناظرات نشاط اجتماعي محمود، ومن واجب الطالبة الجامعية أن تشترك فيه.. ويسرني أن تكوني في هذا الميدان قدوة طيبة لبقية البنات.. فهل من مأخذ آخر؟».

قلت: «إن الحفلات التي أقمتها للتعارف أثارت ضجة خبيثة.. وقيل في وصفها ما قيل من التهم القبيحة».

قال: «ولكن التعارف واجب بين الزملاء والزميلات، وأنا الذي أذنت لك بإقامة الحفلات في بيتي.. وأشرفت بنفسي على كل صغيرة وكبيرة من أمورها، وقد حضرها أساتذتك وعمداؤك، فمم تخافين؟».

قلت: «إنهم لا يفهمون منطقنا هذا، وأخاف أن يوقعوا بي حتى تفصلني الجامعة من سلك طلابها. وإذا كان لابد من فصلي فأنا أحب أن أسبقهم إلى الإساءة فأنتقم لنفسي وأغيظهم».

قال: «ولكنك تخرجين بغضبك عن دواعي العقل والمنطق، وأخشى أن تدمري نفسك بنفسك».

قلت: «هذا لا يهم............».

قال في صرامة: «ليس من عادتي أن أتحكم في أمرك، ولكني أحب أن تكوني على بينة من اتجاهاتي، لتختاري طريقك في غير التباس.. أنا أكره أن تكوني جبانة فيخيفك الهجوم، ولكني أكره أن يضللك الغضب والتحدي فتخطئي سبيل العقل.. ولذلك أؤكد لكِ أنكِ إذا فصلت من الجامعة مظلومة لأي سبب من الأسباب السخيفة التي يأخذونها عليك، فسوف أكافئك على الفصل بإرسالك إلى أرقى الجامعات الأوروبية تتمين فيها تعليمك العالي. أما إذا فصلت عن حق وكنت الملومة بخطأ صغير أو كبير، فلن تنالي تعليما عاليا، وسأبقيك في البيت جاهلة شأنك شأن ملايين الفتيات المصريات. هذه كلمتي الأولى والأخيرة ففكري فيها ثم اختاري ما يعجبك».

ولم يشأ والدي أن يقول أكثر من ذلك بعد أن وضح اتجاهاته ونواياه. وترك لي مطلق الحرية في تقرير مصيري. وأشهد أني لم أفهم فلسفته في بداية الأمر.. فلما أمعنت التفكير فيها، لم تلبث الغيوم أن انقشعت عن رأسي، وتكشفت لي الحياة عن حقائقها في جو جديد من الإيمان بالمبدأ، والثقة بالنفس. ورأيتني أراجع نفسي في كل خطوة قبل أن أخطوها، وأناقش منطقي وضميري في كل فعلة أفعلها، حتى لا أخرج عن سبيل الحق فأحرم فرصة التعليم الجامعي، وحرصت كل الحرص على أن أتمتع بحقوقي مؤمنة بها، وأقوم في مقابل ذلك بواجباتي على أحسن وجه، وأن أسير في الحياة مطمئنة إلى عدالة والدي الرجل الوحيد الذي يملك ناصية مستقبلي.

وكان درسا خلقيا ممتازا. فإن المثابرة على سلوك سبيل الحق شهرا بعد شهر وسنة بعد سنة، غرس في نفسي حب الحق والانتصار للعدالة في كل تصرفاتي وأحكامي، وعلمني أن أطلب الحق من نفسي قبل أن أطلبه من غيري، وتكيفت أخلاقي على مضى الزمن بهذه الخلة الحميدة فعرفها الزملاء والأصدقاء، وعندما وقفت في ميدان الكتابة، وبنيت اسما صحفيا طيبا، اقترنت شهرتي دائما بالعدالة والانتصار للحق.. فقصدني في طلب المشورة أعدائي وأحبائي على السواء، وكلهم إيمان بأنني لا أحيد عن العدل ولو كان الغرم من نصيبي شخصيا.

وقد أفادتني هذه الصفة في جهادي الطويل من أجل ترقية أحوال المرأة، ولا أذكر أنني خرجت يوما عن دواعي الحق في مطلب أو دعوة، فأنا أعلم مثلا أن الجهل ما زال منتشرًا في النساء وأن التشريعات العائلية بصورتها الراهنة أحق بالعلاج من دخول البرلمان. والبيت في رأيي جنة ما بعدها جنة. واستقرار المرأة فيه يعادل آلاف الحقوق السياسية.

ولا شك أن اتجاهي هذا كان السر الحقيقي في ثقة أصحاب الشأن بما أكتب أو أقول، ولا شك أن انتصاري للحق قد ساهم في بناء شهرتي أكثر مما ساهم القلم، ولكنني لست صاحبة الفضل في الميزتين.. إنما كان صاحب الفضل والدي، بنصيحته الغالية، فألف رحمة عليه.

***

الرحمة تسع المحسن والمسيء!

بقلم الدكتور أحمد زكي

ولد في السويس، وتعلم في المدارس الأميرية المصرية من ابتدائية وثانوية. ثم نال دبلوم مدرسة المعلمين العليا. واشتغل بتدريس العلوم في المدارس الثانوية والأزهر، ثم سافر عقب الحرب العالمية الأولى إلى إنجلترا فقضى بها نحوا من عشر سنوات ظفر خلالها بعدة درجات علمية رفيعة، نال درجة الدكتوراة الفلسفية. ونال درجة الدكتوراة في العلوم، ثم عاد لمصر حيث أصبح أستاذًا بكلية العلوم، ثم مديرًا لمصلحة الكيمياء، ثم مديرًا لمجلس البحوث، ثم عين وزيرًا ثم مديرًا لجامعة القاهرة.

ألا ما أكثر ما علمتني الحياة...

ومما علمتنيه الحياة، أن التربية الأولى هي الأصل الأول من أصول النجاح في الحياة. وأن مرجع هذا إلى الوالدين، وإلى البيت، وإلى البيئة. وأن التربية الواسعة العريضة، حتى مع الضحالة، خير من التربية الضيقة العميقة. وأن التعميم في أول الأمر خير من التخصيص. ذلك لأن الرجل منا لا يدري ما يأتي به الغد... إذن لأعد له، وأعد له وحده.

فكل احتمالات الغد يجب أن تكون نصب عين المربي. والأب أول مرب، وكذلك الأم. ولو أني ملكت من أمر تربيتي في صغري ما أملك الآن، إذن لتعلمت الرياضة والسباحة والرماية وركوب الخيل، وإذن لتعلمت الرسم والنحت والموسيقى والغناء، وكل ما وقع في طريقي من صور الفن. وإذن لتعلمت اللغات من إنجليزية وفرنسية وألمانية وإيطالية.. ذلك والعمر غض، ومادة المخ مرنة تلتقط بأيسر جهد. وإذن وإذن..

هذا إلى جانب ما تعلمني المدارس، فإذا كبرت اتسع اختياري للحقل الذي أعمل فيه لكثرة ما أعددت للحياة من عدة. وليس فيما أعددت ما يذهب أبدا هدرًا.

ومما علمتنيه الحياة، حاجة صاحب العيش إلى الأصدقاء... أن الذي يعيش في الناس لابد أن يعرف الناس، وأن تعرفه الناس، وأن يعين وأن يعان. ولقد حرصت على الأصدقاء صغيرًا كل حرص، وحرصوا.

وكان الولاء ولاء قلب.. وكلما كبرت وكبر معي الأصدقاء تحول ولاء القلب إلى ولاء عقل، وولاء حساب، من جمع وطرح. وثقلت مطالب العيش على الصديق منهم وتزويج.. فتركزت همومه في داخل أسرته على الزمن، فقل همه بالذي خرج عنها، فبالأصدقاء! وتدهورت الصداقة فصارت مفاوضات، في الخير وفي الشر.. فلم يبق من خير

الصديق الصادق ببذله للصديق الصادق إلا النصيحة الخالصة. والنصيحة الخالصة شيء عزيز عظيم. فأنا استنصح الأصدقاء الخلصاء.. لا لأتبع، ولكن لأزداد فهما، ولأدرك كيف يرى الناس الأمور من زوايا غير زاويتي، لتكون نظرتي أشمل، ثم يكون الحكم آخر الأمر لي، ولي وحدي. وكثيرًا ما خالفت النصحاء، فحمدت العاقبة.

وعلمتني الحياة كراهة الضيق.. الضيق في المكتب، والضيق في المسكن، والضيق في المغدى والمراح.. وكذلك ضيق عقول، وضيق قلوب.

إن الذي ظهر لنا من هذا الكون دنيا لها أفق واسع، والذي لم يظهر منه له أفق بل آفاق أوسع. وليس يناغم الحي الحياة بهذه الدنيا إلا بالواسع من كل شيء. وأكره ما أكره من صنوف الضيق، ضيق الأذهان على أي صورة في الناس كان.. وما أكثر صوره التي يكون بها في الناس. وهم يعبرون عنه بالتعصب الذهني. وقد يتعصب الرجل لرأيه جزافا، وقد يتعصب لأسرته جزافا، وقد يتعصب لأمته، أو للونه، أو لدينه، أو حتى لعقيدة سياسية تقع عنده أنها الصواب، وسائر العقائد الخطأ. وهذا حمق ذهني لم أجد وراءه حمقا، واعتداد بالغ بقدرة عقل بعد أن تبين الناس ما في العقول من قصور.

أما ضيق القلوب فصفة للقلب الذي لا تدخله الرحمة من باب

واسع، الرحمة التي تسع الناس جميعا، من كل رأي وكل جنس وكل أرض. الرحمة التي تسع لمحسن وتسع المسيء، وتدرك حقيقة الطبيعة الإنسانية في أوج علاها، وفي الدرك من حضيضها. فتفهم كل شيء، وتغفر كل شيء.. الرحمة التي تطول فيطاول بها الإنسان رحمة الله.

وعلمتني الحياة وعلمتني....

إن الحياة علمتني دروسا ألفا... هذه ثلاثة منها..

***

إذا سرت وصلت

بقلم حافظ وهبة

الأستاذ حافظ وهبه سفير المملكة العربية السعودية بلندن.. ولد منذ أكثر من ستين عاما في حي بولاق بالقاهرة.. وتعلم بالأزهر، ومدرسة القضاء الشرعي. وأولع بالمغامرة وهو في مطلع الشباب، فسافر مغامرًا لاستنبول والهند والكويت إلى أن التقى بجلالة الملك عبد العزيز آل سعود فاتخذه مستشارا سياسيا له، فحاكما لمكة. ثم جعله سفيرا للمملكة العربية السعودية في لندن.

لقد كانت حياتي كلها كفاحا ومغامرة.. كفاحا ضد الأمراض التي كانت تعصف بالأطفال والشباب في أيامنا، وكفاحا ضد الخرافات السائدة في أحيائنا..

لقد كنت طموحا بفطرتي، فلم أقنع بلون من ألوان الحياة التي كان يقنع بها زملائي في الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي.

لقد منحني الله من قوة الصبر والاحتمال ما مكنني من احتمال كثير من محن الحياة.. لقد كان سلواي في محنى الآية الكريمة ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ صدق الله العظيم.

لقد كان لبعض أساتذتي بالأزهر الفضل الأكبر في تحرير عقلي من عبادة المؤلفين وتقديس الكتب، كما كان لكتابي «سر تقدم الإنجليز السكسونيين» ترجمة فتحي زغلول، و«التربية الاستقلالية» ترجمة عبد العزيز محمد، الأثر الأكبر في اعتمادي على نفسي وحبي للمغامرة والمخاطرة.

ولدت قبل ستين سنة في حي بولاق من أحياء القاهرة في وقت ساد الجهل فيه مصر، وتحالفت على جيلنا جميع الأمراض المعدية والفتاكة، فلم يبق من هذا الجيل إلا من كتب الله له السلامة بما منحه من المناعة القوية. وبالرغم من جهل وسطنا، فإن آباءنا كانوا شديدي الحرص على تعليمنا بالقدر الذي تمكنهم منه مواردهم المالية ومداركهم الفطرية.

دخلت الكتَّاب أو المدرسة المتواضعة، فتعلمت القراءة والكتابة ومبادئ الحساب وحفظت القرآن الكريم كأمثالي طلبة الكتاب.. وهنا قامت أول معركة بين والدي ووالدتي. فأمي تريدني أن أكون من المطربشين، وتود أن ألتحق بإحدى المدارس النظامية كمدرسة عباس في حي بولاق. ووالدي يريد أن ألتحق بالأزهر لأكون عالما من علمائه كالشيخ بخيت، أو الشيخ محمد عبده، أو الشيخ على حسين البولاقي الذي ارتفع شأنه في حينها.

أما أنا فكنت أميل إلى رأي والدتي، فلم أكن في تلك السن أفهم من الالتحاق بالأزهر إلا أن أكون من المحترفين قراءة القرآن سواء في البيوت أو في المآتم أو على المقابر، وكنت بفطرتي أكره هذه الحرف أشد

الكره غير أني التحقت بالأزهر بالرغم مني، وكما أراد أبي.

لقد كانت خيبة أملي عظيمة.. فالنظافة لم تعرف الأزهر في تلك الحقبة من الزمن، والأخوة الإسلامية قد تركت مكانها للعصبيات الجاهلية.. فالمعارك بين الصعايدة والشراقوة لا تكاد تنقطع. وكثيرًا ما قادت العصبيات المشايخ، فاشتركوا فيها بسهم بارز. ولكن بجانب هذه العيوب كان الأزهر عامرًا ببعض العلماء ممن آتاهم الله بسطة من العلم والعقل ومتانة الخلق والزهد في الدنيا وحرية البحث مما أنسانا جميع المساوئ.

لقد كانت لنا الحرية التامة في اختيار أساتذتنا وكتبنا، فكانت هناك روابط روحية تربطنا بمن أحببنا من أساتذتنا، وهي أشبه بما نراه اليوم في جامعات أوروبا.

ثم اختطت لنفسي طريقا آخر في الحياة، فالتحقت بمدرسة القضاء الشرعي.. والحق أقول إنه بالرغم من نظام المدرسة وحسن العناية بالطلبة وحرص القائمين بأمرها على إخراج جيل يقوم بإصلاح القضاء الشرعي في مصر، لم أجد في المدرسة ما يرضى نزعتي إلى الحرية وحرية البحث.

لم أجد فرقا كبيرًا بين ما نتعلمه في مدرسة القضاء وما نتعلمه في الأزهر اللهم إلا في طريقة التعليم وتنظيم الحياة وترتيب التفكير. أما الكتب والمادة فهي مادة الأزهر وكتب الأزهر... وبعض المدرسين قد

اختيروا من الأزهر إرضاء للأزهريين. ولذا فإني لم أجد في المدرسة ما يتفق مع رغباتي المتطرفة.

وتركت مصر إلى استنبول، وكنت أعتقد أن استنبول قد سبقت مصر بمراحل في مضمار الحضارة والتقدم.. ولكني وجدت الأمر على عكس ذلك فالطرق في مصر خير منها في عاصمة الخلافة، والترام حتى سنة ١٩١٣ كان لا يزال يسير بالخيول لا بالكهرباء. ولم يكن في العاصمة التركية ما يسترعي النظر سوى الجيش، وقد ظهرت قوته واستعداداته في حرب البلقان التي انتهت بالقضاء على تركيا في أوروبا تقريبا.

ولقد يممت الهند بعد تركيا، فأقمت بها عشرة أشهر متنقلا من مدينة إلى أخرى. ولقد رأيت بالهند ما لم أجد بمصر، فالمسلمون بالهند قد سبقوا المصريين في التأليف والترجمة إلى الإنجليزية.. ترجموا القرآن وتفسيره إلى الإنجليزية، ووضعوا كتبا قيمة عن الإسلام وتاريخه والدفاع عنه. وقد كان المصريون أولى بذلك، فهم أعرف بدقائق اللغة العربية من إخواننا الهنود. ورأيت من أهل الحديث في الهند عصبة ليس لها نظير في أيامنا الأولى.

على أن هناك أشياء كثيرة في الهند لا تختلف عما كان في مصر.. فالبوليس السياسي يحصى على الناس أنفاسهم، والويل لمن يقع تحت أيديهم، وقد بلوت شرورهم تسعة شهور كاملة أثناء الحرب الأولى.

لقد ضاق صدري من التفرقة في الهند بين الهنود والإنجليز حتى في النوادي والقطارات، مما لم يوجد له مثيل في بريطانيا.. فالمساواة تامة بين من تضمه بريطانيا من السكان، ولكن الهندي في بلاده يرى نفسه أقل منزلة من الإنجليزي.

وتركت الهند بعد إعلان الحرب الأولى، وكانت نيتي الرجوع إلى استنبول عن طريق العراق.. ولكن شاء القدر أن أحط رحالي بالكويت لأن الباخرة التي كنت استقلها لم تتعد الكويت. وهنالك بالكويت، رأيت من الوفاء وحب التعاون بين الناس ما حببني في إطالة الإقامة بها.

وبالكويت اشتغلت بالتعليم، فكنت بلا فخر الرائد الأول للتعليم بها، وإني لفخور أن أرى جيلا وطنيا مخلصا يشارك حكام بلاده في تحمل كثير من المسئوليات.

لقد شننت حربا شعواء على الجهل والخرافات السائدة، وعلى سياسة الحكام الجائرة، وسياسة بعض الوكلاء السياسيين الذين تعدوا حدود وظائفهم من الإرشاد والإصلاح فاعتبرت العدو الأول للسياسة البريطانية، والحق أنني لم أكن إلا منتقدا لبعض التصرفات التي لا تتفق مع ما كنا نقرأه عن السياسة البريطانية، وبعض الموظفين البريطانيين لا يريدون منك إلا أن تكون خادما لا صديقا تصدقهم.

ثم سمع السلطان عبد العزيز بما أقوم به من الجهد في سبيل الدعوة

إلى الحق في الخليج الفارسي، فأرسل إليَّ دعوة كريمة لزيارة الرياض.. وكنت قد تعرفت إلى جلالته عند زيارته للكويت أثناء الحرب العالمية الأولى. فلبيت الدعوة وهنالك عرض عليَّ جلالته الإقامة بالرياض لأكون بجانبه كمستشار في الأمور السياسية.. فترددت أول الأمر، ولكني قبلت بعد إلحاح على شرط أن أكون صديقا أصدقه القول، وهو حر في قبول ما يعرض عليه. وقد قلت لجلالته قولتي المشهورة المعروفة في جزيرة العرب: «إذا عاملتني كصديق وجدتني خادما، وإذا عاملتني كخادم وجدتني ثائرًا».

وأشهد أن جلالة الملك عبد العزيز -رحمه الله- عاملني طوال الثلث قرن كصديق وفي، كثيرًا ما اتسع صدره لمناقشتي. وإذا كنت قد أطلت في خدمته، فذلك لأنني أحببته من كل قلبي.. فوجدت فيه الرجل العظيم الحكيم السياسي البارع والقائد المحنك.

تلك هي قصتي باختصار، لعلها تحفز الشباب إلى الوثوب، وإذا لم يَسِرْ الإنسان لم يصل إلى غاية، ومن جد وجد، ومن زرع حصد.

***

الحياة جديرة بأن نحياها!

بقلم محمد شفيق غربال

ولد محمد شفيق غربال بالإسكندرية في عام ١٨٩٤، وتخرج في مدرسة المعلمين العليا في سنة ١٩١٥.. وأوفدته وزارة التربية لدراسة التاريخ الحديث في إنجلترا فدرس في جامعتي ليفربدل ولندن وتتلمذ في الجامعة الثانية على أرنولد توينبي، وقد فتحت له هذه التلمذة آفاقا لا يتصورها بدونها. وقد قام بتدريس التاريخ بالمدارس الثانوية، وبالمعاهد العالية وبالجامعة، وعين وكيلا لوزارة التربية.

علمت نفسي أن أتعلم من الحياة، أنها تستحق أن أحياها. ولا أدري على وجه التحقيق كيف ومتى، ولم بدأت ذلك.. كان هذا لسعد الطالع -إن صلح أنه كان سعيدا- أو كان لنوع المزاج الذي وهبته -إن كان هناك معنى لما يقال في أنواع الأمزجة وآثارها- أو كان للبيئة السعيدة التي نشأت فيها. وربما كان هذا العامل الثالث أقوى ما أعدني لتعلم الدرس.

على أني أعلم علم اليقين أنني منذ أن وعيت ومنذ أن أخذت أنظر في نفسي وفيما حولي، ومنذ أن حاولت الوقوف على أسرار الأصول

والمصائر، ومنذ أن جاهدت لأقيم أفعالي على أساس من المعقولية، ولأوجهها لغايات مفهومة، وأنا موقن بأن الحياة تستحق أن أحياها، وأن نظرتي هذه إليها خليقة بأن تكون دستورا سلوكيا في فترة العمر، وأن ينظم على أساسها ما بيني وبين الناس.

ولا أستطيع أن أزعم أن لهذه النظرة للحياة قيمة فلسفية أو مذهبية.. ولذا فإني لم أحملها ولا أحملها أكثر مما تطيق. ولم أتخذ منها يوما ما وسيلة لتفسير أصل أو مصير. ولكنني وجدتها تقبل صحبة غيرها من المذاهب طيعة معتدلة، وتتمشى مع ما في الوجود من الخير الكثير والشر المستطير، ولا تناقض الرأي القائل بالارتقاء أو الآخر الذاهب إلى أن الخراب قضاء محتوم أو الإيقان بأن الكون يخضع لنظام، وإن كان قدر البشرية فيه ضئيلا -أو على الأقل- غير واضح المعالم.

ولم أجد -من ثم- دستورًا خيرًا من الإيمان باستحقاق الحياة للحياة.

ولم أجد أحسن منها مثلا لفكرة «الوسط الذهبي» الذي تحدث عنه اليونان أو كما نقول «خير الأمور الوسط»، إذ هي لا تسمح للنجاح بأن يدفع الإنسان في طلب المستحيل، ولا تمكن الفشل من التعطيل، فلا زهو ولا بطر ولا إفراط ولا تفريط، تقبل الناس على ما هم عليه، ولا تطلب منهم ولا تطالبهم بما هم عنه عاجزون.

ولم أتعلم الدرس من حياتي أنا بالذات وحدها، ولا من حياة جيلي

وحده... بل كان معلمي الإنسانية، كما احتوتها دنيا التاريخ وجعلتها دنياي.. عمرها عمري وأجيالها جيلي، وناسها أجمعون معاصري.. فلم أهتم بدنيا الطبيعة، ولا بالإنسان العاري ذي الظفر والناب.. بل كان إنساني الإنسان الناشئ في عشيرة تكفله ببرها وحنانها، تطعمه وتكسوه، وتقيه الغوائل، وتلقنه معارفها، وتكسبه آدابها وشرائعها، وتربط مصيره بمصيرها.. ومن هذا السجل المبسوط تعلمت أن الحياة تستحق الحياة.

وطريقتي تجرى على قاعدة الجمع بين الاتصال والانفصال.. فأتصل بشؤون الحياة أحيانا، وأنفصل عنها أحيانا أخرى أو يكون الأمر مزيجا من الخطتين، وهذا كله إرضاء للضمير، أو تحقيقا لمنفعة عامة، أو درءا لشر. والدافع الأكبر في جميع الحالات هو أن أحفظ حقي إنسانا مسئولا محاسبا مع ما يؤديه من خير وما يقترفه من شر، وأن أؤدي حق العشيرة عليَّ.

وقد قرأت ما حكاه أديب عن جماعة القنافذ، كانت إذا التصق آحادها طمعا في الدفء أو دفعا للأعداء آذتها جميعا أشواكها، وكانت إذا تباعدت فقدت الأمن والحرارة.. فكان عليها أن تسوى ما بين القرب والبعد، ما بين الاتصال والانفصال.

ولا يستطيع أحد أن يرسم حدودهما رسما دقيقا، وأن يعين لكل ظرف ما يناسبه.. فلابد من ترك تقدير كل هذا للفرد، إلا أنه في سبيل الكشف عن الطريق وتبين المنهج الصالح، لا يستغنى عن درس سير الرجال. ولقد أدركت ذلك عندما انتهيت من دراستي الثانوية،

فاخترت أن ألتحق بمدرسة المعلمين على كره من يهمهم أمري لهذا، وكان أساس اختياري أنها كانت، مع التزامها بإعداد المعلمين في أضيق الحدود، المعهد الوحيد في مصر إذ ذاك الذي يصلني بالدراسات الإنسانية. وتم لي أن مكنتني المدرسة من متابعة تلك الدراسات على نطاق أوسع في المعاهد الخارجية، وتهيأ لي بذلك الإطار الذي أعمل فيه مواطنا مصريا، وإنسانا جادا في أن يجعل حياته جديرة بأن يحياها.

***

حدد أهدافك

بقلم إميل زيدان

ولد الأستاذ إميل زيدان عام ١٨٩٣.. حاز شهادة الدراسة الثانوية في مصر، ثم شهادة بكالوريوس علوم من جامعة بيروت الأمريكية، ثم ليسانس الحقوق، وقد والى إصدار مجلة «الهلال» بعد وفاة والده. ثم أسس بالاشتراك مع أخيه الأستاذ شكري زيدان عدة مجلات اسبوعية وشهرية.. كما أسسا قسما ثقافيا لإصدار الكتب.

أستطيع اليوم – وقد جاوزت الستين – أن ألقى على تجاربي نظرة فاحصة تتضح معها المبادئ التي اعتمدتها فيما أنجزت من عمل، والعبر التي خرجت بها من تلك المعركة المتصلة التي نسميها «الحياة»..

كان والدي معلمي الأول.. ولست أنسى قصة رواها لي وأنا حدث، فرسخت في ذهني من ذلك الحين وأعانتني في أحرج الأوقات. قال: «ركب جندي بريطاني حمارا في طريقه إلى ثكنته بالعباسية.. وكانت الحمير من وسائل الانتقال المألوفة. وكان صاحب الحمار وهو يعدو خلفه يوجه إليه ألوانا من السباب ثقة منه أن الجندي لا يفقه شيئا من هذه الألفاظ.. ولكن أحد المارة استوقف الجندي، وقال له: أتدري ما

يقوله صاحب الحمار؟ إنه يسبك ويصفك بكذا وكيت.. فما كان من الجندي إلا أن سأله: وهل هذه الألفاظ تمنعني من الوصول إلى الثكنة؟ قال: لا طبعا.. فقال: إذن دعه يقل ما يشاء فإنما يهمني أن أصل إلى حيث أريد».

تعلمت من هذه القصة أنه ينبغي للإنسان أن يعرف هدفه، فإذا عرفه وحدده مشى إليه في ثقة واطمئنان دون التفات إلى ما يعترض طريقه من المنغصات والمثبطات.. فليس النجاح بعيد المنال بالقدر الذي يراه شباب اليوم، وإنما سبيله الأكيد تحديد الهدف وتسخير الوسائل الفعالة لبلوغ ذلك الهدف، ويندر أن تجد شابا يعرف ما يريد ويصرف له جده ونشاطه دون أن يصل يوما إلى الغاية التي ينشدها. وإنما يفشل أولئك الذين يريدون الغايات الجميلة دون أن يبذلوا في سبيلها ما تقتضيه من جهد ينفق بلا حساب، وعرق يتصبب يوما بعد يوم، بل ساعة بعد ساعة.

ثم إن طاقة الإنسان محدودة، فما يصرف منها في الكلام والنقاش أو في الغل والحسد والبغضاء، إنما يسقط من حساب العمل الذي يستطيع إنجازه.. ومن ثم ندرك حكمة عمر بن الخطاب إذ قال: «**إذا أراد الله بقوم سوءًا سلط عليهم الجدل ومنعهم العمل**».

أصدق نفسك

وثمة حكمة كان لها الأثر الأول في حياتي، وهي قول شكسبير في

رواية هاملت «بشيء من التصرف»: «**أصدق نفسك تصدق الناس جميعا**». فالإنسان أبرع في خداع نفسه منه في خداع الناس. ومن راض نفسه على مواجهة الواقع -مهما آلمه- فقد تسلح بأفعل الأسلحة في نزاع الحياة..

وقد يبدو من السهل أن يكون الإنسان صادقا مع نفسه، ولكنه من أشق الغايات ولا يتأتى إلا بالمران الطويل. فالإنسان نزوع بطبعه إلى تصديق ما يريده والاقتناع بما يريح ذهنه. أما مواجهة الحقيقة المرة، وأما مجابهة الواقع المؤلم. فدون ذلك ترويض شاق للفكر وتطبيع طويل الأمد لنزعات النفس.

أعذر الناس

وحكمة أخرى كان لها أبلغ الأثر في حياتي، وهي القول المأثور: «**أعقل الناس أعذرهم للناس**» فالحوافز الأساسية تكاد تكون واحدة في البشر. وإنما يختلف فريق منهم عن فريق باختلاف الأحوال التي نشأوا فيها، فمن أعسر العسير على من عاش في بحبوحة النعمة أن يحس ما يحسه المعوز الذي لا يحصل على ما يتبلغ به إلا بشق النفس.

وقد يكون من التعسف – أو في الأقل من التفكير البدائي – أن تقام حدود تفصل بين طوائف الناس. فالفروق بين الأخيار والأشرار، وبين العقلاء والمخبولين، وبين الصادقين والكاذبين... إلخ.. ليست بالقدر الذي يبدو لأول وهلة. وفي كل منا عناصر -بنسب متفاوتة

من تلك النزعات جميعا. ولو كان أحدنا مكان من نسميه شريرا أو مخبولا أو كاذبا وتأثر به منذ نشأته، لما تصرف في الغالب إلا كما تصرف ذلك الرجل الذي يزدريه.

وقد تعلمت من الحياة أن نصيب الفكر والمنطق من أعمال الناس أقل بكثير مما يدعون.. فهم مسيرون بغرائزهم ومصالحهم في المقام الأول، ولكنهم يحتالون على الفكر والمنطق لكي يستسيغوا ما يفعلون، ولكي يستسيغه أيضًا سائر الناس..

تسامح مع المرأة

وأود أن أقول كلمة عن المرأة فهي نصفنا الذي لا غنى لنا عنه، ولعلي أغضب فريقا من السيدات فيما أنا قائله، ولكني أقوله وأمري لله: من الخطأ -بل من الظلم في نظري- أن يعامل الرجل المرأة على نفس القواعد التي يعامل بها زملاءه من الرجال.. فنظرها إلى الحياة غير نظره ومنطقها غير منطقه، ولا ريب أن أنوثتها تسيطر على حياتها، كما أن تصرفاتها مطبوعة على الدوام بطابع عواطفها وانفعالاتها.

على أنه ليس فيما تقدم ما يهبط بمكانة المرأة.. وإنما ينقص من شأنها أن تعتقد أنها صورة ثانية للرجل. فقد جعلت لها الطبيعة مجالا لا يقل شأنا عن مجاله، والأمر الأجل أن تعرف حدود هذا المجال فلا تتعداها.

وإذا أدرك الرجل هذه الحدود، أمكنه أن يكون على أتم الوفاق مع المرأة.. وخصوصا إذا تمسك بالقاعدة التي وضعها أوسكار وايلد -

وإن يكن فيها بعض المغالاة– وهي أن المرأة قد جعلت لكي يحبها الرجل لا لكي يفهمها.

هذه طائفة من العبر التي خرجت بها من حياتي الماضية.. ولو عشت عشرين سنة أخرى وسئلت مثل السؤال الذي أجيب عنه اليوم، فهل يا ترى أجيب بمثل ما أجبت؟

لست أدري. فقد علمتني الحياة أيضًا ألا أؤمن برأي –أيا كان– على أنه حقيقة غير قابلة للتعديل، فسنة الحياة الأولى النمو والتجدد... والعاقل من فهم هذه السنة، فكان دائما مفتح الذهن مستعدا لتقبل كل رأي جديد.

***

الإيمان بالعمل مذهبي

بقلم محمود تيمور

الأستاذ محمود تيمور القصصي الكبير أشهر من أن يعرَّف. وقد أصدرت له المطبعة العربية عشرات القصص. كما مثل له المسرح العربي عددا كبيرًا من المسرحيات التي نالت إعجاب الجماهير ورجال الأدب وفن القصة. وقد ترجمت بعض قصصه إلى اللغات الأجنبية. وقد اختير عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

سمعت امرأ يقول:

- لو كنت أملك صحتي، وصفاء ذهني، وطمأنينة الحياة من حولي، لاستطعت أن أقوم بأعمال جسام، واكتب لي صفحة حافلة بآيات النجاح.

لبثت أفكر في هذا القول، فبدا لي أنه منطق معكوس، وكان جديرا بصاحبه أن يقول:

- لو كان لي عمل أؤمن به، وأقبل عليه، لأبلغني هذا العمل ما أنشده من موفور الصحة، وصفاء الذهن، وطمأنينة الحياة.

لقد أملى عليّ هذا التصويب خبرة خاصة، وهي الزبدة من تجربة العمر..

أصبحت معتقدا أن الإيمان بعمل ما، والشغف به، هو خط الدفاع الذي يحمي المرء من مكاره اليأس والقلق والتهيب، وهو الينبوع الذي يفيض على النفس مشاعر الفوز وكسب الحياة.

كيف يجبن عن الحياة من يعتقد أن له فيها عملا يضطلع به، وأن له فيها ثمرة يرتقب أن يحين قطافها يوما بعد يوم؟

لا غرو أن يرفع العمل من معنوية الإنسان، وأن يحبب إليه العيش، وأن يدفعه في سبيله إلى المجالدة والصراع.. فتقوى فيه روح المغامرة، ويمضي به الطموح إلى بعيد الآفاق.

كنت أجتاز عامي السابع، فإذا المرض يدهمني، وإذا هو ثقيل الوطأة يهددني، وقد استلان جانبي واستضعفني حتى بلغت عصر الشباب، وأنا أكاد استيئس من الحياة، وأحس دنو النهاية القاضية.

ولكنني في هذه الفترة وجدتني أنساق إلى نوع من العمل أدين له الآن بكياني كله، ذلك هو الأدب.. تعلقت نفسي بأن أبلغ منه مأربا وأرمى فيه إلى هدف.. إذ كانت «مصر» لذلك العهد في مقتبل نهضة، وبواكير ثورة والوعي القومي يستشرف لطابع وطني خاص متميز في مرافق العيش، فاستهواني أن أسعى مع الساعين إلى تقويم الطابع المصري للأدب في إطار من القصص الفني، فجرى هذا العمل تيارًا في دمي، وصار جوهر حياتي، يملك عليّ أمري كله.

وعلى الرغم من أن المرض لم يتخل عن صحبتي، فها أنا ذا أتجاوز الستين من عمري، وما زلت حيا أرزق، بفضل ذلك العمل الذي حماني من الهزيمة والانهيار، بل إنه كان يعمر قلبي بالأمل، ويفرغ على نفسي الثقة، وينضر أمام عيني وجه الحياة، فأنظر إلى المرض، نظرة الاستهانة والاستخفاف.

بالعمل وحده استطعت أيضًا أن أواجه الأحداث التي تتمخض عنها الليالي والأيام، فلست أنسى أنه لم يكن لي عزاء في نكبتي بفقد وحيدي، منذ سنوات عشر، إلا أن ألقى بنفسي في غمار عملي، حتى أتممت روايتين مطولتين في قصير من الوقت.. وخرجت من فورة هذه المحنة، أحمد للعمل ما حماني به من لوعة الحزن وحسرة الفقدان.

وإني لأزجي أثقال الحياة، وهموم العيش، بتلك الساعات التي أندمج أثناءها في عملي، فأصدر عنه كأني أصدر عن مستحم يفيض على جسدي النشاط والحيوية والانشراح.

لقد غدا العمل عندي لونا من العبادة، فأنا اعتبره من شعار الدين..

وما أشبه العمل بالصلاة...

فما الصلاة إلا تأمل في صميم الوجود، وترفع عن توافه الدنيا وصغائر العيش، وما العمل إلا استغراق في أعماق الحقائق وعزوف عن التفاهة والفراغ.

بالصلاة تتخلص النفس من شوائبها، فتتسامى إلى آفاق علوية

صافية، وبالعمل تتجرد النفس للأهداف المرسومة وتتحرر تلك النوازع والنزوات التي تجر إلى الشرور والآثام.

إذا كانت الصلاة مظهر الطاعة لله، بها يستمد الإنسان على ظهر الأرض قبسا من نور السماء، فالعمل هو جوهر الطاعة والتعميد والاندماج بين الخالق والمخلوق.

متى أخذ الإنسان فيما بين يديه من عمل، فهو يؤدي الجانب الذي فرضه الله عليه من رسالته إلى سائر الناس، رسالة العمل، رسالة العمران على اختلاف مدلولاته ومعانيه.

أنا في إقبالي على عملي الذي أتوجه إليه أحس بأني أصلي لله، وأؤدي ما كتبه عليّ، وكأن يد الله تدفع بي، وتبارك جهدي، وتحفني بالرعاية والرضوان.

وأصارح بأني في بعض الأحيان قد أضيق بعملي، وأحسبني منه في رهق وأكاد أهم بأن أثور عليه، ولكن سرعان ما أجدني قد سكنت ثورتي، وذهب عني الضيق، واحتملت للعمل ما يجشمني من جهد، وأهم بأن أنحنى على أوراقي أستغفرها مما أبديت لها من غضاضة وإعراض، إذ يتمثل لي عدوى الأول الذي هزمته في مراحل حياتي السالفة، ذلك الشبح المرهوب، شبح الفراغ، شبح الإفقار من الأهداف، شبح الجدب الذي يطبع الحياة بطابع التفاهة والعقم. فأراني قد هششت لعملي، وحننت إليه، وارتضيته ظهيرا لي في الظفر بمعنى الحياة وجوهر العيش، فأجلس إلى مكتبي، آخذا بقلمي، منكبا على أوراقي، استمرئ نشوة الانتصار.

الولد سر أبيه

بقلم الدكتور إبراهيم مدكور

ولد في فجر هذا القرن في قرية تعتبر ممتازة بين قرى الريف المصري، لقربها من العاصمة واشتغال أهلها بالتجارة، وهي قرية «أبو النمرس» من أعمال الجيزة. التحق – وهو في الثانية عشرة من عمره – بالأزهر. وانتقل منه بعد ثلاث سنوات إلى مدرسة القضاء الشرعي، متابعة لدراسة دينية مستنيرة، ثم امتد به الشوط إلى مدرسة دار العلوم. ثم سافر في بعثة إلى باريس، حيث درس الفلسفة والقانون ثم اختير لتدريس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة. وفي عام ١٩٢٧، فاز بعضوية مجلس الشيوخ ثم اختير وزيرا ثم عضوا بمجلس الإنتاج.

لا أظن أن هناك درسا أبلغ من دروس الحياة، وهي كثيرة، ومن لم يؤدبه والداه أدبه الليل والنهار.. ويمكن أن يقاس النجاح بمدى الانتفاع من هذه الدروس. وإذا صح أن هناك حياة طويلة عريضة وأخرى قصيرة ضيقة، فالفرق إنما يرجع إلى مقدار التفاعل والتجاوب بين الفرد وبيئته الجغرافية والاجتماعية.. تطول حياته إذا ساهم في شتى الأحداث المحيطة به، وكان له فيمن حوله أثر، وتقصر إذا عاش في نفسه ولنفسه.

وقد علمتني الحياة، وعلمتني كثيرًا.. وأكتفي بأن أشير إلى درسين اثنين من دروسهما. أولهما أن الجانب الشخصي يكاد يختفي وراء كل عمل، ولولاه ما دفعت المشروعات الدفعة التي تخرج بها إلى حيز الوجود. يكتب الكاتب، ويدعو الداعي، ويخترع المخترع، وينفذ الصانع. ولكل من نفسه حافز ومن شخصه هدف.. وهناك من يقر لها علانية، وآخرون يحرصون على أن يصقلوها ويخفوها عن الناس، والأمر صادق على الشؤون العامة صدقه على الأعمال الخاصة.. فالقادة والزعماء لا ينسون أنفسهم، وإن بدا من أمرهم أنهم وهبوا كل شيء للصالح العام.

أنا لا أزعم أن الحياة بنيت كلها على الأثرة.. ولكني أذهب إلى أن الإيثار يستر وراءه قسطا من المصلحة الذاتية، وهذا طبيعي ما دمنا نتحدث بلغة البشر. فلنقبله إذن على علاته، ولنقم دعواتنا الإصلاحية على أساس من التشويق والترغيب والنفع الخاص، إن كنا نريد لها نجاحا.

وليس ثمة سبيل أهدى لاستقامة الأمور من أن نلائم بين المنازع الذاتية والمصالح العامة.

ومن الخطأ أن ننتقص البواعث الشخصية لذاتها، فهي قوة ما أحوجنا إليها.. وفي الاعتراف بها ما يكسبها ثقة، ويدفعها إلى أن تعمل في وضوح، فنكشف عن سرها ونتقى خطرها وإلا لم يعز عليها أن تجد

سبيلا إلى التغرير والمواربة. وأشهد أن كثيرًا من المشروعات العامة لم يأخذ بيده إلا دافع شخصي وعامل خاص.

والدرس الثاني هو أن السرية المطلقة في الأعمال والأقوال متعذرة إن لم تكن مستحيلة.. نحتاط لتصرف ما ونخفيه ونسمع الخبر ونكتمه، ولكن لا نلبث أن نراه منشورًا.

ومهما تكن عند امرئ من خليقـــــة

وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ومن الغريب أن أكثر الناس حرصا على الكتمان قد يكونون أشدهم مساهمة في إذاعة السر، ويستوي هنا أيضًا شؤون الأفراد والجماعات، فأهل الفضول يظهرون بواطنها ويكشفون خفاياها.

وليتنا نستحضر هذا دائما أمام أعيننا. فنقيس أعمالنا بمقياس الجهر والعلانية، ونتقى ظلم الخفاء وظلماته. وكم من رذيلة ترتكب تحت ستار الجهل، ولو أحس المقدمون عليها أنها ستعرف لترددوا كثيرًا في ارتكابها، ومن لهم بالجماهير صلة أحوج إلى استذكار ذلك أكثر من غيرهم.

الحرية وهبت لي السعادة

بقلم محمد فريد أبو حديد

ولد في سنة ١٨٩٣ وبدأ دراسته المضطربة في المكتب ثم المدرسة، إلى أن تخرج في سنة ١٩١٤ في مدرسة المعلمين العليا، ثم درس القانون، وحصل على ليسانس الحقوق سنة ١٩٢٤. وقد انتقل في وظائف التعليم المختلفة حتى عين عميدا لمعهد التربية بالقاهرة، إلى أن صار وكيلا مساعدا لوزارة المعارف ثم مستشارا لها، واختير عضوا في مجمع اللغة العربية، ومنح في عام ١٩٥٢ جائزة الدولة في القصة.

أعظم التجارب وأشدها أثرا في النفس هي التي تنشأ من حوادث صغيرة في أيام الطفولة. ولَيس من السهل على طفل أن يتفتح عقله إلى معاني الحياة مبكرا، ولكن هذه المعاني التي يتفتح لها عقله في صغره تكون على أساس حياته. وهذا ما كان نصيبي من الحياة.

كنت أول ولد يعيش لأبوي، ولم يرزقا ولدا آخر إلا بعد أن صرت صبيا يافعا. وقد داخلني من معاملتهما الكريمة شعور بأنني عضو مهم في الأسرة، وأنني شريك في تحمل مسئولياتها. وكنت ألمح في حياة أسرتي صورة غامضة، جعلتني أعرف أن هناك فرقا بين أسلوب الحياة في بيتنا

وأسلوب الحياة في بيوت أعمامي وأخوالي.. كما كنت ألمح أن والدي يعاني أزمة شديدة، ويجاهد في مواجهتها جهادًا عنيفا.

وفي يوم من الأيام تحدثت إلى أبي في حماسة الطفولة عما رأيته عند أبناء عمومتي من اللعب والمتع. ورأيته يصغى إليّ في شيء يشبه الدهشة والحزن.

وما كدت أفرغ من حديثي حتى وجدته يمسح رأسي وهو صامت، وأحسست أنه كان شديد التأثر، وسألني في رفق: «أأنت حزين لأني لا أهدى إليك مثل هذه الأشياء؟» وشعرت عند ذلك بشيء لا أستطيع وصفه بلغة الكبار..

كان مزيجا من الأسف والعطف والاحترام. وقلت في حماسة: «أبدا».

ولأول مرة في حياتي أخذت أراجع نفسي في قيمة الزخارف التي تفرق بين أسلوب حياتي، وأسلوب حياة الآخرين، وأعتز بالحالة التي أنا فيها.

وأظن أنني مدين لتلك اللحظة في أنني صرت فيما بعد أميل دائما إلى التقليل من قيمة المظاهر والمتع الكمالية.

وكان لي ابن عم يكبرني ببضع سنوات وهو عزيز عند أمي، كأنه ولدها.. وكانت تمازحني أحيانا قائلة: «إنه أحب إليّ منك، لأني رأيته وأحببته قبلك».

وكانت قد نذرت له عندما كان في سن السابعة وكنت طفلا رضيعا، أنني إذا كبرت وبلغت سن السابعة مثله جعلتني له خادما

أسوق له حماره. فلما بلغت السابعة أرادت أن توفى بنذرها، فدعت ابن عمي وأعدت له دابة ليركبها وحزمتني كخادم وأعطتني عصا وأمرتني أن أسوق له الدابة.

وأطعتها كما تعودت أن أطيعها، ولكني بكيت بكاء مرا بعد ذلك سائر يومي، برغم اعتذار أمي ومواساة أبي. وبغير أن أحس وجدت نفسي أفكر: هل أنا أقل شأنا من ابن عمي؟.. وعلى أي أساس يفضل بعض الناس على بعض؟

وأعتقد أن الأسئلة التي بدأت أوجهها إلى نفسي عند ذلك هي التي فتحت فيّ بابا واسعا لأسئلة كثيرة أخرى عن الناس وعن الحياة.

كنت دائما أسأل، وكنت دائما أفتح عيني لأرى. وكان المعنى الغامض الذي تدور حوله أسئلتي هو معنى العدالة في قياس أقدار الأشخاص وفي معاملة الناس بعضهم مع بعض.

وفي يوم من الأيام عندما كنت شابا في الثامنة عشرة من عمري، خرجت كعادتي إلى جانب نهر النيل لأتنزه وفي ذهني أسئلة كثيرة: ما هذه الحياة؟

ما معناها وما غايتها؟ وما هؤلاء الناس؟ كيف تكون السعادة؟ وكيف تكون العدالة؟ وهل الحظوظ عادلة؟

وكانت ساعة من أصيل يوم من أيام الصيف وماء النهر الأحمر يتدفق زاخرًا بالفيضان.. وقفت أنظر إلى اللجة المضطربة، وسرحت بأفكاري في

أسئلتي الحائرة.. فلمحت على وجه الموج عودا يتقاذف به الموج. فشعرت كأن أسئلتي الحائرة تجتمع كلها عند ذلك العود المضطرب، وغبت في تأملي. ومازلت حتى صحوت من سرحتي وقد حددت لنفسي فلسفة خاصة كان لها أثر عظيم في توجيه حياتي: الحياة زائلة والناس يشبهون هذا العود الذي يتقاذف به الموج. هم يأتون إلى الحياة بغير إرادتهم ويذهبون عنها بغير إرادتهم. ولو جردناهم من مظاهرهم التي يخلقونها بأنفسهم لأنفسهم لعرفنا حقائق أقدارهم. وهذه المظاهر التي يخلقونها لا قيمة لها أمام الحقائق الأبدية. ومادامت الحياة هكذا، فما قيمة هذه الأغراض التي يتطاحن الناس عليها؟.. الناس يتطاحنون ليشقوا، والأمم تتطاحن لتشقى، وسبيل السعادة واضحة إذا فطن البشر إليها.

نحن نمر في الحياة تأدية لواجب الوجود.. فلا ينبغي أن نعقد وجودنا بالخروج عن اتجاهاتنا الإنسانية التي تفضي إلى السعادة، وهي في متناول أيدي البشر إذا شاءوا. هي في داخلهم لو تجردوا من الأنانية والحرص والظلم، واتجهوا إلى التعاطف والتعاون والخير والرحمة والعدالة.

وكان لهذه الفلسفة أثر حاسم في توجيه مسلكي مع نفسي ومع الناس.. فأنا أؤمن بأن أفضل الناس هو أجدرهم بالإكبار، وأن أقواهم هو الذي يمد يده إلى الغير بالمساعدة، وأن أقلهم قدرًا هو الأناني الذي يزاحم لكي يخطف ما ليس من حقه، وأما أحقرهم فهو الذي يعتدي على الآخرين.

وقد أخذت نفسي بفلسفتي أخذا صارما. فأذكر أنني عندما

تخرجت في مدرسة المعلمين العليا عرضت عليّ بعثة إلى إنجلترا. وكانت البعثة عند ذلك هي السبيل الوحيد إلى الرقي في وظائف التعليم.. ولكني رفضت تلك البعثة بغير تردد؛ لأن قبولها ينطوي على أنانية، إذ كان والدي شيخا كبيرًا، وكان سفري يعرض أسرتي للحرج. ورضيت بأن أشق طريقي في الحياة مجاهدًا، بغير سند من الغير، وكنت سعيدًا بأن أكون والدًا لإخوتي عندما توفى والدي.

وقد كانت هذه الفلسفة نعمة كبرى عندي؛ لأنها حررتني من قيود تستعبد الكثيرين من الناس. وجدت فيها حريتي من الشعور بأني لست مدينا لأحد بغير الصداقة الخالصة، ووجدت فيها حريتي من الرغبات والأطماع الجامحة التي تضلل العواطف، ووجدت فيها حريتي من المخاوف التي تضلل الناس عن طريق الحق.

ولا أبالغ إذا قلت إن هذه الفلسفة وهبت لي السعادة الممكنة على هذه الأرض، لأنها وهبت لي التحرر من نفسي. وجعلت لي في أعماقي صديقا وفيا وهو ضميري الذي لم يخذلني في يوم من الأيام مع كثرة الشدائد التي اعترضت سبيلي.

وكل ما أتمناه الآن أن أجعل أبنائي يدركون قيمة هذه الحرية التي وهبت لي السعادة، ويعملون على أن يكونوا من أنصارها. ولهذا كنت عظيم السرور عندما أتيحت لي الفرصة لأن أكتب هذه السطور.

***

الإرادة تحقق المستحيل

بقلم طاهر الطناحي

تخرج في مدرسة دار العلوم «كلية دار العلوم بجامعة القاهرة الآن» وتعلم اللغة الإنجليزية وترجم عنها شعرا ونثرا، كما درس الفرنسية، وهوى الصحافة منذ كان تلميذا وقد مارسها لأول مرة محررًا بمجلتي المصور وكل شيء. ثم اختير سكرتيرا لمجلة الهلال مع عمله في التحرير ثم رئيسا لتحرير مجلة الدنيا المصورة فمديرًا لمجلة الهلال. وهو الآن فوق عمله في الهلال رئيس تحرير «كتاب الهلال» و«روايات الهلال». وله عدة مؤلفات طبعتها دار الهلال ودار المعارف وغيرهما من دور النشر.

علمتني الحياة كثيرًا، واستفدت من تجاربها الكثير.. ولكنني لا أزعم أنني تعلمت منها كل شيء، فالحياة خضم واسع، ومدرسة عظيمة لا تنتهي دروسها ولا تقف عند حد، وكلما تعلمت منها شيئا احتجت إلى تعلم أشياء ورأيت علمي بجانب ما في الحياة يعد جهلا على حد قول الإمام الشافعي:

كلما أدبني الدهـ ... ـر أراني نقص عقلي

وإذا مـــا ازددت علمـــا زادنـــي علمـــا بجهلـــي

ومع ذلك فلست بظالم نفسي، ولا أنسك نسكا شافعيا. وإني أقول بقول أبي تمام:

لقـد جربـت هـذا الـدهر حتـى أفـادتني التجـارب والعنـاء

الحياة كثيرة الفرص

لقد أخذت بقسط من علم الحياة، وأفادني ما تلقيته في تجاربها من دروس، وكان أول درس تعلمته -وأنا صبي ناشئ- درس في الصبر والجلد والثبات أمام الصدمات والمحن التي لا تفرغ الحياة منها، وهذا الدرس كان له أثر في حياتي كلها.

ولعلك تعجب إذا قلت لك أن هذا الدرس كان درسا من الفشل الذريع في صناعة الكتابة التي أعيش منها وأُعرف عن طريقها الآن، فقد كنت في العاشرة من عمري، وكانت مادة الإنشاء تدرس لنا في السنة الثالثة الابتدائية، وجاء مدرسنا لأول يوم يحمل كتابا تحت إبطه، ويتوقر في خطوته، فخلته الجاحظ في مشيته، وما استقر في كرسيه حتى أسمعنا موضوعا في «فوائد النظافة» ثم طوى الكتاب. وطلب منا أن نكتب في هذا الموضوع، فكتبت ما عرفته بفكري وما أملته ملكتي الصغيرة في ذلك الحين، وكنت أظن أني سأنال الدرجة الكبرى، وجاء الدرس التالي، وقد امتلأت نفسي بالأمل الجميل، ولكن المدرس أقبل وعلى وجهه عبوس، ثم فرق الكراسات على زملائي واحتفظ بكراستي

في يده، وأعلن أني أخذت أقل درجة في الفصل، لأنني تحررت من فكره، ولم أكتب على طريقته، وتبرع لي بعبارات مناسبة من التقريع، ثم قذف بالكراسة أمامي، وإذا بي أرى درجتي ١٠/٣ وبجانبها عبارة: «إنشاء منحط»!

كانت صدمة لي حقا في سني الصغيرة، كادت تزلزل نفسي، ولكني لا أدري، وأنا في هذه السن، كيف تذرعت بالصبر، وكيف انقلب ما أصابني من تثبيط، قوة وتحديا ورغبة في التغلب على هذه الصدمة. وكنت أحفظ في ذلك الوقت قول القائل:

اصبري أيتها النفـ ـس فإن الصبر أحجى
ربما خاب رجاء وأتى ما ليس يرجى

واعتصمت بالصبر وثابرت حتى تقدمت «قليلا» في نظر أستاذي.. وذات يوم أتى ما يرجى وما ليس يرجى.. ذلك أن ناظر المدرسة طلب من أستاذنا أن يطلعه على كراسات تلاميذ الفصل، وكان فيهم ابنه الوحيد، فأمرنا الأستاذ أن يذهب كل منا بعد الانتهاء من كتابة موضوعه إلى الناظر، واقترح أن نكتب في موضوع: «أسعد يوم شهدته»، وكتب كل تلميذ ما فتح الله به عليه، وذهبت مع إخواني إلى ناظر المدرسة وقدمت إليه كراستي، فرأيت أساريره قد انفرجت ووجهه قد علاه الارتياح، وبعد أن قرأ ما كتبت خط في نهايته كلمة لم يكتبها لغيري، وهي: «أحسنت»!

وأخذت كراستي ولم أتكلم، ثم رجعت وقدمته مغلقا إلى الأستاذ -كما هو النظام- وفي الدرس التالي جاء الأستاذ يحمل الكراسات، وقد أعطاني الدرجة الكبرى مصحوبة بعبارات الإطراء والإعجاب، فبهت التلاميذ؛ لأنهم لم يكونوا يسمعون منه ذلك، ولكنهم عرفوا أنني كما قال الأستاذ، سحرت الناظر، فاعتبرت هذا اليوم الذي رعى فيه أبناءه أسعد يوم شاهدته، ولعلي لم أقصد السحر ولم أهدف إلى تملق الناظر، لأن سني الصغيرة لم تكن تتسع للتملق ولا لأسعد يوم مر بي، ولعلي الآن لا أستطيع أن أعرف أسعد يوم في حياتي، ولكني اخترت اليوم الذي طلب فيه الناظر أن يرى كراستي لأني اغتبطت به واعتبرته أسعد الأيام في أفقي الصغير..!

وهذا هو الدرس الأول، وفيه موقفان: أولهما موقف من الهزيمة والفشل لم أجزع منه، ولم يثنني عن العمل والجهاد، تغلبت فيه على نفسي فألقتها الصبر حتى استساغته وانقلب يأسها أملا. والثاني موقف من مواقف النجاح تعلمت منه أن من النجاح ما يكون وليد الفشل. وإن الحياة واسعة المدى، وكثيرة الفرص وليس من الصواب أن نضيق بها إذا ادلهمت الخطوب، أو تنكرت الأيام...

الاعتماد على النفس

أما الدرس الثاني الذي تعلمته من الحياة، فهو: «الاعتماد على النفس» وأذكر أنني في مفتتح حياتي الدراسية رغبت أن ألتحق بمدرسة القضاء، فتقدمت لامتحان المسابقة، وحادثت أستاذا لي في ذلك،

فشجعني ورأى أن يعطيني خطابا إلى الأستاذ حسن منصور أحد كبار أساتذة هذه المدرسة ليساعدني. ولم أطلب أنا منه هذا الخطاب ولكني أخذته ووضعته في جيبي، ودخلت امتحان المسابقة ونجحت فيه، وانتظمت في المدرسة، ثم نزعت الخطاب من جيبي لأدعه للإهمال، ونظرت، فوجدت الاعتماد على النفس خيرا من الاعتماد على خطابات التوصية وبطاقات التزكية، ومن ذلك الحين لا أتوسل في حاجة إلى إنسان إلا بعملي..!

وحدث بعد اشتغالي بالصحافة أن رغبت في أن أشتغل بإحدى الوظائف الحكومية، لأن الأعمال الحرة – كما كان يقال – على كف عفريت، ووظائف الحكومة عمل مضمون، مع أن الحياة كلها على كف عفريت.. وصادفت وظيفة خالية في مجلس الشيوخ فتقدمت لها، وقبلت فيها، وطلب مني المرحوم عبد الرحمن فكري السكرتير العام أن أتسلم الوظيفة الجديدة يوم السبت.. وقبل ذلك بيومين مررت على المرحوم أحمد حسنين، فأخبرته بوظيفتي الجديدة، فنظر إلى نظرة عتاب وقال: أو لست واثقا من نفسك؟

قلت: «بلى.. أني واثق من نفسي»، قال: «وهل أنت فقدت الاعتماد عليها وعلى الله؟»".

قلت: «كلا، فإني أعتمد بعد الله على نفسي».

فقال: «إذن، فإني أنصحك ألا تدخل وظائف الحكومة». قلت له: «تنصحني بذلك وأنت موظف بالحكومة؟!» قال: نعم.. وإني أرى اعتمادك على نفسك في الصحافة خيرا لمستقبلك من اعتمادك على عمل

في الحكومة محدود».

ومضى على ذلك عشر سنوات، وقابلته وهو يشغل وظيفة كبيرة. فقال لي مازحا: «هل تقبل أن تكون مديرا لمكتبي؟» فقلت: «لا...» فضحك وقال: «إذن، فانظر كيف كان عقبى الاعتماد على النفس لا على الحكومة»..

وقد أصبح الاعتماد على النفس ديدني في كل عمل وفي كل وقت، وما أحوج الشباب العصامي المكافح إلى هذه الصفة!

الاستفادة من الكبار

والدرس الثالث: «الاستفادة من مصاحبة الكبار».. فقد نشأت ولي ميل إلى الاطلاع، والاستفادة من تجارب الآخرين، ولا أذكر أنني كنت أميل إلى مصاحبة قرنائي، لأني لا أستفيد منهم أكثر مما أعرف، وقد قرأت أن أعلام الأدباء كانوا يصاحبون في أثناء تربيتهم ودراساتهم أعلام العلماء والأدباء والشعراء ويأخذون عنهم، لذلك رغبت في مصاحبة الكبار؛ لأنهم أكثر علما وأدبا وأصح تجربة في الحياة، فصاحبت الشيخ محمد المهدي وكيل مدرسة القضاء، فاستفدت منه أدبا وهذبت ذوقي بما اشتهر به من حسن الاختيار، وجودة الذوق، وسداد الرأي، ونزاهة النقد الأدبي..

وصاحبت الشيخ مصطفى عبد الرازق، فاستفدت من نبل أخلاقه، ونظافة حديثه ورقي مجالسه، وترفعه عما يجري فيه غيره من

الابتذال، وحبه للعزلة وإيثاره للنسك العلمي والفلسفي والأدبي في مكتبته.

وصاحبت الشيخ عبد المحسن الكاظمي (شاعر العرب) فقرأت معه عدة دواوين من دواوين الشعراء، وكانت الليالي التي كنت أقضيها عنده في منزله بمصر الجديدة، عامرة بالدروس الأدبية في فن الشعر ونقده وقد صححت رأيي عليه في بعض الشعراء القدماء والمحدثين.

وصاحبت داود بركات رئيس تحرير الأهرام الأسبق في مفتتح حياتي الصحفية، فتعلمت كيف يكون الصحفي النزيه الذي لا يفكر إلا في المصلحة العامة، والذي اتخذ الصحافة خدمة للجمهور، وفنا نزيها يعمل لرقي الثقافة ورقى المجتمع ورفع مستواهما على الدوام، ووجدت في خلقه وسلوكه خير مثل لخلق الصحافي الكبير وسلوك الرجل العام الذي يحبه الجميع، ويقدرونه عل اختلاف هيئاتهم وأحزابهم..!

وصاحبت محمد حافظ إبراهيم شاعر النيل، فرأيت المثل الحق في الشاعر الذي يصور شعره حياة قومه، ويشاركهم بإحساسه في السراء والضراء، وكانت له رسالة يؤديها فيما يعانيه وطنه من جهاد وطني وما يتطلبه من إصلاح اجتماعي فكانت حياته من أحسن الدروس لأداء الشباب..

وصاحبت المرحوم أحمد زكي «شيخ العروبة» فاستفدت من سعة اطلاعه ووفرة مراجعه وتصحيحاته التاريخية واللغوية، واتخذت من

نشاطه في شيخوخته خير قدوة لنشاطي في شبابي.

وصاحبت الآنسة مي، وكنت أزورها كثيرًا وأتزود من جلساتها زادًا وفيرًا وكانت جلساتها كعمر الورد قصيرة، ولكنها عاطرة.. وأنيقة ولكنها عامرة باسمى المعاني وأجمل الآداب. وقد تعلمت منها درسين كان لهما أحسن الأثر في نفسي: الأول – إن عزة الأدب فوق عزة الغنى والجاه والمناصب الكبرى، وإن كرامة الخلق وطهارة النفس فوق شهوات الجسد ومطامع الدنيا، وقد كان شعارها تلك الأبيات التي تروى عن الإمام الشافعي وهي تتضمن خير دروس الحياة:

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى ... وعيشك موفور، وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرئ ... فكلك عورات وللناس أعين
وعينك أن أبدت إليك معايبا ... فصنها وقل يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف، وسامح من اعتدى ... وفارق، ولكن بالتي هي أحسن

وصاحبت خليل مطران، فتعلمت منه كيف يكون خلق الأديب الموهوب، في بره بالأدباء وبذله من أدبه ونفسه ويده للناس، وكان يرى أن الحياة واجب وليست بمتاع، وأن هناك شعرين: شعر أدبي يكتبه القلم، وشعر عملي يكتبه القدم في سعيه للخير ولمصلحة المعوزين، وقد تعلمت منه أن الحياة أقل من أن يأسى عليها الإنسان، وأن كل شيء من الرزق كاف ما دامت النفس معتصمة بالقناعة والكرامة. وتعلمت منه كيف كان يقابل الإساءة بالإحسان.

وقد كان يأسى للمسيء إليه، ويعطف عليه؛ لأنه في رأيه محروم من سعادة الفضيلة، وكرم الأخلاق، ومع ذلك فقد خاب أمله في الناس وفيمن كان يحسن إليهم أيام رخائه وقال في أواخر أيامه:

خدعت بمن عاشرت أيام موردى ... لهم مورد والمحفل الضخم محفلي

فلما أقضى ما كان للناس مأملا ... إذا يمموني خاب في الناس مأملي

الإرادة تحقق المستحيل

والدرس الرابع: «قوة العزيمة، والإيمان بأن الإرادة تحقق المستحيل»..

لقد كان للصحافة الفضل في تهذيب عزيمتي وشحذ إرادتي، حتى أصبحت أؤمن بما قاله نابليون بونابرت: «**لا مستحيل في الحياة**»!

نعم لا مستحيل ما دامت الحياة هي حياة البشر لا حياة الآلهة وسكان السماء.. ومع ذلك فقد قال النبي محمد ﷺ: «**لو تعلقت همة أحدكم بالثريا لنالها**»...!

لقد دخلت الصحافة جنديا صغيرًا -أو على الأصح- لم أدخل الصحافة لأشتغل بالصحافة، لأنني لم أهيئ نفسي إلا لأكون قاضيا أو كاتبا أو مدرسا في وزارة التربية، وكان عملي في الصحافة علاجا لحالة وقتية في حياتي، وإن كان ميلي للأدب منذ كنت تلميذا يهيئني لمستقبل آخر.

واذكر أن المرحوم الشيخ محمد الخضري المدرس بالجامعة القديمة

والمفتش بوزارة التربية تنبأ يوما بأني سأكون كاتبا معروفا، وكان كلما رآني في دار العلوم يقول لي: «**أرى في وجهك الأدب وسوف يكون لك شأن**» فكنت لا أرى في ذلك إلا تشجيع أستاذ لتلميذه..

وصدقت النبوءة واشتغلت بالصحافة، فوجدت أنه لا يكفي فيها أن يكون المشتغل بها أديبا فقط أو كاتبا يعرف فنون الكتابة فحسب، بل تحتاج أيضًا إلى صفات أخرى، منها أن يكون الصحافي واسع الاطلاع قد أخذ من كل علم وفن بطرف أو بأطراف، وأن يكون مجددًا مبتكرًا، أو عنده ملكة التنويع والتجديد، وأن يسير مع أزياء الحياة وأطوار الزمن وأن يأتي كل يوم لقرائه بجديد يريده وحده، وأن يعيش معهم في الأرض، فتناول حياتهم وأحوالهم، لا أن يحلق وحده في الأفلاك، وأن يعرف أن ما يكتبه متى خرج من ذهنه إلى قلمه أصبح ملكا للجماهير... وأن يكون الصحافي مستعدًا للمفاجآت، فلا تخونه الحوادث فيتخلف عن الركب، ويشذ عن الباقين، فيكتب ما لا يقرأ فتكون الكارثة لا على متابته، بل على صحيفته، وأن هدف على الدوام إلى أن يبني كل يوم لبنة في ثقة قرائه به: فإن رأس مال الصحافي الثقة وما يعرف عنه من الصدق وطهارة السريرة والكفاءة في عمله الحرص على إفادة قرائه.

تلك هي صفات يحتاج إليها الصحافي، ولكن أهم صفة له هي «قوة الإرادة، التي تخلق المستحيل». وكم في الصحافة من مستحيلات يمكن الوصول إليها بالإرادة القوية والعزيمة العالية، والمثابرة التي لا تني، والجهاد الذي لا يقف عند حد، ولا يعرف الهزيمة، ويرى أن كل

صعب يمكن التغلب عليه بالصبر والعمل.

لماذا لم أصفق

بقلم الدكتور زكي نجيب محمود

ولد في فبراير سنة ١٩٠٥، ولما بلغ التاسعة من عمره، انتقل مع أبيه إلى الخرطوم بالسودان حيث تلقى تعليمه الابتدائي وجزءًا من تعليمه الثانوي في كلية غردون.

وبعدئذ استأنف دراسته في القاهرة، حتى تخرج في مدرسة المعلمين العليا. واشتغل بالتدريس عدة أعوام، ثم أتيح له السفر في بعثة إلى إنجلترا وهناك ظفر بالدكتوراة في الفلسفة من جامعة لندن. وعاد ليدرس الفلسفة في كلية الآداب بجامعة القاهرة.

سئل سوفوكليز الشاعر المسرحي اليوناني مرة، وكانت السن قد بلغت به مبلغ الشيخوخة: «ما موقفك الآن إزاء الحب يا سوفوكليز؟ ألا تزال قادرا عليه؟» فأجاب: «صه. ناشدتك الله لا توقظه في قلبي من جديد، فكم يسعدني أن أراني قد فررت من حبائله، فأحس كأنما فررت من مستبد متوحش مجنون».

فإذا جعلنا لفظة «الحب» في هذه العبارة رمزا يشير إلى العواطف والانفعالات الملتهبة الحادة في شتى ألوانها.. من غضب شديد، وحزن شديد، وفرح شديد، وحقد شديد، وطموح شديد، وحماسة شديدة، إلى

آخر هذه الانفعالات والعواطف التي يحتدم أوارها عادة في صدور الشباب وتبرد نارها في صدور الشيوخ، كان سوفوكليز بهذه العبارة، ينطق بما أريد أن الخص به أهم درس علمتني إياه الحياة.

لقد كنت في شبابي حاد الانفعال قوي العاطفة، خصوصا إذا كان في الأمر اختلاف على رأي، فمهما كان الموضوع الذي يدور حوله الجدل، فقد كنت أدافع عن فكرتي فيه بحرارة ملتهبة مشتعلة كأن قوائم الدنيا بأسرها ترتكز على صواب فكرتي.

وكنت شديد الحزن إذا خسرت في اللعب، شديد الفرح إذا فزت فيه.

وكانت عروقي تغلي بدمائها أياما طويلة إذا ما غضبت لإهانة لحقتني ولم أستطع ردها، كما كان دمي يوشك أن يجمد كلما أصابتني خيبة في رجاء كنت أرجوه.

ثم علمتني الحياة برودة العواطف.. علمتني أن حدة العاطفة معناها عجز في قوة التفكير، فبمقدار ما يتضح الأمر الذي بين يديك وضوحا تزول معه سحائب الشك والغموض، ترى أن عاطفتك قد بردت إزاءه. ولذلك لا تشتعل العواطف بين المختلفين على نظريات العلوم، وإنما تشتعل إذا كان موضع الخلاف في الرأي موضوعا غامضا مبهم المعالم كالمذاهب السياسية والعقائد الدينية.

نعم.. إن لذة الحياة قد نقصت حين بردت العواطف في نفسي، لكن آلام الحياة كذلك قد نقصت تبعا لذلك. ولست أتردد لحظة في أن

أوثر القلة من اللذة والألم معا، على الكثرة منهما معا، لو كان اقتران القلة أو الكثرة فيهما أمرا لا محيص عنه، فإذا لم تعد لي لذة الحب العارم التي يمتع بها الشباب، فإنني إلى جانب ذلك مستريح البال من آلامه وأوجاعه. ودونك شعراء الحب فانظر كم قصيدة قيلت في نعيم الحب وكم قصيدة قيلت في جحيمه..فلئن كان الشباب يعرف الحب، فالشيخوخة تعرف كيف تكون الصداقة.

وما الصداقة إلا حب هدأت فيه العاطفة، وزالت عنه شرورها.

إن التزام الواقع في هدوء بغير صخب العاطفة وصراخها، هو بعينه ما يسمى بخبرة الحياة.. فالرجل طفل غر مهما تقدمت به الأيام، إذا ظلت تعصف به عواصف العواطف الهوج. والشاب شيخ مجرب مهما صغرت سنه إذا نفخ الدخان عن نار عاطفته، ليرى الحوادث على حقيقتها الهادئة في دنيا الواقع. ألا ما أغزر الدماء التي أراقتها حروب العواطف الوطنية والدينية والنزوات الفردية! وكم كان الناس لينعمون بفردوس أرضى لو هدأت عواطفهم بين جنوبهم فلم تدفعهم دفع الضلال والعمى.

لقد كنت ذات يوم أنظر مع صديقتي إلى ألعاب بهلوانية أجاد فيها اللاعبون، حتى إذا ما فرغوا من ألعابهم، صفق الناس لهم تصفيقا يمزق في الأكف جلودها.. لكني جلست ساكنا لم أصفق، فسألتني صديقتي: «لماذا لا تصفق مع الناس؟».

فأجبتها قائلاً: «إنها خبرة السنين..»

أنا شاب في السادسة والستين

بقلم سلامة موسى

الأستاذ سلامة موسى صحفي ومؤلف، بدأ حياته الصحفية بمقال له عن «نيتشه» في مجلة المقتطف سنة ١٩٠٩ واشتغل هذه السنة نفسها في «اللواء» جريدة الحزب الوطني، ثم أخرج مجلة «المستقبل» في سنة ١٩١٤. واشتغل في تحرير مجلة «الهلال» فيما بين سنة ١٩٢٣ و١٩٢٩ وأخرج وهو بها خمسة كتب. ثم أخرج المجلة الجديدة وعددًا كبيرًا من المجلات الأسبوعية التي عطلت في كفاحها السياسي.

وعمل بعد ذلك في «البلاغ» و«النداء» و«أخبار اليوم» حيث هو الآن.

أنا شاب في السادسة والستين احترف الأدب والعلم والصحافة. كنت أكثر الناس تعاسة عائليا واجتماعيا وتعليميا فيما بين ١٨٩٨ و١٩٠٧ ولكني حوالي ١٩٠٩ «وجدت نفسي» فوضعت برنامج حياتي وعينت هدفي. وهو أن أكون رجلا مثقفا متطورًا أنمو وأكبر، ولكن ليس بالثراء والاقتناء، بل بالنضج النفسي.

وقد ألفت خمسة وثلاثين كتابا، هي جميعها صور من حياتي أو

كفاحي كي أتعلم وأعلم. ومع أني أقل المثقفين تعليما نظاميا، إذ لا أحمل غير الشهادة الابتدائية.. فإني أقرأ ثلاث لغات، وقد استوعبت الآلاف من الكتب، ولم أقنع بالأدب وحده أو العلم وحد، بل جمعت العلم والأدب والفن والفلسفة التي تكونت منها تربيتي وانبسطت لي منها آفاق ما كنت لأعرفها، لو أني تخصصت في واحد منها.

وثقافتي هي لذلك استيعاب.. وليست تخصصا.

والأساس هنا أن هدف حياتي هو تربية شخصيتي.. وهذه التربية تحتاج إلى الاستيعاب وليس إلى التخصص.

وقد علمتني الحياة درسين:

الدرس الأول لنفسي.. والدرس الثاني لبلادي.

فأما الدرس الأول فهو أن أبقى شابا مستطلعا أنمو وأتطور وأدرس وأسأل أسئلة أطفال، ولا أكف عن اللعب والمرح. وليس الشباب عندي فترة من العمر تسبق سن الخمسين.

وإنما هو عقيدة أؤمن بها وأحافظ على سننها وأذود عنها الزنادقة الذين يكفرون بها، ويدعون إلى الشيخوخة والخمود والاستسلام.

وقد عرفت نظرية التطور وأنا دون السادسة عشرة فأكسبتني مزاجا نفسيا ومنطقيا وذهنيا واتجاها عاطفيا نحو نفسي والناس والكون. وجعلت النمو مزاجي والاستطلاع اتجاهي. وهذا إلى جرأة في التفكير ونهم إلى الثقافة الشاملة.

وأما الدرس الثاني فلبلادي أو للعالم كله.. وهو أن البشر في حالتهم الحاضرة ينقسمون قسمين: أحدهما يجعل أساس حياته وأسلوب عيشه المعرفة التي تسمى علما عندما تحقق تفاصيلها وتقاس وتعين خواصها، وبكلمة أخرى يعتمد هذا القسم على العلوم.

أما القسم الثاني، فيجعل أساس حياته وأسلوب عيشه العقيدة الموروثة.. بما يحميها من القوانين. وأبناء القسم الأول من البشر، قسم المعرفة والعلم يتغلبون – في الغالب – ويسودون.

وقد تعبت كثيرًا في إقناع مواطني بضرورة الاهتمام بالمعرفة والعلم، ولكني لن أكف عن المثابرة في النصح والإرشاد والتوجيه.

وما بقى من شبابي سأخصصه لتحقيق هذين الدرسين: تربية نفسي وتنمية شخصيتي، وجعل المعرفة أساس الحياة.

***

الأنانية والذل توأمان!

بقلم الدكتور احمد زكي أبو شادي

ولد الدكتور احمد زكي أبو شادي بالقاهرة عام ١٨٩٢، وبعد أن أتم دراسته الابتدائية والثانوية بالقاهرة، التحق بمدرسة الطب في مصر، ثم غادرها بعد سنة إلى إنجلترا لإتمام دراسة الطب فيها، ويقى في إنجلترا حتى عام ١٩٢٢. فلما عاد إلى مصر برزت مواهبه المتعددة الجوانب في الأدب والشعر والصناعات الزراعية والنحالة. وقد أصدر الدكتور أبو شادي العشرات من الكتب في الشعر ونقده وفي القصة وفي العلوم والصناعات الزراعية، وفي المشاكل الاجتماعية. ولما اشتد الطغيان أبان عهد الملكية في مصر، آثر الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية في أبريل عام ١٩٤٦ حيث ظل يخدم وطنه مصر بنشر الآثار الأدبية القيمة حتى قضى نحبه.

كان الجنود يفتشون حوالي سنة ١٨٣١ بمدينة بوسطن الأمريكية عن الإدارة السرية لجريدة «الليبراتور» The Liberator أي «المحرر».. فعثروا في النهاية على مطبعتها في مكان دفين خبيء حيث كان يعمل على إصدارها «وليم لويد جاريسون» يساعده صبي زنجي. وما كان يناصر هذه الجريدة سوى قلة، إذ كانت غايتها تحرير الزنوج في

الولايات المتحدة الأمريكية، وقد نوه الشاعر «روسل لويل» فيما بعد، بشهامة جاريسون وشجاعته، حينما قل الأصدقاء والأنصار، ممهدا للتحول الفكري الإصلاحي، ولنضوج حركة التحرير التي انتهت بإعلان تحرير العبيد بلسان «إبراهام لنكولن» في منشوره المأثور المذاع سنة ١٨٦٣ . وقد استمر إصدار الجريدة الرائدة الحرة حتى سنة ١٨٦٥، حينما أتمت مهمتها، وتوفى جاريسون في سنة ١٨٧٩ .. ولكن ذكراه – كذكرى إبراهام لنكولن – بقيت على ألسنة الأحرار في كل مكان عبرة وعزاء وإلهاما.

تلقيت هذا الدرس في صغرى من سيرة جاريسون.. ولكن الحياة بظروفها المختلفة وأحداثها التي لا ترحم، علمتني أن لا أكتفى بدرس الكتب وساقتني من حيث أدرى ولا أدرى، إلى التعلق بالحرية تعلقي بالحياة، بل جعلت معنى الحرية في نظري مرادفا لمعنى الحياة، ثم صارت الحرية في اعتباري من مرادفات أسماء الله الحسنى. فليس الله هو ذو الجمال والمحبة فقط، وإنما هو الحرية أيضًا، وتشبث إيماني وتصوفي بالحرية، بحيث لم أعتبر أية تضحية في سبيلها إلا بعض الثمن العادل للتمتع والائتناس برحمة الله.

من أجل الحرية، آثرت الاغتراب عن وطني حينما تبختر الطاغوت يضرب بنعله المفكرين المقيدين يمنة ويسرة. ولأجل منبري الحر وطلاقتي الفكرية والروحية، احتملت مشاق نفيي الاختياري ماديا

ونفسيا لأني وجدت هذه المشاق لابد منها لإنقاذ نفسي وتحقيق رعايتي بقلمي ولساني لمسقط رأسي الحبيب ولخدمة مثلى الإنسانية العليا.

علمتني الحياة كل هذا، فاتبعت تعليمها واثقا مطمئنا. ولم أندم مرة على مطاوعتها.. وكيف أندم وقد رأيتني أقدر على إنصاف نفسي وإنصاف المثاليات التي أدين بها والتي أعمل لها طول حياتي؟ وكما آمنت بها لنفسي آمنت بها لغيري، وسعيت إلى تحقيقها له. وهكذا علمتني الحياة إلا أكون أنانيا، وعلمتني تبعا لذلك أن الأنانية والذل توأمان، وأنهما ينافيان الكرامة البشرية. وعلمتني أن الاحتمال والمثابرة من عناصر هذه الكرامة..

وما سر الحياة سوى احتمال   سواء للهنى وللشقى

ولكنه احتمال المكافح المجاهد في سبيل عقيدة شريفة يبشر بها لخير الإنسانية وسدادا لدين الحياة عليه، لا احتمال الخانع القابع.

علمتني الحياة هذا، كما علمتني ألا ألوم غيري قدر ما ألوم نفسي على عثرات كان يمكنني تجنبها، لو كنت الحاذق الواعي. ومن ثمة علمتني التسامح؛ لأني وجدت التسامح من عناصر التسامي.. كما وجدت التسامي من صميم الكرامة البشرية. فأحسست بأن اللطمة التي تنالني ترتد نهائيا إلى المعتدي عليَّ، كما أن التسامح يشعره نهائيا بمعنى العقاب ويرده إلى الإخاء الإنساني.

ولكني لم أعرف مرة التسامح في كرامتي ومثاليتي، وتركت للزمن

الحاسب والقدر المراقب إنصافي بما أؤمن به وأبذل من أجله. ولو جاء هذا الإنصاف متأخرًا أو بقى في ضمير الغيب.

إن الحرية هي حارسة المواهب ومغذيتها ومنميتها. ولولاها لصارت الإنسانية هباء.. إنها أنفس النفائس التي منحتني الحياة إياها وتعلمتها منها.. وبقبولي تعليمها وحرصي عليها شعرت بأني أستحق الحياة.

***

محاكاة المنبه!

بقلم الدكتور محمد غلاب

أمضى الدكتور محمد غلاب طفولته في قرية من قرى مصر الوسطى تقع على بحر يوسف، ولم يكد يجتاز أولى مراحل الطفولة حتى أصيبت عيناه بالرمد فأثر في إبصارهما تأثيرًا شديدًا، وكانت تلك المحنة سببا لآلامه ومتاعبه. ولم يلبث أن مات والده، وكاد يبقى في القرية لا يريم عنها ولا مدى الحياة. لولا أن صحت عزيمته على الالتحاق بالأزهر، ثم سافر إلى فرنسا حيث ظفر بشهادة الدكتوراة. وهو مكافح بطبيعته، ولذلك لا يزال – حتى وهو يمارس التعليم بكلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية – يكافح جهد طاقته في تثقيف الشباب وتربيته.

من القواعد المتفق عليها بوجه عام، أن عقلية المرء بعد نضوجها تعتبر كلا تألفت أجزاؤه من التجارب التي هيأتها له حياته الخاصة.. ولكنه عندما ينحني على ماضيه متأملا في جوانبه البعيدة، يحاول دراستها مستعينا بأضواء المحن التي اجتازها، مسترشدا بأشعة المعضلات التي اصطدم بها في حياته، فإنه كثيرًا ما يلاحظ أن ميوله وانعطافاته، بل أن العوامل الموجهة لإرادته قد نبتت في طفولته الأولى،

وجعلت تجارب هذه الطفولة في نموها ونضوجها وأثمارها، وليست هذه نظرية فرضية وإنما هي حقيقة واقعية يتبينها كل من أنعم النظر في طفولته ليستخلص منها المقومات الأساسية لشبابه ونضوجه.

وليعذرني القارئ إذا ذكرت له واقعة ساذجة.. كان لها أبلغ الأثر في حياتي.. ومجملها أنه بينما كنت في الرابعة من عمري اشترى أخي الأكبر منبها جميلا وضعه على مكتبه فأعجبت به أيما إعجاب واحتلت دقاته الموسيقية من رأسي الصغير مكانا ممتازا. ولما كنت أشاهد أن الخادمات في منزلنا لا يقمن بمهماتهن إلا إذا راقبتهن ربة البيت في دقة وحزم، وأنهن لا يكدن يشرعن في عمل حتى يشكين التعب إن صدقا وإن كذبا – فقد خيل إليَّ أن المنبه مثلهن سيقف عن الدق عندما يزول عنه كابوس الرقابة، وأنه سيخلد إلى الراحة عما قريب. فأسررت في نفسي أنني سأباغته ليلا لأرى ما عساه يفعل. فلما استسلم جميع أهل المنزل للنوم، انسللت من فراشي، ومشيت على أطراف أصابعي حتى وصلت إلى حجرة المكتب، ووضعت أذني على ثقب القفل مصغيا إلى دقات المنبه، فسمعتها تتتابع في نظام وانسجام، ثم كررت هذا التجسس عدة مرات فكانت النتيجة هي عينها، فامتلأت نفسي الناشئة إعجابا بهذا المنبه، وخرجت من تلك الواقعة بثمرتين عظيمتين:

أولاهما: أن هنالك كائنات – كالمنبه – تحسن وإن لم يراقبها أحد.

وثانيتهما: أن هناك كائنات – كالمنبه أيضًا – لا ينال منها التعب،

وأنها متى أرادت شيئا وصلت إليه لا محالة، وإن هذه الكائنات أسمى من طراز الخادمات..

فصممت على أن أكون كالمنبه، لا كالخادمات. وقد لبث هذا الشعور يحتل لنفسي ويدير قيادتها حتى عهد الشباب، بل النضوج، وإن كان قد تمثل في صور أخرى تختلف عن تلك الصور البدائية الساذجة.

وليس في هذا شيء من المغالاة.. فأنا لا أزال أطبق هذين المبدأين في حياتي العملية تطبيقا دقيقا بل قاسيا أحيانا. إذ وطنت نفسي منذ نعومة أظفاري على أن لا أحتاج في أعمالي إلى رقابة، وأن لا أسمح لأية عقبة أن تقف في طريق إرادتي، وأني لا أكاد أؤمن بمبدأ التعب كعائق دائم عن العمل، وإنما هو عارض كسحابة الصيف لا تلبث أن تنقشع. ومن آيات إيماني بأن من أراد وصل حتما.. تلك الواقعة الأخرى التي حدثت لي أبان طفولتي أيضًا، وموجزها أني لاحظت أن أخي الأكبر – وهو لم يكن يعبأ بأثرياء الإقليم – جعل يحتفل بأسرة فقيرة كانت تقدم من القاهرة إلى الريف في صيف كل عام، فسألت من حولي عن السبب في الاهتمام بتلك الأسرة إلى هذا الحد، فأجابوني بأن أفرادها متعلمون. فوقعت هذه الكلمة من نفسي موقعا هائلا، وصممت على أن أعض بالنواجذ على ذلك الكائن الفاتن المسمى بالعلم، والذي لا يتطاول الثراء إلى عليائه، ثم طفقت أستخدم سلاح الإرادة الحديدية وجحود مبدأ التعب في الوصول إلى الظفر بهذه البغية العالية، فقذفت بنفسي –

رغم ضعف بصري- بدون رحمة ولا إشفاق فوق صفحة البحر الأبيض المتوسط. وكنت أنا الوحيد الذي ليس له مودعون على مرفأ الإسكندرية، ومازلت أكافح في ربوع تلك البلاد كمثال من مثل المجالدة والمثابرة حتى ظفرت ببغيتي التي حددتها منذ طفولتي.. فكانت كأنها نوع من الإيحاء تحقق بحذافيره جملة وتفصيلا.. ولله الحمد أولًا وأخيرًا.

***

كلنا نكافح

بقلم المهندس فؤاد اسكندر

ولد المهندس فؤاد اسكندر في عام ١٩٢٦، وقد تدرج في مراحل التعليم حتى ظفر ببكالوريوس الهندسة من جامعة القاهرة.. ثم التحق بخدمة شركة مصر للغزل والنسج بالمحلة الكبرى عام ١٩٤٧. وقد أرسل بعد ذلك في بعثة علمية إلى إنجلترا عاد منها في عام ١٩٥١، وهو يشغل اليوم وظيفة المهندس الكهربائي للشركة المذكورة.

كنت أنتظر نهاية الأسبوع بصبر نافذ بعد أحد الأسابيع الحافلة بالعمل المرهق، وسافرت إلى الإسكندرية بالرغم من مبادئ الأنفلونزا التي كنت أشعر بها. ولفت نظر أصدقائي الحمى التي كانت تسرى في جسدي، ونصحوني بالراحة. ولكنني صممت على الاستمتاع بوقتي، وليكن ما يكون.

وتملكتني هذه الفكرة، حتى لقد ضربت بتعاليم الأطباء عرض الحائط، وأخذت حماما باردا وأنا محموم. وكان عجيبا أن تنتصر روحي وإرادتي على المرض والحمى. وانطلقت مع أصدقائي لنقضي وقتا سعيدا. وكنت كأسعد ما يكون، وفي أتم صحة وعافية، مما أثار

دهشتهم. وعدت من هذه الرحلة بأفكار جديدة وإيمان جديد.. أن ما يجرى في روحنا وقلبنا، يلقى ظله دائما على مشهد الحياة. فإن كانت النفس سعيدة فصورة الحياة سعيدة، وإن كانت كئيبة فهي سوداء، وإن كانت مريضة فصورة الحياة مريضة ثقيلة، وإن كانت ثائرة غاضبة فصورتها حمراء اللون بلون الدم فنحن نستطيع أن نسيطر بأفكارنا حتى على أجسادنا، فلو أن الإنسان أوحى إلى نفسه بأنه سعيد بينما هو يمر بمحنة قاسية.. فإن ذلك الإيحاء، إن لم يحل مشكلته، يجعله يجتازها بروح طيبة، والعكس صحيح أيضًا.

ولكن علمتني الحياة أيضًا أن هذه الطريقة الإيحائية لا تجدى في جميع الأوقات، فمن العبث أن توحي إلى إنسان متعطل جائع لا يجد قوت يومه، أو تجعله يوحي إلى نفسه بأنه سعيد موفق، فإن ذلك الإيحاء لو أمكن، فسيكون له فعل المخدر الذي ينسى الإنسان حقيقة حاله ويصرفه عن إيجاد حل لها. بل العكس، فإن إفهامه حقيقة مشكلته يجعله يفكر دائما في طريق للخروج منها إلى المستقبل المشرق وتكون طريقة الإيحاء العقلي هنا هي أن تؤدي بالإنسان لأن يقول لنفسه: إني أؤمن بأني سأخرج من هذا المأزق المظلم.. إني مؤمن بمستقبلي.. إني سأوفق. وهكذا، فإن هذا الإيمان كفيل بأن يدفعه إلى العلم بإصرار وعناد حتى يصل إلى شاطئ الراحة والاطمئنان.

إن ما حدث في ذلك اليوم لمن الأحداث العارضة التي يمكن أن

يمر بها الإنسان دون أن تترك في نفسه أدنى تأثير، ولكن شيئا واحدا أعلمه، وهو أن هذه الحادث قد أثَّر في نفسي تأثيرا بالغا.. وفتح أمام تفكيري آفاقا جديدة إلى فهم جديد للحياة.

كنت واقفا في قسم من أقسام المصنع الذي أعمل به، أرقب العمال وهم عاكفون على آلاتهم في ذلك اليوم القائظ من أيام رمضان – شهر الصوم – ولم يكن الحر الخانق، أو البخار الذي يشبع الجو، أو الصوم عن الطعام والشراب، لم يكن أي شيء من هذا يقلل من عزيمة هؤلاء العمال العاكفين على آلاتهم كأنهم جزء منها، يدورون معها ويدورون!.. أجل، هكذا كنت أنظر إليهم دائما، أجزاء من آلات! أداة صغيرة من آلاف الأدوات التي يحتويها المصنع الكبير.

واستوقف نظري أحد العمال وقد بدأ منصرفا عن عمله، مطرقا برأسه، وعلى وجهه حبات من العرق تلمع، كان مجهدًا مرهقا.. وسرت نحوه، فلما أحس بي أمامه، رفع رأسه ببطء، ورأيت في عينيه مزيجا من الإجهاد والاعتذار الصامت فقلت له: «**لابد أنك وزملاءك مرهقون بلا شك من الحر والصوم، كان الله في العون!**» فتمتم: «شكرا يا سيدي، إني لممتن لشعورك الطيب نحوي، إني أحسن حالا الآن».

ومضى إلى آلته وأدارها في همة ونشاط جديدين. كان يمكن أن أنسى هذا الحديث في زحمة العمل، ولكني لم أستطع أن أبرح مكاني. بل استرسلت في تفكير عميق. فكرت في هذا العامل، وآلته الصماء.

كلا.. إن هؤلاء العمال ليسوا كالآلات.. إنهم بشر، حياتهم كحياتنا، فيها الألم والوجع. يحبون ويكرهون ويتعذبون. وأدرت عيني في وجوههم السمراء اللامعة الصلبة.. وخلت أني أرى في وجوههم الصامتة قصة تموج بالحياة والكفاح المرير. إني أيضًا أكافح في سبيل الحياة -أنا وذلك العامل وهؤلاء العمال- كلنا قوة ضخمة نكافح في سبيل هدف واحد.. الحياة.

وأحسست بنفسي تمتزج بنفس هذا العامل وتمتزج بها امتزاجا عنيفا، وشعرت بمشاكله وآلامه تضطرب في نفسي، وآماله تلمع بجانب آمالي. كما لو كنت أحيا حياته، من يوم ولادته. وكأنما خلقت من ذلك اليوم خلقا جديدا، بروح جديدة، وإحساس جديد، بأننا جميعا إخوة، نكافح من أجل رخاء بعضنا البعض؛ ليس فينا آلات وأصحاب آلات، بل كل واحد منا نغمة، وهذه الملايين من النغمات تنصهر وتذوب في بعضها البعض لتكون «سيمفونية» الحياة.

***

لابد من توفير حياة اجتماعية سليمة!

بقلم الدكتور محمد كامل عياد

ولد سنة ١٩٠١ بمدينة طرابلس الغرب.. وبعد إتمام الدراسة الابتدائية والثانوية في استنبول وبورسا (بالأناضول) وحلب والقدس مارس الصحافة مدة سنة، ثم التحق سنة ١٩٢١ بجامعة برلين، وحصل على شهادة الدكتوراة في الفلسفة، ولما عاد إلى دمشق سنة ١٩٣٠ اشتغل مدة بالصحافة ثم عمل بالتدريس في المدرسة الثانوية بدمشق، ثم دار المعلمين العالية ببغداد. ثم عين أستاذًا مساعدًا في كلية الآداب. وقد انتدب من الجامعة السورية كخبير في الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية.

لا أعتقد أن الحوادث المختلفة التي تعاقبت عليَّ في شتى البلدان، قد جعلتني أكثر معرفة بحقيقة الحياة أو أكثر قدرة على حل مشاكلها من جمهور الناس الذين لا يفتؤون —وراء التجارب المتوالية— يرتكبون الأخطاء ذاتها في سلوكهم وفي علاقاتهم بأبناء جنسهم.

ولكن لا ريب عندي أيضًا في أنني —لولا بعض الظروف والوقائع— لما اتجهت في حياتي وتفكيري الوجهة الحاضرة.

لقد اضطررت –وأنا في العاشرة من العمر– إلى الهجرة من وطني «ليبيا» بسبب غارة الطليان، فانتقلت من بيئة نصف بدوية إلى مدينة استنبول المتحضرة نسبيا. وهناك، كان عليَّ أن أبذل جهدا زائدا لمسايرة البيئة الجديدة ومجاراة رفاقي الجدد في المدرسة. وبفضل هذا الجهد نلت الدرجة الأولى في الفصل عند امتحان آخر السنة.

ومن جهة أخرى فإن التفكير المتواصل في نكبة بلادي، قد صرفني عن ميولي الفطرية نحو الرياضيات ودفعني إلى دراسة التاريخ والعلوم الاجتماعية، وإلى الاشتغال بالأمور السياسية.

ومن المؤكد أن ذلك انتهى بي إلى إهمال مصالحي الشخصية المادية، مثل الكثيرين غيري من أبناء أمتي الذين أدركوا أنه لا قيمة لحياتهم الفردية دون نجاح القضية القومية العامة.

ولعل أهم حادث كان له أعمق تأثير في توجيه تفكيري هو ما تعلمته بعد اشتغالي بالتدريس. فقد كنت –ككل مدرس مخلص لعمله– أشعر بمنتهى السرور والاعتزاز عندما أشاهد طلابي يتقدمون في المعرفة والبحث والتفكير. وكنت في الصميم أعلق أكبر الآمال على مستقبل النابهين بين هؤلاء الطلاب الذين لم يكن يخامرني أدنى شك في أنهم سيصبحون علماء أو مخترعين أو مصلحين وأنهم سيعملون على نهضة الأمة العربية.

إلا أنه لم تمض بضع سنوات حتى كشفت لي الحياة عن الواقع المؤلم، ذلك أني التقيت ببعض الطلاب المتفوقين بعد مدة من تخرجهم، وإذا بهم قد صاروا معلمين في قرى نائية لأنهم كانوا فقراء لا يستطيعون

إتمام الدراسة الجامعية، وكان لابد لهم من العمل لإعاشة أنفسهم وأسراتهم. وقد هالني ما كان يبدو عليهم من الخمول والبؤس، ولاحظت أن أحدهم على الأخص كان هزيلا، شاحب اللون خلافا لما عهدته عليه في المدرسة. فلما سألته عن السبب أجاب: «كيف لا أنتهى إلى هذه الحالة وأنا أعيش في قرية تحيط بها المستنقعات وتفتك «الملاريا» بسكانها، وليس من طبيب أو صيدلية فيها أو بالقرب منها؟».

وقد تبين لي من الحديث مع هؤلاء الطلاب القدماء أنهم جميعا لم يطالعوا أي كتاب أو مجلة منذ أن تخرجوا من دار المعلمين. فظننت لأول وهلة أن ذلك ناشئ عن ظروفهم الخاصة. ولكنني عندما أخذت أبحث في الموضوع على نطاق أوسع وأسأل عددا كبيرًا من المتعلمين، كالمحامين والأطباء والمهندسين والموظفين، وجدت أن أكثرهم قد انقطعت كل صلة لهم بالعلم.

عندئذ أدركت أن هذه الظاهرة لا يمكن تعليلها بكسل الأفراد أو نزعتهم المادية، بل لابد من إرجاعها إلى تأثير البيئة الاجتماعية. ومنذ ذلك الوقت آمنت بأن مجرد العناية بتعليم الأفراد وتهذيب أخلاقهم لا تكفى وحدها لنهضة المجتمع وتقدمه. وإنما ينبغي في الوقت نفسه — وقبل كل شيء — تغيير النظم والمؤسسات وإصلاح الأوضاع العامة، فإن الأفراد لا تنكشف مواهبهم ولا يستطيعون الإنتاج والإبداع إلا إذا بدأوا بتهيئة الجو الصالح لحياة اجتماعية منسجمة، متطورة زاخرة.

درهم حكمة خير من قنطار علم

بقلم الدكتور أحمد أمين

تربى تربية دينية. فتعلم في الأزهر، ثم في مدرسة القضاء الشرعي. ولما تخرج منها عين مدرسا بها ثم قاضيا شرعيا، وظل على ذلك سنين ثم اختير مدرسا في كلية الآداب بالجامعة المصرية، ومازال يتنقل في مناصبها حتى اختير عميدا لها. وظل ممثلا لها في مجلس الجامعة نحو عشر سنين. وقد كوفئ على نشاطه العلمي بمنحه الدكتوراة الفخرية من جامعة القاهرة، كما كوفئ على كتبه الأدبية بجائزة الدولة.

وقد شعر وهو في سن الثلاثين تقريبا بحاجته إلى تعلم لغة أجنبية، فتعلم اللغة الإنجليزية فأوسعت أمامه الآفاق حتى حاضر بها في مؤتمر المستشرقين بليدن.

وانتخب عضوا في مجمع اللغة العربية ومجمع دمشق العربي ورئيسا للجنة التأليف والترجمة والنشر. وقد اختير مديرًا للإدارة الثقافية للجامعة العربية.

علمتني الحياة فيما رأيت من نفسي، وفيما رأيت من أبنائي، ومن عاشوا حولي.. أن العمل إذا بنى على التجارب التي جربها الإنسان في حياته، نجح غالبا، وإذا بناه على العلم والمنطق الذي كسبه لم ينجح غالبا. فإن للأحداث منطقا غير المنطق الذي في الكتب، ورأيت من

أبنائي أن أنجحهم في الحياة ليس أعلمهم، بل أحكمهم، وأذكر أنه كان في فصلنا في مدرستي أول الفصل وآخره.. فأول الفصل كان أعلمنا، ومع ذلك لم ينجح في الحياة. وآخر الفصل كان أحكمنا، ولذلك نجح في الحياة.

وأسمع أن أزواجا كثيرين يسعدوا بزوجاتهم لأنهن حكيمات في الحياة، بينما فشل غيرهن وإن كن أكثر ثقافة.

ونشاهد في الحياة رجلا كبيرًا في السن تاجرا قد نجح في تجارته ونال ثقة الجمهور، وحصل على ثروة كبيرة من مال وحسن سمعة، وعظيم جاه، وهو في هذا كله لم يتعلم في المدرسة اقتصادًا ولا تجارة، وإنما تعلم في الحياة حكمة عرف بها لماذا ينجح ولماذا لا ينجح، وعرف بطبيعته نفسية الناس وما يعجبهم وما لا يعجبهم، وكيف يصرف تجارته بينهم. ثم لما رزق ولدا علمه أحسن تعليم، وأعده للتجارة كل إعداد، وبعد أن أتم دراسته في مصر أرسله إلى الخارج ليتم تعليمه، حتى صار دكتورًا في التجارة. فلما عاد وأمسك تجارة أبيه، تبددت، وانصرف عنه الناس ولم يفهمهم ولم يفهموه، ولم يستطع بعلمه أن يدرك شأن أبيه بحكمته.. ذلك لأن العلم الذي حصله لم يعوضه حكمة أبيه.

وقد أدركنا في مصر بيوتا كثيرة خسرت وأغلقت؛ لأن الأبناء لم يستطيعوا أن يقوموا بما قام به الآباء. وربما كان الآباء عصاميين كونوا أنفسهم بأنفسهم، لم يرثوا من آبائهم مالا ولا جاها، ثم لما أورثوها

بنيهم أتلفوها.

وقد نجد اللغات المختلفة فرقت بين العلم والعقل والحكمة، وجعلت لكل واحدة من هذه الأشياء أسما. والحكمة هي الفلسفة العملية في الحياة والقدرة على النفوذ إلى الأشياء وحسن التصرف فيها. وهي كثيرًا ما تستفاد من تجارب الحياة، لا كالعلم الذي يستفاد من الكتب. وكان حكيما قول القرآن ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ صدق الله العظيم.

وتعجبني حكاية قرأتها في بعض كتب الأدب العربية، وهي أن أعرابيا بدويا، رأى قوما من الفرس يبيعون ويربحون، وهو لا يربح.. فقال: «الحمد لله، يلحنون ويربحون، ونحن لا نلحن ولا نربح».. لأنه ظن لغفلته، أن العلم بتصحيح الكلمات، وعدم اللحن فيها، يربح في الحياة، مع أن الربح يعتمد على التجارب، لا على عدم اللحن في الكلام.. وتلك حكمة وهذا علم.

وكما أن العلم مظهره الكتب والتدريس، ويبلغ منتهاه في نيل الدرجة الجامعية ونحو ذلك. فإن الحكمة مظهرها في الأمثال الشعبية التي تنبع من رجال الشعب ونسائه الذين جربوا الحياة واستطاعوا أن يبلوروا تجاربهم وتجارب أمثالهم، ويركزوها في حبات من الحكمة، وكما اشتهر في كل أمة علماء متخصصون في العلم وصلوا فيه إلى الغاية، كذلك يوجد أفراد اشتهروا بالحكمة والتجربة، وفهم الأمور على

حقيقتها وتصرفهم أمام المشاكل على أحسن ما يكون، أمثال أيزوب عند الرومان وجحا عند المصريين والأتراك ونحو ذلك.

فكل هؤلاء رويت عنهم أقوال في منتهى الجمال، تشرح تجربة، أو تحل مشكلة أو تضع مبدأ للحياة.. وكثيرًا ما تكون في صيغة قصصية جميلة.

وقد رويت لنا عن الأمم المختلفة أقوال حكيمة كثيرة، كل له طابعه الخاص، مما يدل على أن كل أمة جربت في الحياة ما بطبيعتها واستفادت من بيئتها، وأن كل أمة كانت تنظر إلى الحياة من زاوية.. وكلها تعبر عن الحقيقة بأسلوب يخالف أسلوب الآخر.

ونحن لو قلنا إن السعادة في الحياة مرتبطة بالحكمة أكثر مما هي مرتبطة بالعلم لكنا على صواب.. فالعالم قد يتصرف في المال تصرفا سيئا فيتلفه، ويتصرف في المنصب تصرفا خطأ فيضيعه، أما الحكيم فيصيب دائما ويسعد دائما.

من أجل ذلك دعونا الله أن يرزقنا ولو قليلا من الحكمة. فذلك خير من أن يرزقنا العلم ولا حكمة.

***

الحياة تافهة إذا خلت من مثل أعلى

بقلم الدكتور عبد الرازق أحمد السنهوري

تخرج الدكتور عبد الرازق أحمد السنهوري في مدرسة الحقوق بالقاهرة في سنة ١٩١٧وكان أول فرقته في جميع سنين الدراسة الثانوية والعالية، ثم أوفد في بعثة إلى فرنسا، حيث حصل على درجة الدكتوراة في العلوم القانونية، وعلى درجة الدكتوراة في العلوم الاقتصادية والسياسية. ورجع إلى مصر واشتغل بتدريس القانون المدني في كلية الحقوق بجامعة القاهرة، وفي عام ١٩٣٦ انتخب عميدا لكلية الحقوق بجامعة القاهرة، ثم قاضيا بالمحاكم المختلطة، فمستشارا، فوكيلا لوزارة المعارف فوكيلا لوزارة العدل، فوزيرا للمعارف، ثم رئيسا لمجلس الدولة.

علمتني الحياة أنني ما حصرت على بلوغ شيء فبلغته، إلا وأكون بعد بلوغه قد زهدته.

كنت صبيا صغيرًا أعيش في أسرة مستورة الحال، تهيأت لها أسباب العيش في شيء من الطمأنينة والدعة، ولم تتهيأ لها أسباب الثراء...

فتطلعت إلى خفض من العيش أوطأ مما كنت فيه. فأراد الله أن أبلغ شيئا من ذلك. وإذا بي أزهد ما في يدي منه. لا أرى البيت الذي أسكنه —وكنت أتطلع إلى مثله في مقتبل حياتي— إلا شيئا عاديا لا يشقى ولا يريح. ولا أرى المال الذي أحرزته —وكنت أحسب أنه يحقق شيئا من السعادة — إلا شيئا تافها لا يؤخر ولا يقدم. ولا أرى الجاه الذي بلغته —وكنت أنظر إلى مثله في غيري فأتوق إليه— إلا شيئا فارغا لا ينقص ولا يزيد، فعلمت أن الحياة تافهة، ما لم يرسم الإنسان لنفسه هدفا ساميا يسعى لتحقيقه، هدفا يعلو عن المادة، ويبقى على الزمن، إذا ما حقق شيئا منه طابت نفسه، وطلب المزيد.

وعلمتني الحياة أن الناس في درك هاو من الخسة، وفي درجة عالية من السمو، ينطوون على الشر والخير، ويهبطون بقدر ما يرتفعون. عرفت وأنا شاب في العشرين شابا في سني وقامت بيننا أواصر الود والصداقة.

ثم تنكر لي الصديق، وأبدى من أسباب الجفوة ما دل على انحطاط في الخلق ودناءة في الطبع، ثم ما لبث هذا الصديق، في ظروف أخرى، أن صفا معدنه، وسمت نفسه، فتقدم في ميدان الجهاد، وبذل روحه فداء لوطنه، ومات شهيدا، فعلمت أن الناس لا يخلصون شياطين، ولا يتمحضون ملائكة، والعاقل من لبس الناس على حالهم، لا يزهد في الصديق وإن بدا شره، ولا يقطع ما بينه وبين الناس لجرح لا يلبث أن

يندمل، ولعارض لا يلبث أن يزول.

وعلمتني الحياة أن حظوظ الناس تبدو متفاوتة أكثر من حقيقتها، وهم في الواقع متقاربون في الشقاء والسعادة.. لكلٍّ مِن حَظِّهِ ما يسعده ومن همه ما يشقيه.

عرفت رجلا كثير العيال رقيق الحال، لا يشك من ينظر إليه في أنه ضيق بحظه من الدنيا. وهو لا يكاد يفيق من هم إلا ويعثر في هم. وعلمت بعد ذلك أن الرجل ليس من الشقاء بالقدر الذي توحي به حاله. فهو قد ألف ضيق العيش، ووطن نفسه عليه، حتى إذا أصابته نعمة ضئيلة على غفلة من دهره، كان تقديره لها كبيرًا، وفرحه بها عظيما، وذاق بها السعادة كما ذاق من قبلها الشقاء.

وعلمت من ثقة أن أحد ملوك المال في مصر -وهو رجل من أقوى الرجال في بلده ومن أعرضهم جاها وأوسعهم نفوذا- وقد عرف بالسيطرة على أقدار الحكومات حتى أنه ليسقط حكومة ويقيم أخرى.. هذا الرجل كثيرًا ما يخلو إلى نفسه، لينسى سوء حظه وليبتعد بشقائه عن عيون الناس، بل إنه ليتسلل من سريره في جنح الظلام لينفرد بنفسه ويبكي.

وعرفت سيدة كانت تتبرم من ضيق العيش ثم ورثت شقيقا لها، فأصبحت تتبرم بما أصابته من مال لا تعرف كيف تستغله.. فآمنت بعد كل ذلك أن الناس سواسية في الشقاء والسعادة على خلاف ما يبدو من

تفاوتهم في ذلك، وأن في الأرض عدلا بين الناس أكثر مما يظن الناس.

وعلمتني الحياة أن نجاحي فيها رهن إيماني بنفسي وإيمان الناس بي.. فقد كانت ثقتي بنفسي تدفعني إلى العمل، وكانت ثقة الناس بي تجعلني أطمئن إلى نتيجة عملي. وهذا القدر المتوازن من ثقة الإنسان بنفسه وثقة الناس به، لابد منه لنجاحه في الحياة.. فإن زادت ثقته في نفسه على هذا القدر، كان ذلك غرورًا يضله عن الحقائق. وإن جاوز اعتماده على ثقة الناس به هذا القدر، بحيث أصبح لا يصدر إلا عن رأي الناس ولا ينزل إلا عند هواهم، كان ذلك ضعفا واضطرابا يورثان انقيادا واستسلاما. وتابعت في نفسي وفيمن حولي هذا التوازن، فأدركت أنه ضروري في كثير من الصفات الأخرى. هو ضروري في الواقعية والخيال فإن زادت الواقعية على الحد الواجب، كان ذلك جمودا وضيقا في الأفق. وإن زاد الخيال، كان ذلك ميوعة وإغراقا في البعد عن الحقائق.

وهو ضروري في المادية والروحية، فإن زادت المادية، كان ذلك بلادة وتنكرا للقيم العليا في الحياة، وإن زادت الروحية، كان ذلك عجزا عن مواجهة الحياة في حقائقها المادية.

وهو ضروري في الاختلاط بالناس والانطواء على النفس، وإلا كان الإمعان في الاختلاط بالناس إهدارًا للشخصية، وكان الإغراق في الانطواء على النفس عزلة ضارة. ومع ذلك لابد من التسليم بصعوبة

أن يجمع الإنسان في نفسه هذا المزاج الموفق من الاعتدال والتوازن، والأمر الجوهري هو أن يعرف كيف يستطيع أن يتخفف من الإفراط في صفة أو التفريط في أخرى.

وعلمتني الحياة أن الغفلة عن المستقبل من أهم أسباب الراحة..

وما تعبت لشيء أكثر من تعبي عندما أفكر في المستقبل.. ولعل الموت هو الحقيقة الأولى التي لا يتطرق إليها الشك، وهو المستقبل المحتم. ومن نعم الله على الإنسان أن جعله قادرا على التغافل عن هذه الحقيقة، وإلا ظل قلقا حائرا لا يفكر إلا في الموت.

وعلمتني الحياة أن النعمة لا أعرف قيمتها إلا عندما تزول..!!

وعلمتني الحياة أن تتسع أطماعي فلا أعرف أين أقف، ثم يتعثر بي الحظ فأرضى بالقليل..

وعلمتني الحياة أنني أتعلم منها كل يوم، ولن أنقطع عن التعلم حتى تنقضي الحياة. ومن يدري – إذا أنا عشت – ماذا سأتعلم منها غدا..!!

***

آمنت بالحياة

بقلم الدكتورة سهير القلماوي

ولدت في القاهرة وتعلمت في كلية البنات الأمريكية من روضة الأطفال إلى الجامعة. وتخرجت من الجامعة من قسم اللغة العربية وحصلت على الماجستير ثم الدكتوراة من جامعة القاهرة في الأدب العربي. واشتغلت مدرسة ثم أستاذة بها وكتبت في المجلات والجرائد وألقت الكثير من الأحاديث الإذاعية. وهي متزوجة ولها ولدان. وقد سافرت إلى أكثر بلدان أوروبا وأمريكا والشرق العربي.

كنت في الخامسة عشرة من عمري يوم توقفت مع أبي ونحن نسير في الحديقة أتأمل الحياة في تفكير أحسست لأول مرة أنه عميق. كنت أردد أبيات الشاعر الأمريكي «**لا شيء في الحياة غير نافع أو حقير، كل شيء في مكانه جميل، وما قد يبدو لا فائدة فيه، يسند غيره ويقويه**» فأخذ أبي يفسر لي. ثم لمحت دودة في الأرض فقلت متحدية: وما فائدة هذه مثلا في الحياة؟ قال أبي: إنها تنخر في الأرض فتجعل فيها منافذ للهواء تقوى الزرع وتنميه.

قلت: أليس في الحياة ما لا فائدة فيه؟

قال أبي: إن الله لا يخلق شيئا عبثا. وليست الحياة كالبيت، لَبِنات تسند بعضها بعضا، ولكنها لَبِنَات حية لا يمكن أن تمحى. إنها تتكاثر وأنت تحاولين إفناءها، جربي محو هذا الدود من على سطح الأرض. إنها سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

آمنت منذ ذاك بالحياة كما خلقها الله وأخذ إيماني ينمو على مر الأيام وتأكدت أن السر الأساسي في النجاح والسعادة هو أن نفهم الحياة. ولقد رأيت مذاهب وآراء تنجح فتنتشر وتحيا، وأخرى تخيب فتموت وتفنى.

وما من سبب في هذه الحياة أو ذلك الموت إلا تلك الحقيقة الكبرى. كل رأى أو مذهب يرفض هذا التوافق أو الاعتراف محكوم عليه بالفناء.

والأيام لا شك تغير الكثير من آراء المرء ونظرته إلى الحياة بحكم السن ونوع التجارب ولكن حقيقة الحياة ثابتة، والإيمان بها وبمن خلقها على هذا النحو هذا الجوهر الذي يجب ألا يتغير أبدا.

كنت أسأل نفسي عندما أقرأ عن رأي جديد أو مذهب حديث: أيتمشى هذا مع الحياة؟ فإن هذه الحقيقة تنير أمامي الكثير من سبل التفكير الصحيح. قسا الرجل مثلا على المرأة قسوة شديدة فثارت تقول: أنا رجل مثلك! وقالت الحياة: الرجل والمرأة يختلفان! ومرت الأيام فإذا طلب المساواة بالرجل يتخذ شكلا أقرب إلى حقيقة الحياة!

فما من امرأة اليوم متحررة تقول: أنا رجل. كلنا نقول: المرأة والرجل متساويان في الحقوق ولكنهما يختلفان، وفي اختلافهما سر الحياة. وما حركة تحرير المرأة إلا توتر غير طبيعي كان لابد منه، فقد انثنى العود وكان لابد من ضغط شديد عليه في الاتجاه الآخر حتى يستقيم.

كذلك كانت حركة المساواة بين أفراد الشعب. فلقد ظلمت فئة فئة أخرى ظلما شديدا فانثنى العود انثناءة قوية. فإذا صيحة المساواة تتطرف حتى تنكر حقائق الحياة، تحاول أن يستقيم العود بشدة مرة أخرى شدة قوية في الاتجاه الآخر. ونشأت مذاهب سياسية تحاول أن تجعل من الفرد مجرد خلية متساوية كل المساواة مع سائر خلايا المجتمع. والحياة تأبى هذا التطرف لأننا لم نخلق جميعا سواء إلا بقدر معين فيجب ألا نتساوى إلا في الحقوق والواجبات.

إني أؤمن بالشخصية إيمانا قويا وأعتقد أن جمال الحياة في أن كلا منا ليس كالآخر في أهم شيء وهو التفكير وإن كنا نتشابه في كثير غير هذا. يقول العالم سير أرثر كيت: «إن العقل الإنساني يتألف من حوالي ثمانية عشر ألف مليون خلية عصبية كل منها متصلة بالأخرى بشبكة عجيبة. ولم يولد بعد اثنان بنفس الرسم في شبكة الاتصال هذه. فليس العجيب أن نختلف وإنما العجيب حقا أن نتفق». كذلك أؤمن بالشخصية أشد الإيمان في الفن والحياة وفي كل شيء لأن حقيقة الحياة تقول هذا.

ومن هنا كان أحسن ما يشغل المرء به نفسه هو محاولة معرفة أسرار

الحياة أو الحقيقة: تلك الحقيقة التي شغلت الفكر المصري القديم فألهمته أروع الفنون وأرقى العبادات في العالم القديم وشغلت الفكر اليوناني قرونا فأنتج أروع المدنيات العظيمة. بل إنها شغلت أفكار الناس على مر العصور ومازالت تشغلها. بل من يدري كم شغلت الناس قبل زمن الفراعين وزمان بابل وآشور، فإن عمر الأرض فيما يقال مائتان وخمسون ألفا من السنين لا نعرف شيئا إلا عن الخمسة آلاف منها بل إن نصف هذه الخمسة لا نعرف عنه إلا الأقل.

وإذا كان ليس من المستطاع أن نعرف أسرار الحياة كلها فليس معنى هذا أن ندع الأمر بائسين. لقد خلقت فينا بذور حب المعرفة وحب الاستطلاع.

وتلك حقيقة أخرى من حقائق الحياة لا يمكن أن نغفل عنها. وليس الهام أن نعرف، وإنما الهام أن ما نعرفه وما يمكن أن نعرفه ما هو إلا وسيلة لخلق ملكة الفهم الصحيح والإحساس الدقيق بحيث نواجه الحياة نفسها فنكون أكثر استعدادًا لأن نفهمها.

وما أجمل قول الشاعر:

اللهم اجعل قلبي صافيا شفافا حتى يشع نورك من خلله.

وكنت في فرنسا أعد رسالتي للدكتوراة وكنت أحضر في الكولج دو فرانس محاضرات الأستاذ مرسيه. وكان رجلا في الثمانين يتفجر حيوية ونشاطا. كان يقول لي: «لا تتعبي نفسك يابنتي بقراءة الكثير،

ولكن أتعبي نفسك في فهم ما تقرأين؛ فليس العلم أن تعلمي، وإنما العلم أن تعرفي كيف تعلمين».

لم تكن المعرفة أشرف ما يشغل الإنسان به نفسه فإن هذا الشرف لا يكمل إلا إذا أدرك طالب المعرفة واجبه الأول.. وهو أن يشرك الناس معه فيما يصل إليه وأن يهدف إلى خير الحياة ومن يحيا معه. وأن تكون معرفته وسيلة للسعادة والحب والإخاء؛ لأن هذه هي الحياة. فكل مخلوق له في الحياة دور وله فيها عمل. وكما أنه لا شيء غير نافع أو حقير فكذلك لا إنسان فيها غير نافع أو حقير بل إن كل امرئ في مكانه جميل وما قد يبدو لا فائدة فيه يسند غيره ويقويه.

***

مع الشراع لا مع الرياح

بقلم الدكتور رئيف أبي اللمع

حصل على بكالوريوس علوم، ودكتور في الطب من الجامعة الأمريكية في بيروت. تخصص في علم الطفيليات والجراثيم من معهد بستور في باريس ومعهد كوخ في برلين وقضى ٢٥ سنة أستاذًا لهذين الفرعين في المعهد الطبي الأمريكي. وانتخب رئيسا للجمعية الطبية اللبنانية ورئيسا لنقابة أطباء لبنان. ثم دخل الحياة السياسية فانتخب نائبا عن مدينة بيروت في المجلس النيابي اللبناني ثم وزيرا للمعارف وقد مارس الصحافة وشغل منصب الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية.

وفي صباح يوم من أيام الربيع على رابية من روابي لبنان، أحدق وأفكر.. وأيام الربيع كأيام الشباب، أحلام وآمال.

جبل على جبل، مضيق فوق مضيق، كأن الطبيعة في فوضى من الخيال، تتفتح فيها العين على مناظر ساحرة غنية بذكريات التاريخ، ممتدة إلى كل العصور وإلى كل الجهات.

لقد تسلقت جيوش «سنحاريب» ملك أشور تلك القمم في زحفها على مصر والحبشة. وسارت في مضايقها كتائب اليونان، مثقلة

بغنائم «أيسوس» طامعة بثروات صور. واستباحت حماها جنود سليمان الحكيم وقطعت أرزها لبناء هيكل أورشليم. وقامت على شواطئها الملاصقة لجبالها مدينتا صيدا وصور. الأولى أم الأحرف الأبجدية التي حلها «قدموس» من فينيقيا إلى اليونان، والثانية أم الملاحة، وبانية قرطاجنة، وأولى ملكات البحار.

وانبسط البحر أمامها في هدوء وسكون، كأنه في زرقته لوح من الفيروز، تنعكس عليه أشعة الشمس، فتحلل ألوانه إلى بيضاء، وخضراء، وزرقاء.

وهبت الريح برفق وحنان، تلاعب شراعى مركبين يسيران، ولكنهما يسيران في اتجاهين معاكسين.

ريح واحدة، تسير من الغرب إلى الشرق، فتدفع مركبا إلى الشمال وأخرى إلى الجنوب..

هي قوة الإنسان، ذلك المخلوق الخلاق، الذي أخضع البحر وروض الهواء فاستطاع أن يسير مع الشراع لا مع الرياح.

ومرت الأيام، واجتزنا الامتحانات النهائية في كلية العلوم، في جامعة بيروت الأمريكية، وأخذنا نستعد لإقامة حفلة الوداع.

وجرت العادة أن يتكلم في تلك الحفلة «خطيب الصف» وأن يختار لرفقائه شعارًا يتبعونه في الحياة. فلما وقع اختيارهم عليَّ، لم أتوقف ولم أتردد. لقد كان الشعار مشعا أمام عيني، كأنه كتب بأحرف من نور..

مع الشراع لا مع الرياح..

ثم مرت الأعوام، فإذا الأقدار تقذف بي إلى أكثر من جبهة من جبهات الكفاح والنضال، فعملت في حقول العلم، والطب، والسياسة، والنيابة، والصحافة، والاجتماع.

وفي كل ميدان من هذه الميادين، كنت أحيانا أجد نفسي في موقف دقيق يتنازعني فيه عاملان، ويتجاذبني اتجاهان:

الأول: السير مع التيار والاتجاه مع الرياح. فذلك أسهل طريقا وأقل مشقة، وأسلم عاقبة.

والثاني: مقاومة المجرى، ومغالبة الرياح، على ما يقتضيه ذلك من جهد وعناء، وما يفسح له من نقد وحرمان واضطهاد.

غير أنني في نهاية كل مرحلة من المراحل، عندما كنت استسهل الطريق، ويتغلب على الضعف، ويخونني الجلد، فاستسلم للمجرى حتى ولو انحرف عن جادة الحق، واتجه مع الرياح حتى ولو هبت في غير اتجاه العقيدة الصادقة والمبدأ الصحيح، كنت أصل دوما إلى نهاية خاسرة، وأندم حيث لا ينفع الندم.

وفي نهاية كل مرحلة من المراحل، عندما كنت أقاوم المجرى، وأسير على مقذاف الحق، وأعاند الرياح، على شراع العقل، كنت أصل إلى نهاية رابحة، وأقطف ثمرة ذلك الكفاح، راحة للضمير، وغبطة في النفس.. وهما ركنا السعادة في الحياة.

لقد علمتني الحياة أن القوة التي تسيِّر الإنسان في طريق النجاح والفلاح هي قوة القيم الروحية المركبة من عناصر الإيمان، والشجاعة، والصدق، والإخلاص، والثبات.

فليهتد الإنسان بهديها، وليسلك طريقها دون خوف أو تردد أو إحجام. ولتشرق الريح بعدها أو تغرب. وليجر المجرى في أي اتجاه شاء.. فالغلبة في النهاية هي للحق والصلاح.

إن «مذهبي في الحياة» هو أن تلك القيم الروحية، هي المقذاف والشراع للإنسان..

وكما ينشر البحار الماهر شراعه، ويتحكم في مجارى الرياح، فيسير بها إلى حيث يريد، لا إلى حيث تهب. وكما يضرب البحري بمقذافه، فيسير به في الاتجاه الذي يريد، لا الاتجاه الذي يفرضه التيار. هكذا يستطيع الإنسان الحكيم أن يسير بقوة تلك القيم الروحية إلى حيث يريد، كيفما اندفعت المجارى، وكيفما هبت الرياح.

ولكن تاريخ الشرق العربي في النصف الأول من هذا القرن، هو سلسلة متصلة الحلقات من الكفاح والنضال، ضد المجاري التي كونتها التقاليد، وضد الرياح التي أثارتها العادات. فمقاومة الاستعمار، والقضاء على الإقطاعية، ومحاربة التعصب، وإعطاء المرأة حقوقها، وتأمين العدل الاجتماعي، قامت بها كلها فئة مختارة، وهبها الله نعمة الشجاعة والإيمان، فسارت مع الهدف الذي حدده مقذافها لا مع قوة

المجرى. وفي الاتجاه الذي رسمه شعارها، لا الذي فرضته رياحها المندفعة. وفي التاريخ كل ثورة فكرية وكل نهضة سياسية واجتماعية وعلمية، قام بها رجال تحدوا الرأي العام، وذهبوا مع شراع العقل، لا مع أعاصير العادات والأوهام.

رجال قاوموا وكافحوا وناضلوا، فحوربوا واضطهدوا ونبذوا، ثم انتصروا فكانوا قادة وعظماء وأنبياء.

إن «مذهبي في الحياة» هو عظمة (كبلنج) في قصيدته الخالدة «إذا»:

إذا رأيت الورى ضلوا..

ووقفت أنت وحدك تناضل في سبيل الحق..

فاعلم أنك رجل.. وأن الخلود لك..

***

الحياة متوازنة أمامي

بقلم محمد زكي عبد القادر

تخرج في كلية الحقوق بجامعة القاهرة وفي المعهد العالي للدراسات الجنائية وقسم الدكتوراة. وحصل على الجائزة الأولى في المسابقة الحكومية للأدب والصحافة سنة ١٩٣٦. كان وكيلا لنقابة الصحفيين وعضوا في مجلس الإذاعة الأعلى. ومنذ سنة ١٩٣٨ اعتاد أن يكتب في الصحف كل يوم عمودا يضمنه آراءه واتجاهاته. وهو الآن رئيس تحرير جريدة «الأخبار» اليومية. ويصدر مجلة للثقافة العامة.

اعتدت أن أسمع الناس -مع استثناء طفيف- يقولون إنهم غير سعداء. واعتدت أن أتأثر بكلامهم إلى حد أني كنت أقضى بعض الوقت أفكر في متاعبهم. ثم لاحظت -حينما نضج العمر والتجربة- أن أكثر هذه الشكاوي لا يدل على أن الحظ السيئ يتابع فريقا من الناس بقدر ما يدل على أنهم يقتصرون على ذكر ما يحزنهم، وينسون النعم التي منحها الله لهم.

وأيقنت أن الحظ خرافة لا وجود لها. وأن الحياة متوازنة بطبيعتها: فيها عنصر التعويض العادل وليس فيها الانحراف الظالم. وأيقنت أن المتاعب تأتي لأنها ظاهرة مكملة للحياة. وأنه لا وسيلة للشعور بالهناء

إن لم يسبقه أو يتلوه شعور بالتعاسة والشقاء.

وأيقنت أنه على قدر الشعور بالقلق مثلا، يكون الإحساس السعيد بالطمأنينة. وشبيه بالقلق غيره من سائر المتاعب التي تعرض للناس.

وأيقنت أن دوام الحال شيء مخالف لطبيعة الحياة. فلا القلق يدوم، ولا الشقاء يدوم، ولا الفقر يدوم. وكذلك لا يدوم الهناء، ولا تدوم الطمأنينة ولا يدوم الاستغناء عن الناس. فسنة الحياة في هذا التغير. ومن هنا شعرت شعورا عميقا بالرضا عن كل شيء. عن المصيبة التي تحل بنا وعن النعمة التي توهب لنا. ورأيت الصلة بينهما قائمة. وأصبحت أدرك أنه على مقدار ألمي الذي أحسه في فترة من الفترات، سأشعر حتما في وقت قريب أو بعيد بسعادة مماثلة.

وأكثر من ذلك أصبحت أؤمن في الألم جماله، وبذلك توازنت الحياة أمام عيني، ولم أعد أضيق بها خيرًا كانت أو شرا.

ومن المعروف أن ما يناله الإنسان يسره أول الأمر، ثم يصبح شيئا مألوفا.

وكذلك ما يفقده، وإن أحزنه أول الأمر، إلا أن الأيام تأسو الجراح، ويعود موج الحياة إلى سيره العادي.

ثم إن الحزن يصقل النفس، والألم يصهرها. وحياة من غير حزن ولا ألم حياة رتيبة مملة، لا يحس الإنسان فيها بالعمق. والعمق في الشعور هو آية الإنسان الذي يفهم الحياة، ويحب أن يحياها.

غير أني أميل إلى التشاؤم مني إلى التفاؤل. وربما كان ذلك ميراثا من أيام الدراسة، فقد لاحظت أن الامتحان الذي أؤديه وأشعر بالطمأنينة لنتيجته، قلما تجيء كما قدرت، بينما كان الامتحان الذي أتشاءم من نتيجته، أبلغ فيه أعلى المراتب.

وحاولت منذ زمن طويل أن أنزع من قلبي الحقد والكراهية حتى بالنسبة لمن لا يحبونني، أو يكرهون نجاحي. وقد منحتني هذه المحاولة طمأنينة أشكر الله فضلها، وجعلتني أعف عن الكثير من الصغائر وأغرق نفسي في العمل ولا شيء غيره.

وقد نشأت في عائلة ريفية. وقضيت طفولتي في القرية. وتفتحت عيناي أول ما تفتحتا على خلاف شديد بين عائلتي وعائلة أخرى منافسة حول منصب العمدية في القرية. وكان العمدة جدي وكانت العائلة الأخرى تحاول تقصيه عن مركزه. والذين يعرفون الريف المصري يدركون ما هو الصراع من أجل العمدية وما يقترن به من مرارة وحقد. ولا أنكر أني، في هذه السن الباكرة، شاركت عائلتي شعورها، ولكنني حينما انفسحت أمامي مجالات المعرفة والفهم وأصبح لي في عائلتي رأى مسموع، كففتهم عن هذا السخف، وحملتهم على أن يهتموا بشئونهم ويقصدوا الوقت الضائع في الخصومات لشيء أكثر نفعا وأكثر إمتاعا.

وشكرا لله أن كان أبي، رحمه الله، من هذا الرأي فوقفت

الخصومات وانصرف كل فريق إلى شأنه. وتعلمت من أبي أشياء كثيرة، ظلت تطبع حياتي.. منها ألا أتدخل فيما لا يعنيني وأن آخذ الناس بعلاتهم: فلا أطلب منهم أن يكونوا ملائكة، وأن أعذرهم إذا أخطأوا وأعفو عنهم إذا أنابوا، وأمسح عنهم الحزن واليأس ما استطعت.

ولم يكن في خاطري قط أن أبلغ الثراء. وما تمنيت أن أكون إنسانا آخر غير من أنا. كل ما أهمني أن أحفظ نفسي فلا أحتاج إلى أحد أو أضطر إلى ما لا أحبه من رأي أو سلوك. وقد تعلمت في بكور حياتي درسا لم أنسه فيما بعد كان من عادتي وأنا تلميذ ألا أطلب من أبي شيئا، فقد كان رجلا كريم النفس يعرف واجبه ومسئولياته. فلم أشعر قط بحاجتي إلى تذكيره بشيء من هذه الناحية. ولكن حدث وأنا في القاهرة، طالبا في الجامعة، أن تأخر وصول النقود لي. ونفذ ما كان معي منها. وشعرت بضغط الحاجة. ولي حينئذ أقرباء عديدون في القاهرة، ولكنني لم أفكر في الالتجاء إليهم، ولم أكن قد اضطررت إلى شيء من هذا من قبل. ولذلك آثرت أن الجأ إلى صديق وزميل.

وكان المبلغ الذي طلبته منه صغيرا جدًّا، ٥٠ قرشا، ولكنه اعتذر بصورة أخجلتني وآلمتني، ولكنها علمتني أن أعتمد على نفسي، وأن آخذ حذري لكل احتمال.

وقد اعتاد الناس أن يقللوا من جهد الناجمين، وينسبوا نجاحهم إلى أي شيء إلا أنهم يستحقونه بعملهم أو ذكائهم أو صفاتهم الطيبة

كالمثابرة والصبر، وقد رددت نفسي عن هذا الظن أو هذا الحقد أو هذا التبرير للفشل. وآمنت أن الحياة تجزي صاحبها بما يعمل. وأن النجاح ليس نهبا مباحا، ولكن ثمنه السعي والكد والصبر ومحاولة النهوض من غير يأس.

ولم أحاول أن أرسم لحياتي برنامجا، ولكنني اكتفيت بأن أؤدي العمل الذي يعهد به إليَّ في أمانة وذمة.

وعرفت لنفسي ما تستطيعه وما لا تستطيعه. ووجدت في كل وقت الشجاعة لكي أقول ما أعتقد، وأن أعترف بنقائصي وعيوبي، بل إنني في بعض الأحيان أسائل نفسي: هل وهبت فضائل؟ وأي فضائل؟

وربما كان عزائي في الأوقات التي أحتاج فيها إلى عزاء، أن هناك قوى عديدة غير منظورة تتدخل في تكويننا وتلوين تصرفاتنا ليست تحت سلطاننا، وأنه حسبنا أن نحسن التصرف فيما بين أيدينا وما نملكه. ومن هنا كان إيماني بالله قويا لا يتزعزع.

***

الحياة هدف وطريق

بقلم ميخائيل نعيمة

الأديب اللبناني الكبير، قضى شطرا كبيرًا من حياته في أمريكا. وكان جبران خليل جبران فقيد الأدب والفن أعز أصدقائه، فلما توفى عاد إلى وطنه لبنان. ويقيم الآن في بلدته بسكنتا. وهو أديب ضليع وقصصي نابغ، ومؤلف كبير، وقد ظهرت له بالإنجليزية والعربية عدة مؤلفات نفيسة.

لنا في كل لحظة من حياتنا غاية نسعى إليها. فإذا بلغناها سعينا في الحال إلى سواها. وإذا حيل دوننا ودونها نبذناها على مضض، أو سلكنا إليها طريقا غير الذي سلكناه في البداية. وهذه الغايات، كبيرها، وصغيرها، وجليلها وحقيرها، هي بمثابة القطرات التي منها يتكون مجرى حياتنا، أو بمثابة الحلقات التي تتآلف منها سلسلة أيامنا وليالينا. سواء في ذلك الغايات التي أدركناها أو التي فاتنا إدراكها.

وما الفارق بين ما ندركه منها وما لا ندركه إلا في المشاعر التي يثيرها فينا كل منها؟! فبينما نشعر بالارتياح ولذة الفوز لدى بلوغنا أي غاية، ترانا نشعر بالانقباض ومرارة الفشل كلما استعصت علينا غاية من الغايات فارتددنا عنها خائبين. أو كلما انقلبت علينا غاياتنا فبلغنا

عكس ما نصبو إليه.

ولأننا نعيش في عالم ازدوج فيه كل شيء فكان في نظرنا إما خيرًا وإما شرًا، ترانا ندعو كل فوز خيرًا وكل فشل شرًا. ولكننا لا نلبث أن نرى الكثير مما دعوناه فوزا يقودنا في النهاية إلى فشل ذريع. ومما دعوناه فشلا ينتهي بنا إلى نصر مبين. وهكذا تختلط علينا حياتنا فنقف تجاهها ذاهلين، إذ نبصر الخط الذي أقمناه فاصلا ما بين خيرنا وشرنا يتنقل بقدرة غير قدرتنا من هنا إلى هناك إلى هنالك. فما هي تلك القدرة التي تعبث به، فإذا بالخير شر وإذا بالشر خير؟

حسبنا أن نطرح على أنفسنا هذا السؤال لندرك أننا غير مستقلين كل الاستقلال فيما نسعى إليه أو نرتد عنه. فكما أن لنا غاية في هذا الكائن أو ذلك من الكائنات التي تملأ الفضاء، كذلك لكل كائن غاية. ومجموع هذه الغايات هو غاية الحياة الشاملة التي تتمثل لنا في سائر الكائنات -المحسوس منها وغير المحسوس، والحي منها وغير الحي، والعاقل وغير العاقل.

وإذن فللحياة منا غاية مثلما لنا منها غاية. وغايتها هي النافذة أبدا.

إذا طاوعتها غاية من غاياتنا كتب لها الفوز. وإلا فنصيبها الفشل. وإذن فغايتنا من الحياة وغايتها منها هي أن نعرف ما تبتغيه لنا فنطاوعها ونسعد، بدلا من أن نعاندها فنشقى. ولذلك سلحتنا بالعقل، والإرادة والوجدان وجعلت العالم الذي نعيش فيه عالما يسوده ازدواج الخير

والشر كما نشحذ بالمقارنة والاستنتاج عقولنا وإرادتنا ووجداننا.

ولأننا حديثو العهد بهذا السلاح الهائل الذي وضعته الحياة في متناولنا ترانا ما أتقنا استعماله بعد. فما أكثر ما ندمي به قلوبنا ونفرح مآقينا.

وما أكثر ما نستعمله في غايات صبيانية ومقاصد خسيسة. فنكون كمن يستخدم مدفعا من عيار ثقيل ليصطاد به ذبابة!

لو أننا أحسنا استخدام العقل لأدركنا أن الحياة ما وضعتنا في عالم يهيمن عليه الخير والشر إلا لأن طريق الخير والشر هو الطريق الأوحد إلى المعرفة، وبالتالي إلى الحرية والحياة. وإذ ذاك لما هالنا الموت، ولا دعوناه شر الشرور. فما دام الشر ينقلب خيرا، والخير شرا فمن ذا يستطيع الجزم بأن الحياة لم تجعل الموت بابا يؤدي بنا إلى حياة، بل حيوات جديدة؟ وإلا فما معنى هذا الحنين فينا إلى المعرفة التي لا يفوقها علم شيء، والقدرة التي لا يعاندها معاند، والحياة التي لا ينال الموت منها منالا، وهو الحنين الذي يرافقنا إلى حافة القبر؟ وهل يعقل أن الحياة التي لا نعرف لها بداية ولا نهاية جعلت لنا بداية ونهاية –ونحن منها وبها وفيها؟ أو أنها وفي قبضتها الآزال والآباد – قد فرضت لنا فسحة ضيقة من الزمان ندعوها العمر وحتمت علينا أن نفهمها ونفهم غايتها منا في غضون تلك الفسحة الضيقة؟ وما قولك بالذين ما فسحت لهم من الزمان غير ساعة أو يوم أو شهر أو سنة أو حفنة من

السنين؟ ثم ما قولك بالذين ركبتهم العاهات البدنية والعقلية وهم في بطون أمهاتهم؟

إن عقلي وما يرافقه ويسانده من حدس باطني يأبيان عليَّ أن أرى في الولادة بداية وفي الموت نهاية. فالعمر في عقيدتي الزمان كله- لا فسحة منه تقاس بالساعات والسنين، فالحياة لا تأبه بالتقاويم الزمانية. وأن ما ألاقيه في طريقي إلى المعرفة القصوى والحرية الكاملة من كدر وشقاء وموت ليس غير ما يترتب على دفعه ثمنا للمعرفة والحرية. وهو ثمن، مهما بدا باهظا، يظل زهيدا بالنسبة إلى الهدف. فخيري هو نتيجة استعمالي استعمالا صالحا للقوى التي سلحتني بها الحياة لمعرفة غاياتها مني وغايتي منها. وشرى هو نتيجة لسوء استعمال ذلك السلاح. ومازلت تلميذا في مدرسة الحياة فأنا مطالب بتفهم ما تلقيه عليَّ من دروس، ومن ثَمَّ بما يترتب على فهمي أو عدمه من خير لي ومن شر. وعلى أن أجعل من الاثنين درجات أرقى بها إلى حيث الحياة لا خير ولا شر. بل كينونة وديمومة تتساميان في كليهما.

كذلك هي حالي مع إرادتي ووجداني. فلو أني أحسنت استعمال إرادتي لما أردت لغيري غير ما أريده لنفسي. ولو أني أحسنت استعمال وجداني لما آذيت مخلوقا في الكون، بل لأحببت كل ما في الكون ومن فيه محبتي لنفسي.

إذ أن كل ما في الكون يساعدني على تحقيق ما أصبو إليه من معرفة

وحرية وحياة، فهو مني وفيَّ، مثلما أنا منه وفيه. وإذ ذاك فالمحبة هي طريقي إلى هدفي، ولا طريق غيرها.. وهي ضرورة لنفسي كما أن الماء والغذاء والهواء ضرورة لجسدي.

أجل.. إن الحياة هدف وطريق إلى الهدف. وأنا ما بسطت لك هدفي وطريقي –ولو باختصار– لأجعلهما هدفك وطريقك. فقد تكون ممن يعتقدون أن الحياة مجموعة قوى طائشة تتفاعل على غير ما هدى ولغير ما غاية، وقد تكون ممن يقيسون الحياة بالقيراط والثانية، أو بالفلس والدينار، أو ممن يزنونها بموازين العطارين والبقالين، فلا جدل بيني وبينك ولا عتاب، وقد تكون شريكا لي في هدفي ورفيقا لي في طريقي.. فهاك يدي، ولنسر جنبا إلى جنب، فبساط الزمان فسيح، مديد، ولا نهاية لرحمة ربك وحكمته وعدله.

***

الجزء الثاني

أقلام من الغرب

هاك كرة لتدحرجها

بقلم روبرت. ج. أولمان

أحرز «روبرت. ج. أولمان» النجاح لمكفوفي البصر في ميادين الرياضة والقانون، والتنبؤ بنتائج المباريات الرياضية، وذلك على الرغم من أنه فاقد البصر. ولقد التحق في طفولته بمدرسة أوفربروك لمكفوفى البصر في فيلادلفيا، حيث ابتدأ مزاولته لعبة المصارعة، ثم التحق بجامعة بنسلفانيا وتخرج فيها من قسم الفلسفة. ثم درس القانون، وهو اليوم يشتغل بالمحاماة في شركات التأمين.

فقدت بصري وأنا بعد في الرابعة من عمري، إذ سقطت على أم رأسي من سيارة نقل في أحد أفنية شحن البضائع بمدينة «أتلانتيك سيتي»، وأنا اليوم في الثانية والثلاثين من عمرى. ولو أن الإبصار عاد إليَّ لكان ذلك حدثا رائعا، بيد أن كارثة ما ربما قدمت للناس أيادي بيضاء، حتى ليخيل لي أن حبي للحياة ربما قل لو لم أكن أعمى. إني أومن الآن بالحياة إيمانًا عميقًا.. ولست أعتقد بأنه كان يسعني الإيمان بها على هذا النحو، لو أنني لم أكن فاقد البصر. ولست أعنى بذلك أنني أجحد نعمة البصر، وإنما أعنى أن فقداني لها جعلني أجل قدر ما تبقى لي

من نعم في الحياة.

أعتقد أن الحياة تطالبنا دائما بتكييف آرائنا بحيث تنسجم مع الواقع. وكلما كان الشخص أكثر تأهبًا لهذا التكييف، أصبح عالمه الخاص منطويا على أهمية عظمى، وليس تعديل الآراء سهلا أبدا.. لقد اهتدى والداي وأساتذتي إلى شيء فيَّ – يسعك أن تسميه طاقة الطموح في الحياة – لم أستطع أنا رؤيته، فجعلوني أرغب في الكفاح ضد ظلام البصر.

وكان أشق درس وجب عليَّ تعلمه هو أن أومن بنفسي. كان هذا درسا جوهريًا، ولم يكن في مقدوري أن أصنع ذلك بل كان محتملا أن أنهار وأصبح قعيد كرسي متحرك أمام باب البيت طوال ما تبقى لي من العمر. وإني عندما أتحدث عن الإيمان بنفسي، فلست أتحدث عن مجرد ذلك النوع من الثقة بالنفس التي تعينني على البقاء وحدى في ردهة غريبة عنى. فهذا جزء من ذلك الإيمان. وإنما أعنى شيئا أعظم من ذلك: هو اليقين بأنني، على الرغم من مظاهر عجزي، امرؤ إيجابي وأنه في هذا الخضم المتلاطم المتشابك من البشر، يوجد مكان خاص بي أستطيع أن أشغله بجدارة.

ولقد اقتضاني اكتشاف هذه الثقة وتعزيزها سنوات كثيرة. وكان يجب أن يبدأ الأمر بأبسط الأشياء. حدث ذات مرة أن ناولني رجل إحدى كرات لعبة «البيسبول»، وحسبته يسخر مني وأحسست بالإهانة، فقلت: «إنني لا أستطيع استعمالها» فاستحثني قائلاً: «خذها معك ودحرجها أمامك» فتثبتت الكلمات في رأسي «دحرجها أمامك».

وبدحرجة الكرة استطعت أن أسمع أين ذهبت. وهذا الفعل ولَّد عندي فكرة قوامها أن أحقق هدفا خلته مستحيلا. ذلك الهدف هو أن ألعب «البيسبول». وفي مدرسة أوفر بروك لمكفوفي البصر في فيلادلفيا ابتكرت طريقة جديدة ناجحة للعبة «البيسبول» أطلقت عليها اسم الكرة الأرضية.

وطوال حياتي، وضعت أمامي طائفة من الأهداف، ثم حاولت أن أبلغها.. كل واحد منها في وقت معين. وكان عليَّ أن أعرف نواحي النقص عندي. ولم يكن من الخير أن أحاول شيئا كنت أعلم من مبدأ الأمر أنه بعيد بعدا شاسعا عن متناولي؛ لأن ذلك من شأنه أن يسبب المرارة والحسرة لدى الإخفاق والفشل. ومهما يكن من أمر فقد أخفقت في أشياء، ولكنني أحرزت – على العموم – تقدما.

وأعتقد أنني حققت التقدم بسرعة، نتيجة لنظام من الحياة هيأته قيما معينة. وإني لأجد من الأيسر أن أعيش مع نفسى إذا حاولت أن أكون أمينا. وأجد القوة في صداقة الناس ومعاونتهم، ولولا أصدقائي الذين يعينونني بأبصارهم لكنت أعمى حقا. وبكل تواضع أقول إنني وجدت الراحة والهدوء في طموح الإنسان الفاني ومحاولته الارتفاع والتسامي صوب الألوهية. وربما كان الرجل المسلوب البصر أقل عمى عن أهمية الأشياء المادية من المبصرين. كل ما أعرفه هو أن إيمانا بوجود غاية أسمى للبشر يكافحون في سبيل بلوغها كان وحيا أعانني، أكثر من أي شيء آخر، على صيانة حياتي وتماسكها.

درس تعلمته في منتصف الليل

بقلم جيمس كي دي بونت

التحق مستر «دي بونت» بشركة دي بونت منذ عام ١٩٤٠، وهو رجل نحيل عاطفي، تنبئك ابتسامته عن فهم وتقدير دقيق لمسائل الحياة. كان قد نيط به الاشتغال بأعمال الإنشاء والهندسة في مصنع بمدينة «كلنتون» بولاية «إيووا» بالإضافة إلى انتدابه مع من ندبوا لمشروع الطاقة الذرية في جامعة شيكاغو «واوك ريدج» في تنيسي. وهو متزوج ويعيش الآن مع زوجته وأربعة أولاد على مقربة من تلك البقعة القديمة حيث أقام جده شركة «دبونت» في عام ١٨٠٢.

أصبحت منذ منتصف ليلة من الليالي في عام ١٩٠٩، وهي الليلة التي استمعت فيها لصراخ أمي، ألتمس السبيل إلى المعتقدات وأستعين بها على متاعب هذه الحياة وضيقها، وقد كان صوت والدى، وهو يحاول تهدئة أمي، صوتا خافتا حزينا. وحين اشتد بهما الجزع نسيا أنهما على مقربة من مضجعي.. ولكنى سمعتهما وكنت يومئذ في السابعة من العمر. ومع أن المشكلة التي أثارتها حينئذ، قد حلت منذ بعيد وأصبحت نسيا منسيا، فإن ما انكشف فيَّ في تلك الليلة لم يزل حقيقة ماثلة أمام عيني.. تلك هي أن الحياة ليست كلها حبا وأزهارا، ولكنها

في الغالب تصطبغ بالقسوة والمرارة التي يشعر بها معظمنا. إن لنا جميعا مناصبا، وإن اختلفت في طبيعتها.. هذا ما بدا لى أن أتعلمه وقتئذ، بل تلك هي العقيدة الأولى التي تعلمتها.

وفي رأيي أن الجنس البشري قوى الشكيمة شديد البأس، من الصعب أن يتطرق إليه اليأس. ولو كان الأمر غير هذا لما عرفت في قاموس البشرية منذ الأزل كلمات: «الضحك» و«الغناء» و«الموسيقى» و«الرقص» وما إليها. لقد أوحى إلَيَّ هذا الرأي أن أفخر بنفسي كإنسان. وفى رأيي أن نسيج كل إنسان منا ينطوي على الخير والشر. تلك هي الحقيقة التي لم أستطع تبيانها على الصورة القوية الفياضة التي جاءت في عبارة «تماس مان» إذ تحدث عن «الثنائية الشديدة التطرف» بين العقل والبهيمية في الإنسان وتلك هي الظاهرة التي نشترك فيها جميعًا.

وهذا الاعتقاد يشد من أزرى.. لأنى كلما تذكرت قوى الشر التي تسيطر على تصرفاتي دائمًا، وتذكرت في الوقت نفسه ذلك القبس من النور المقدس الذي يضيء جوانب نفسى، تضاءلت أمام عيني في ختام كل يوم تلك المقاييس التي أقيس بها أخطائي وأسباب ضعفي. وتفصيل ذلك أن «حذرك من الشر إن هو إلا كسب لنصف المعركة ضده».

أني أؤمن بالسعي في سبيل الخير، ومحاولة فهم الناس والصفح عنهم.. خصوصا إذا حاول الإنسان أن يتسامح مع الأذكياء والحساسين من الناس. إن الإنسان قد يكون عبقريا، ولكنه قد يأتي من

الأشياء ما يحطم قلبك تحطيما.

أعتقد أن معظم أفكارنا النبيلة السامية -إن لم تكن كلها- نافعة ومفيدة، وأن كثيرًا من أروع أعمالنا يجب أن يبقى سرا لا نبوح به، أو أن يبقى كذلك على الأقل حتى مماتنا. ولطالما سبب لي هذا شيئا من الارتباك ولكنى أدرك الآن أن تلك الأعمال المجيدة التي نعملها ولا نستطيع أن نتكلم عنها، إن هي إلا قبس خفى من حياة مستقبلية خير من هذه الحياة.

وأعتقد أنه لا مفر لنا من التزام تلك القاعدة التي تحتم علينا القيام بسلسلة أعمال ضئيلة، لأنها الطريق إلى تحقيق أمر واحد عظيم.. تلك هي القاعدة التي توحى إلينا بالصبر، حينما تشتد حاجتنا إليه.

وهنا أجدني أقوى على تحمل مسئولية أعمالي، أو بتعبير أدق، أستطيع أن أكون أمينا مع نفسى. وقد يكون هذا مستحيلا أو شبه مستحيل أحيانا، ولكنني على ثقة من إني أحاوله دائمًا.

وأخيرا -بل أهم من هذا كله- إيمانى بالله.. إني مؤمن بوجود إله حكيم قادر على كل شيء هو الذى خلق هذا العالم، وهو الذى يسيره على النحو الذى نعرفه نحن البشر. هذا الكون بما فيه من نجوم مضيئة، وسدم، وأقمار، وكواكب، ونساء جميلات، وأشجار، ولآلئ وعشب أخضر، وبما يجيش في صدور أبنائه من آمال في السلم، ودعاء لله أن يحققه.

***

لست ألعب للنظارة

بقلم روبرت دوير

كان والد «روبرت بوبى دوير» من لاعبى كرة السلة، وقد اشترى له أول زوج من هذه الكرة حين كان في العاشرة من عمره. وما إن مضى على ذلك ست سنوات حتى كان «بوبى» يساهم في هذه اللعبة بوصفه الظهير الثانى لإحدى فرق ساحل الباسفيك. وما لبث أن أصبح من كبار اللاعبين المحترفين، وقد تفوق على تسع فرق من الفرق العالمية والآن وقد اعتزل اللعب عقب خمسة عشر موسما رياضيا من مواسم كرة السلة، فإنه يعيش مع زوجته من إيراد مزرعة تبلغ مساحتها نحو مائة وستين فدانًا على مقربة من أجنس في ولاية أوريغون.

يبدو لي أن معتقدات المرء -كيفما كانت- تتوقف على الطريقة التي يسلكها في حياته.. لقد أمضيت شطرا طويلا من حياتي كلاعب محترف لكرة السلة وطبيعي أن تكون هذه اللعبة التي أعيش منها أمرا يهمني في حياتي الشخصية. لقد علمتني هذه اللعبة أشياء كثيرة عن الحياة.. جعلتني أشعر بقسط كبير من السعادة، بل أرجو أن تكون قد خلقت فيَّ شخصية أقوى. تعلمت أنه لو أتيح لي استخلاص الكرة من قبضة الفريق الآخر لكان في ذلك مدعاة لسعادتي أكثر مما لو قمت بحركة من

الحركات المظهرية التي لن تجدى نفعا إلا اغتباط النظارة. وتلك هي نفس الفكرة التي أرى جدواها في الميادين الأخرى من الحياة غير كرة السلة.. وتفصيل ذلك أن ما أقدمه من خدمة لجار أو لصديق أو قريب، تكون أمتع لنفسي من عمل يقتصر عليَّ وحدى حتى ليخيل إلَيَّ أن كل فرد إن هو إلا زميل لي في حلبة كرة السلة في هذه الحياة الدنيا كلها.. وأن خير الأشياء هو ما قربني للناس، وأن شرها هو ما باعد بيني وبينهم.

وثمة عقيدة أخرى آمنت بها، تلك هي أن الأعمال التي أجيدها هي المقياس الذي أقيس به نفسي.. فإذا لم أستطع إتقان شيء كان اسمى وسمعتي هباء، ولقد فكرت في ذلك في ربيع عام ١٩٥١ حين قلت لفرقتي إني لن ألعب في عام ١٩٥٢. ولم أنته إلى هذا القرار إلا حين تأكدت من عجزي عن القيام بدور مهم يرضى هؤلاء الذين يدفعون لي راتبًا في مقابل رؤيتي وأنا أخترق الحواجز.

ولست أدرى كيف يطيب للإنسان أن ينعم بنجاح أو بشهرة لا تكون ثمنا لمجهود، وإنما الذى أعرفه هو إني ما استسغت مديحا أو ثناء إلا وكان مرده إلى شعوري بما بذلت من جهد حقيقي أستحق عليه الثناء. وطالما تحدث زملائي في الفرقة عن الحظ، يعزون إليه نتائج النجاح والإخفاق في الملعب وخارج الملعب، حتى لقد يحمل بعضهم كعب أرنب أو أداة من أدوات السحر الجالبة لحسن الحظ، أو يلجأ إلى شيء من التعاويذ أو مراسيم الشعوذة يهيمن بها على سير المقادير تبعا لما

يرضاه. والحق إني لم أستطع الانسجام مع نفر كهؤلاء، بل طالما شعرت أن ما يصيبني من حسنة أو سيئة مرده إلى أمر أعمق وأهم مما يبدو في الظاهر. ويخيل إليَّ أن الكثير مما يتحدث به الناس عن حسن الحظ إن هو إلا توفيق من عند الله، ولست أستطيع أن أتصور إلها سامى الحكمة سامى القدرة لا يبالى بما أقوم به من أعمال في حياتي. وإيماني بهذا هو الذى يصرفني إلى القيام بتلك الأعمال التي أستحق من أجلها رضاء ربى وما يسبغه عليّ من نعماء.

وقد يكون هذا هو أهم شيء في الحياة كلها.. وأقصد به فعل الخير لتكون أهلا للخير. لقد صادفت في حياتي الخاصة عددا من الأعاجيب والخوارق، ولى تاريخ حافل مجيد في لعب كرة السلة، جوزيت عليه أحسن الجزاء وقوبلت من أجله بالكثير من آيات التقدير والترحيب.. كنت أحب زملائي في الفرقة حبا جما، ولكن الذى يعنيني في هذا كله هو إني عرفت أفضل قوم يطمع إنسان في معرفتهم. ولعل من أعظم ألوان المتاع التي استمتعت بها كان بذل قصارى الجهد.. فكثيرا ما أقوم بأعمال ابتغاء إدخال السرور على نفس أبي وزوجتي وابنى، إذ أجد في ذلك السبيل إلى مكافأتهم على ما لقيت منهم من تشجيع وخدمات.

ولعل خير وسيلة للتعبير عن هذا كله، هو اغتباطي بتلك الدائرة التي تحيط بي.. وبودى لو يغتبط الناس بمثل هذا أيضًا.

* * *

إني سعيد بوقتي..

بقلم بات فرانك

بات فرانك من أهل شيكاغو، ولكنه لم يترك جزءا من أجزاء هذا العالم إلا كتب عنه... لقد بدأ حياته مراسلا للصحف في فلوريدا، ثم اشتغل مديرا لمكتب واشنطن في وكالة أبناء ما وراء البحار، ثم كان مساعدا لمكتب العمليات في جنوب المحيط الهادي، ثم اشتغل مراسلا حربيا في الجبهة الإيطالية ثم في الشرق الأوسط وأوروبا الوسطى وقد صاغ ذكرياته عن الحرب وأيامها، في ثلاث روايات. وهو الآن في الخامسة والأربعين من العمر، يوجه كامل نشاطه إلى كتابة القصص، ويعمل في داره تحيط به الكتب والآلة الكاتبة ومطفأة السجاير وخريطة العالم.

حدث في عام ١٩٤٥ أن تتبعت جيوشنا أبان اندفاعها الأخير في جنوب إيطاليا.. ثم طرت إلى برلين لحضور مؤتمر بوتسدام. وكان مراسلو الصحف الأمريكيون قد أسكنوا في ضاحية «زهلندورف»، فأسكنت في منزل من نوع المنازل التي تسكنها الطبقة الوسطى في شارع محفوف بالظلال. وكان يسكن معي في هذا المنزل أيد مرو. ولم يكن يقيم في هذا المنزل من الأمريكيين غيرنا نحن الاثنين.

وكان الروس قد احتلوا زهلندورف قبل الأمريكيين، فأخذوا ما في المنزل من أغطية الفراش والبطاطين. ولكن كانت لدينا أغطية خاصة. وكان يملك المنزل زوج وزوجته تقدمت بهما السن. وكانا يسكنان في الجراج. وقد خاف الرجل وزوجته منا في أول الأمر، فقد قيل لهما إن الأمريكيين من البرابرة، وأننا سنأتي على كل ما في المنزل ونأخذ منه ما خلفه الروس.

ولكنا طلبنا منهما أن يعودا للسكنى في منزلهما.. وبما أنا تعودنا السفر الطويل أنا وصاحبي مرو، فقد كان لا بد لنا أن نحمل معنا الأشياء المهمة التي لم يكن للمراسلين في هذه الأيام قدرة على الاستغناء عنها.. مثل اللحم المحفوظ واللبن والصابون والشاي ومواد التموين الأخرى والزبد. ولقد أعطينا هذا كله للزوجين الهرمين، وطلبنا إليهما أن يدبرا شئون المنزل ويأخذا لنفسيهما ما أرادا.. فما كان منهما إلا أن شكرانا على هذا شكرا مضطربا حزينا يبعث على الأسى.

وفي اليوم التالي، وجدنا أزهارا في غرفتنا، فأدركت أننا أصبحنا وهذان الزوجان أصدقاء.. فوجود آنية من الزهر في هذا الوقت الذي كانت فيه برلين مسرحا للموت والدمار تنبعث منها رائحة الجثث، أمر يثير الدهشة.

لقد أتيحت لي فرصة الاجتماع بشعوب الدول الثلاث التي ناصبتنا العداء في الحرب العالمية الأخيرة: الألمان، والإيطاليين، واليابانيين. ولقد كنت أعتقد على الدوام أن عناصر الجنس البشري كلها واحدة لا تختلف

في جوهرها عن بعض. وفي اعتقادى أن الدليل على صدق كلامي هذا، هو ما اتضح الآن من أنهم أصبحوا حلفاء لنا. فمنهم الحليف الفعلي، ومنهم من هو على استعداد للانضمام إلينا. وأنه لمن الأسس الثابتة أن العطف يورث العطف، والبغضاء تورث البغضاء.

لقد شهد جيلنا مأساة الدم في حربين عالميين، وربما قدر له أن يشاهد المأساة الدموية الثالثة التي تتضاءل أمامها أهوال الحربين الماضيتين. ولكنى لو خيرت لما اخترت أن أعيش في وقت غير هذا، أجد فيه مثل هذا العوض الضئيل من أزهار تقدم بروح الصداقة، وأعمال توحى بالأمل كميلاد هيئة الأمم المتحدة.

وإذا كنت أعيش في وقت مليء بالمتاعب، فإني أدرك أيضًا إني أعيش في وقت تتاح فيه أعظم الفرص.. فلقد أتيح لي بوصفي مراسلا وكاتبا، أن أشهد التاريخ يكتب وأن أرى تلك الحوادث التي تقرر بقاء المدنية أو زوالها. لقد تبينت المرة بعد المرة أهمية الخلق الفردي وقيمته في تكييف مستقبل أبنائنا، وهل يحق لهم أن يعيشوا ويفخروا بنا. وإني لعلى بينة من إني لن أستطيع الهرب من مسئوليتي التي تلزمني تطبيق ما تعلمت من دروس، ذلك أن عليّ –رغم أخطائي وأسباب ضعفي– واجبا نحو نفسي، ونحو هذا العالم الذى أعيش فيه.

ولعلى لن أتبين ما لهذا الواجب من أهمية على وجه التحقيق، ولكن يجب على أن أعيش بالطريقة التي ترضيني، بحيث لا أخجل أبدا في كيفية أدائي لهذا الواجب.

النصر للإيمان

بقلم هربرت هوفر

ولد هربرت هوفر فقيرا في براتشي الغربية من أعمال «إيوا» وقد التحق بجامعة ستانفورد، فتخرج منها مهندسا في التعدين وذهب بعد ذلك إلى أستراليا موفدا من شركة بريطانية للمساهمة في بعض الأعمال الهندسية في تلك البلاد، ولما عاد تزوج من زميلة تخرجت معه. وحين نشبت الحرب العالمية الأولى، التحق بوظيفة خطيرة في لجنة الإنقاذ البحرية البلجيكية وعين بعد ذلك وزيرا للتجارة، ثم رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٢٩.

كان تخصصي في العلوم الهندسية وهي دراسات تهدف إلى الاهتداء للحقيقة، وتطبيقها بما يعود على البشرية بالفائدة. ومنذ أخذ العلم يتقدم، تعرضنا لسلسلة هجمات من جانب جماعة من الملحدين واللاإراديين، ذهبت إلى أن ثمة صراعا بين العلم والدين لن يهدأ له بال حتى يقضي على الدين.. ولكنى لم أومن بهذا، فأنا لا أرى أن العقيدة الدينية هي التي كتب لها النصر فحسب، ولكنى أعتقد في نفس الوقت أن انتصارها أمر حيوي للبشر. إننا قد نختلف من حيث أسس العقيدة الدينية وتفاصيلها الظاهرة -وتلك مسائل يراها كل منا في أعماق نفسه

مقدسة، ومن حقنا أن نرفض النقاش فيها– ولكن ثمة أساسا واحدا تقوم عليه كل العقائد الدينية..

وتفصيل ذلك أن اكتشافاتنا العلمية قد أثبتت أن الكون يخضع لقوانين علمية صارمة، تتحكم في مسالك النجوم كما تتحكم في تركيب الذرة، ولا بد من وجود قوة عليا قاهرة هي الخالقة لهذه القوانين. وجاء حين من الدهر تميز فيه الإنسان عن الحيوان، فدبت فيه الروح وانبثق معها الضمير كما انبثقت منها المثالية الأخلاقية والروحانية الظامئة، وأنه لمن المستحيل أن ننكر كله لن يكون إلا عن طريق الإيمان الديني.

وإنك لتجد أن الآباء الأول استنادا إلى عقيدتهم الدينية قد حددوا تحديا تاما ذلك القانون الأساسي الذى انتظم التقدم البشرى منذ القدم.. حددوه بقولهم أن الخالق أسبغ على الإنسان سلسلة من الحقوق لا عدوان عليها، وهي حقوق يجب أن يحميها القانون والعدالة من أي اعتداء.

ولقد ذهب فلاسفة الإلحاد والتشكك إلى المناداة بأن التقدم إنما يقوم على أسس مادية بحتة، ولكن من أين أتت الأخلاق، وأتى هذا النزوع الروحي، والإيمان، وآمال الإنسانية في العدالة والحرية الفكرية.. وهي الأسس التي يقوم عليها تقدمنا؟

الحق أن كل المجتمعات التقدمية النامية تسجل إيمانها بالله، في حين أن المجتمعات التي دب فيها الضعف يعوزها هذا الإيمان وتكفر بالله.

***

العاطفة الإنسانية تربط بين البشر

بقلم لويس هوسكينز

لويس هوسكينز هو رئيس الهيئة التنفيذية لجماعة تحمل جائزة نوبل، لقاء ما قدمت من خدمات لقضية السلم العالمي. وقد ولد في بلدة متواضعة بسيطة بولاية أوريغون، واكتسب خبرة بشئون العالم من تجواله في ربوعه، وهو يحمل لقب الأستاذية والدكتوراة في التاريخ. وكان في فترة من الفترات أستاذا للتاريخ وعميدا لكلية باسيفيك، واشتغل بالتدريس بعض الوقت في الصين. وفي الفترة بين عامي ١٩٤٥ و١٩٤٨ كان يعمل مع وحدة من وحدات الكويكر في الصين، وكان مديرا لأحد المستشفيات في مقاطعة هونان وقد أشرف على إعداد الكثير من مشروعات الترفيه...

كان عسيرا على رجال وحدة «الكويكر» التابعة لنا أن يواصلوا خدماتهم الطبية إبان حرب العصابات العامة الأهلية في الصين، وكان ذلك بسبب ما واجهنا من عقبات، في وقت كانت فيه الحاجة ماسة إلى هذه الخدمات الطبية. وقد كانت لهذه الوحدة قيمتها عند الطرفين المتحاربين، ولكن مصيرها في الواقع كان مرتبطًا بمصير المعركة.. مثال

ذلك أن أحد مستشفيات الكويكر كان يخضع لهذا الجيش مرة وللجيش الآخر مرة أخرى حتى لقد حدث ذلك ست مرات في عشرة أيام.. ولكن المستشفى مع ذلك، ظل يقوم بمهمته خير قيام. ولما كان من الضروري لنا أن نثبت شخصيتنا لكل من الفريقين المتحاربين، فقد تحتم علينا المرور عبر الأراضي المحايدة. وفي هذه الحالة كنا إذا استطعنا، في لباقة، أن نفلت من أحد الجيشين، اضطررنا إلى الاتصال بالجيش الآخر في المنطقة الأخرى برغم ما يكشف ذلك من صعوبة ومشقة.

وإني لأذكر مغامرة من هذا النوع، كان يتعين علينا فيها مفاوضة السلطات الشيوعية لتوفير أسباب العلاج لتلك المنطقة التي تدور فيها رحى الحرب. وهنا وصلنا إلى منطقة متنازع عليها، وإذا بجندي شيوعي واحد يقبض عليَّ وعلى عضو صيني معي في الوحدة. لقد كان هذا الجندي صبيا لم يتجاوز الرابعة عشرة في الغالب، وكان يبدو شبحا مذعورا.. وكنت حينئذ على بينة من الفوارق التي تفصل بيننا، وهى فوارق القومية والجنس واللغة. ولا شك أنها فوارق طبيعية، تضاف إليها فوارق أخرى غير طبيعية هي وليدة الظرف القائم أو وليدة الدعاية، وأقصد بها الخوف والريبة والكراهية. لقد كنت أنا هناك ممثلا لهذه الدولة التي أقنعته الدعاية بأنها عدو وطنه. ومع إني لم أكن مسلحا في ذلك الوقت إلا إني كنت عرضة للاتهام بالخديعة والوقيعة.

طال الحديث بيننا برهة من الزمن، وأخيرا سمح الجندي الشيوعي لزميلي أن يعود إلى إخواننا أعضاء هيئة المفاوضات، ولكنه قبض على وحدى

كأسير. ومرت بيني وبين هذا الجندي الصيني فترة عشرين دقيقة، وهو هائج شاكي السلاح، حاولت في أثنائها الاستيلاء على عواطفه وإقناعه بكل ما أوتيت من صراحة.

لقد حاولت أن أنفذ إلى أعماق روحه الطيبة الخيرة.. متوسلا بسلطان المودة والصداقة. وبينما أنا أتحدث إليه في حالة جزع بالغ باللغة الصينية، حديثا تناول شتى الموضوعات اليومية، مستهدفا إقناعه بحسن نيتي ورغبتي في مساعدة شعبه، إذا بي أوفق إلى طريقة استطعت بها تحطيم الحواجز القائمة فيما بيننا واستدرار عواطفه الطبيعية وروحه الإنسانية. وبيان ذلك أنني أطلعته على صورة ابنتي الطفلة واستدرجته من ذلك إلى السؤال عن عائلته، فقال أن له أختا طفلة في منزله وأخا أكبر منه يعمل كذلك جنديا في الجيش، وهنا، وعلى غير قصد منه فيما أعتقد، تخلى عن بندقيته. وسرعان ما أفهمته بلغته الصينية الركيكة مهمة الوحدة الطبية لجماعة الكويكر ولماذا جاءت إلى هذه البقاع يحدوها الأمل في أن تنشئ عرى الصداقة بينها وبين هذا الشعب، بما تقوم به من خدمات فنية. وهنا تلاشى من نفسه ما حملته إليها الدعاية من ريبة وبغضاء، واستطعت من هذه اللحظة أن أسيطر على العنصر الإنساني فيه، وأن أثير في جانبه الروحاني الاستجابة الكاملة لعواطفي نحوه، وحين وصلت بقية أعضاء وحدة الكويكر، وافق الجندي الصيني على أن يقودنا إلى المركز الرئيس، حتى نستطيع القيام بما أوفدنا لإنجازه من مفاوضات، وأنا إنما أورد لك هذه القصة تبيانا لما أومن به من ثقة في الله، ومن وجود صلة خفية تربط بين البشر جميعا.. تلك الصلة التي لا بد منها لتحقيق السلم والتفاهم.

الأمانة أساس للنجاح

بقلم جون هيوز

ولد جون هيوز في مزرعة جميلة في مقاطعة تونا جهامفي أيرلندا، وقد أصبح يتيما في الثانية من عمره، وقدم إلى الولايات المتحدة وهو شاب.. ثم انخرط في سلك الجندية، وخدم في الحرب العالمية الأولى وسرح مكرما في عام ١٩١٨. وهو رجل ضئيل الجسم، ولكن ممارسته للرياضة أبان شبابه قد أسبغت عليه الصحة والقوة. وهو يعمل الآن سائقا لإحدى سيارات الأجرة.

في اعتقادى أن الأمانة من خير ما وهبه الإنسان.. أنهم يطلقون عليها في هذه الأيام أسماء خيالية كالاستقامة والعدالة ونحوهما، ولكن للناس أن يطلقوا عليها ما شاءوا من الأسماء ولى أنا حق الاعتقاد في أن «الأمانة» هي الكفيلة بأن تخلق المواطن الصالح.. ذلك هو دستوري الشخصي الذى أتقيد به في حياتي.

لقد ظللت سائقا لسيارة أجرة مدة خمسة وثلاثين عاما، وأعرف ما يكتنف هذا النوع من العمل من سيئات ومتاعب كثيرة. إن سائق السيارة لابد أن يكون على شيء كثير من الخشونة والصلابة، وأن يكون قادرا على ضوضاء المرور وقسوتها في المدن الكبرى ثمانى ساعات في كل

يوم على الأقل، ومن هنا كان اعتقاد الناس في رداءة هذه الطبقة اعتقادا خاطئا ظالما؛ لأن سائقي سيارات الأجرة ليسوا إلا بشرا كسائر البشر، بل إن أغلبهم قوم أمناء شرفاء. أنك تقرأ في الصحف كل أسبوع عن أموال أو ودائع عثر عليها في السيارات ثم ردها السائقون إلى أصحابها. فلو لم يكن سائق الأجرة أمينا، لما قام برد ما عثر عليه في سيارته من مال أو متاع.

وحدث ذات مرة في بروكلين أن عثرت على خاتم من الزمرد في سيارتي، وأذكر في ذلك اليوم إني كنت قد حملت في عربتي سيدة معها عدد كبير من اللفائف، وكان عليَّ أن أرد لها هذا الخاتم فتتبعتها، وكلفني اقتفاء أثرها مجهود يومين حتى عثرت عليها. ولم ألق على ذلك شكرا، ولكنى كنت بعملي هذا أسعد حالا منها.

لقد ولدت ونشأت في أيرلندا، وعشت فيها حتى بلغت سن التاسعة عشرة.. وجئت إلى هذه البلاد في عام ١٩١٣ حيث زاولت أعمالا كثيرة مقابل عدد ضئيل من الدولارات في اليوم، قبل أن أتطوع للخدمة في الحرب العالمية الأولى. وما أن انتهيت منها حتى اشتريت لي سيارة، وقد ظللت منذ ذلك الوقت أمتلك لنفسي سيارة. ولم يكن هذا العلم سهلا في بعض الأحيان، ولكن زوجتي كانت تدبر شئوني المادية، فادخرت منه ما يلزمنا في أوقات الأزمات.

ولم تصادفني إبان السنين الطوال التي عملت فيها سائقا، أية

متاعب من جانب الجمهور، ولست أستثنى من ذلك مدمني الخمر؛ ذلك لأني حرصت على أن أكون رقيقا حليما هادئ الأعصاب، حتى مع المتعنتين. وطالما سألني الناس عما يجود به الركاب من «بقشيش» يضاف إلى الأجرة فأقول أن الذى أعرفه في هذا الصدد هو أن كل راكب تقريبا يعطيك شيئا، ذلك أن معظم الأمريكيين على شيء من الكرم، وأنا أحاول على الدوام أن أكون رقيقا في معاملة كل إنسان سواء أعطاني هذه الهبة أو لم يعطني إياها. وأنا شديد الإيمان بالله وأحاول دائما أن أكون عضوا صالحا في المجتمع، وأعامل الناس بما يرضى الله، معاملة طيبة. وقد دابت على ذلك منذ زمن الطويل، ولذلك أجد الحياة كلما تقدم بي العمر، تزداد سهولة ويسرا.

***

الإيمان خير زاد

بقلم جيريد انجرسول

تخرج جيريد انجرسول في برنستون، وهو من موظفي السكة الحديدية الناجحين في عملهم، وهو يرأس شبكة من الطرق الحديدية في الجنوب الغربي، وعضو في إدارة سكة حديد بنسلفانيا وهو في نفس الوقت مدير اتحاد صناعة الفولاذ في الولايات المتحدة وشركة الزيت الأطلنطي، وشركة التأمين في أمريكا الشمالية واتحاد دودج.

أشعر بمزيج من الجرأة والاضطراب، حين أحاول أن أفصح علانية عن الأشياء التي أومن بها.. ولكنني أعتقد في نفس الوقت أن المشاكل الإنسانية تقوم على شيء من الارتباط أو التشابك فيما بينها، ولو بدأ للناس أن يقارنوا تجاربهم بعضها ببعض، فلربما تمخضت هذه المقارن عن عناصر مشتركة بين هذه المشاكل، تيسر الطريق لحلها جميعا.

أنا رجل سعيد الحظ؛ لأنني أحيا حياة كاملة سعيدة فيما أعتقد. نعم، أقول ذلك برغم أنه قد مرت بي في حياتي صدمتان قاسيتان. لقد سقطت زوجتي الأولى من قمة جبل، ذات يوم كنا نمارس فيه رياضة الانزلاق على الجليد، فماتت.. وكان ذلك بعد ثمانية عشر عاما من حياة زوجية سعيدة، أضف إلى ذلك أن ابنى الوحيد المهندس في سلاح

الصيانة قتل في إيطاليا إبان الحرب الماضية.. ومع ذلك فلم يكن من شأن هاتين الفاجعتين أن تفقداني صوابي، فاستطعت أن أدخل السعادة على نفسى من جديد. ولكنى لا أريد أن يفسر هذا بأنى إنسان جامد العاطفة.. إذ الواقع أن هاتين الكارثتين قد أثقلتا كاهلي، ولكن عاملين أساسيين ساعداني على الاحتمال فيما أعتقد، أولهما إني أصبحت أنظر إلى الحياة على أنها نوع من المغامرة، وثانيهما الإيمان بالدار الآخرة.

واستنادا إلى هذين العاملين، أحاول جهد الطاقة أن أحيا حياة كاملة.. حتى إذا ما ساء حظى لم يكن ثمة مبرر للأسف أو اتهام الظروف بأنها المسئولة عما أسرفت فيه أو أضعت من وقت، أما عن عقيدتى في الدار الآخرة، فتلك فكرة قلما استطعت أن أتبينها بشكل ملموس.. ولكنها بلغت منى مبلغ الإيمان العميق الذى يسيطر على عواطف رجل من غير رجال الدين. تلك هي فكرة الإيمان بالله التي لو بدا لى أن أصفها أو أن أدافع عنها استنادا إلى المنطق الجامد، لأعيتني الحيلة. ولكن من العسير عليَّ أي إنسان أن يحملني على العدول عنها.

لقد أصبحت الآن أعتقد إني مدين للحياة بقدر ما هي مدينة لى، ولعل هذا يفسر ما أشعر به من غبطة حين أحاول القيام بما يعهد إلىّ من عمل على خير وجه أستطيعه وحين أمد يد المعونة لغيرى من الناس.

وكنت إبان طفولتي مكلفا بتمهيد الأرض في الحقول، وقد هالني وقتئذ أن على تنظيف هذه الحقول تنظيفا كاملا. ولكنى اكتشفت في

غمرة العمل أن الجهد المضنى والمسئولية ينطويان على متعة حقيقية، كما أن القيام بالواجب ليس من قبيل الكدح المضنى.

ولست أعرف السبب الذى من أجله أحب خدمة الناس. ولست أقصد بهذا تحمل التبعات العائلية أو العمل في المستشفيات المتنقلة أو المنظمات الدينية فحسب، ولكن تستهويني أيضًا أقل الأعمال قيمة.. تلك الأعمال التي قد لا تكون خليقة بما يبذل فيها من وقت. ويقع مكتبي في ميدان كبير، ولذلك تتاح لي الفرصة من حين إلى حين أن أرشد سائحًا أو أزوده بشيء من تاريخ البلاد، وهذه الخدمات -على تفاهتها- تعود على من يلتزمها بالخير الكثير. لقد عادت على أنا نفسى بأعظم خير، بل بأكثر مما أستحق بلا شك.

***

البشرية لم تزل في المهد

بقلم لويد جوردان

يعمل لويد جوردان الآن طيارا في خطوط الملاحة الجوية في الشرق. وقد كان قائد فرقة من فرق قاذفات القنابل التي عملت في الحرب العالمية الثانية. فحصل على أعظم الأوسمة وتزوج بمن أحبها في صباه. ويعيش هو وزوجته وأولاده الثلاثة في جزيرة رائعة على ساحل فلوريدا في وسط مزرعة قديمة من مزارع جوز الهند. وهو من هواة الألعاب الرياضية.. يعشق الجولف والتجديف وصيد السمك بالحراب.

حدث ذات مرة —حين كنت أحلق بإحدى قاذفات القنابل في سماء أوربا– أن آمنت بأبدية البشر. ولم تكن تلك اللمحة وليدة هزة عاطفية من نسيج الخيال المسرف. وإنما تمخضت تلك العقلية التي أرهقتها ويلات الحرب الذرية بألوان من المرارة لا حد لها، عن حقيقة واحدة، هي أنك «ستعرف الحقيقة وستتحرر نفسك بهذه المعرفة». كنت أطير وقتئذ فوق جبال الألب، ومرت في مخيلتي ذكرى هانيبال وهو يعبر هذه الجبال.

مرت أمامي مرور السحاب تستتبعها صور من تاريخ الحروب

البشرية كلها. نظرت من حولي إلى الجهاز الذى يقذف القنابل وإلى ما أحدثته القنابل من أثر في معالم الأرض التي أطير فوقها.. فتذكرت على الفور أن هذه الحرب إن هي إلا واحدة من آلاف الحروب التي كتب على البشر أن يخوضوا غمارها، وهى مع ذلك لم تعقهم عن التقدم. فأيقنت حينئذ أن الإنسان مثله كمثل الشمس المتقدة، والسماء العطوف، والأرض وما عليها من آيات الله.. قد كتب له الخلود. وجعلتني تلك الحرارة التي سرت إلى هذا الوادي الدامي، مقترنة بهذا الوحى المقدس، أوقن آخر الأمر إني هنا أجد السبيل إلى لون من ألوان السعادة التي كان من العسير عليَّ أن أجدها. فانظر كيف أن الحياة الموحشة التي كان كل يوم فيها يعتبر ميلادا جديدا، قد لا يأتي عليه الغد، تستحيل إلى أمل جديد في حياة مستقبلة. وتلك حقيقة إذا ما نبتت في تفكير الإنسان لابد أن تخلق له دنيا أخرى يستطيع الحياة فيها. على أن هذا الوحى الذى شعرت به أخيرا، لابد وأن يدركه أولادي عن طريق غير طريق المصادفة؛ لأنى طالما علمتهم ما كتب للإنسان من خلود بالإضافة إلى آيات الله التي تحيط بنا في السموات والأرض.. تلك الآيات التي أبدعها الفنان الأعظم، من تصوير للسماء في مشرق الشمس ومغربها، ومن الوردة ذات العبير العبق، ومن الروح البسيطة التي تندس في ميلاد حمل جديد، ومن الجبال الشامخة التي كساها الثلج لونها الأرجواني، ومن البحار التي تخفى في أعماقها عوالم أخرى وتخفى عنا أشياء لا حصر لها ولا عد، ومن النجوم التي تتلألأ في كبد السماء وهي

تبعد عنا بملايين الأميال.

لقد تعلم أولادي أن هذه الأشياء من صنع الله، وأنها أبدية كالموسيقى واللوحات الفنية التي يسر الله لنا أسبابها لتكون رمزًا لخلود أساتذة الفن الكبار الذين أبدعوها.

ولكن أولادي سألوني قائلين: «لقد قيل لنا إن القنبلة الذرية تقضي لا محالة على العالم القضاء الأخير. أليس كذلك؟».

إني أستطيع الآن أن أحدثهم عن أبدية الإنسان، حديثا قويا مؤمنا، فأقول:

لقد قال الناس ذلك يوم اختراع الرمي، ثم قالوه ثانية عندما أبدعوا القوس والسهم، وثالثة حين اخترعت البنادق والرصاص والطائرات والقنابل، ولكن هناك من فوق هذه القوى الهدامة كلها، قوة تفوقها جميعا.. وهي السبب في بقاء الناس على سطح الأرض حتى الآن أكثر عددا وأصح بدنا، وذلك بفضل ما أوتينا من علم ومعرفة لم يتح مثلها من قبل، فتذرعوا بالصبر يا أولادي على الرغم من هذه المآسي.

وسأقول لهم أيضًا: «إن البشرية يا أولادي لم تزل بعد في المهد طفلة مثلكم، إن عمر الأرض ملايين من السنين لا نعرفها، في حين أن عمر الإنسان نحو ستة آلاف سنة لا أكثر. إن البشرية ما زالت في دور النمو بالقياس إلى الحياة على سطح الأرض، ويمكن لنموها أن يقارن بنموكم.. إنها مثلكم ومثل أطفال الجيران: تتحاورون وتتقاتلون،

ولكنكم قد تتجاوزون عن ذلك وتعودون إلى اللعب والمرح والعمل من جديد معا، وكلما نضجتم قل نضالكم بفضل ما أوتيتم من ذكاء.. وتلك صورة من هذا العالم».

وأنا إذ أورد هذه الحقائق لأولادي، أدعم إيماني بمستقبل البشرية بثقتي في طيبة قلب الإنسان ونقائه، كما أعتقد في خلود روحه، وأنه جدير بأن يثبت مكانة الحق تحت الشمس؛ لأنه مطبوع على صورة من صور الله. إني أؤمن مخلصا بكل هذه الحقائق.. ولكن أهم من هذا كله، إيمان أولادي بها؛ لأنهم ومن في مثل عمرهم يعتبرون الفئة التي يتألف منها سلام الإنسان وسعادته في المستقبل.

* * *

كل يوم... وحي جديد

بقلم أندريه كوستلانيتز

أندريه كوستلانيتز اسم من الأسماء التي تحمل معاني كثيرة عند كثير من الناس. فهو في نظر جمهور كبير من محبي الموسيقى في أقصى الأرض، خير من يستمع لاسطوانات الفونوغرافية، أما المحاربون في الحرب العالمية الثانية فكانوا يرون فيه خير منظم ومدير للأوركسترا في كل جبهة من جبهات القتال بين ألمانيا والباسفيك، وفي نظر رواد الحفلات الموسيقية في كل مكان، كان كوستلانيتز دائما ولا يزال في طليعة من يريدون الأوركسترا، وهو رجل فياض بالحيوية يعشق الأدب والفن والرياضة والفلسفة، ولكن الموسيقى هي المهمة الأولى التي أخذت بلب هذا المؤلف الروسي الموفد.

حدث في يوم عيد القيامة من عام ١٩٤٥ وهو آخر أعوام الحرب، أن كنت أنا وزوجتي في مرسيليا، وكنا قد سافرنا إليها طلبا للراحة أربعة أيام. وذلك عقب عودتنا من بورما، حيث كنا نرفه عن الجنود.. لقد كان يوما رائعًا حقا متألق الضياء، ولكنه لم يكن شديد الدفء. لم يكن هناك سائحون بالطبع، فقررنا السفر بالسيارة عبر «الريفييرا» إلى البندقية حتى نلتقي بفنان يدعى ماتيس، ولم يسبق لنا أن قابلنا هذا

الفنان، ولكنا كنا نعرف جيدا ولده بيير في نيويورك.

ألفينا ماتيس يعيش في بيت متواضع، تطل حديقته المزروعة بالخضر على منظر فخم رائع من المناظر الطبيعية. ووجدنا في إحدى غرفه قفصا مليئا بمجموعة من الطيور الثائرة. وكان المكان مزينا بلوحات فنية أغلبها -فيما يبدو- من النوع الجديد، وقد أخذتني الدهشة مما أنتج من ألوان النبات..

فسألته قائلاً: «إني لك بهذا الإيحاء؟».

فأجابني: «إني أزرع الخرشوف».

ولقد ابتسمت عيناه حين رأى دهشتي، فاستطرد قائلاً:

«إني أذهب إلى الحديقة صباح كل يوم، فأراقب هذه النباتات وأرى أشعة الشمس والظلال على أوراق النبات، ومن ثم أستطيع الكشف عن مجموعات جديدة، ونماذج غريبة من الألوان أعكف على دراستها.. ذلك هو مصدر إيحائي بالفكرة التي أهرع إلى «الاستديو» لتصويرها.

لقد نالت من نفسي هذه الفكرة التي صدرت عن رجل، لعله أشهر مصور فنان على وجه الأرض.. لقد قارب الثمانين، فكان من الطبيعي -في نظري- أن يكون قد رأى أية مجموعة نباتية يمكن تصويرها من الذاكرة، وقد انعكس عليها الضوء والظل.. ولكنه، مع ذلك، كان يتلقى في كل يوم وحيا جديدا نتيجة لانعكاس أشعة الشمس على الخرشوف، فكان ذلك مددا يزود جهاز عبقريته بطاقة فياضة لا تنفد.

ولقد أخذتني الدهشة، فصرت أفكر فيما كان يفعل ماتيس لو أنه لم يذهب إلى الحديقة كل صباح. ولكنى أدركت على الفور أن هذا الاعتكاف ليس من طبيعته. قد يبنى بعض الناس حائطا حول نفسه، يحول بينه وبين الضوء، ولكن ماتيس ليس من هذا النوع.. فإنه يخرج ليرى العالم، وليكشف ما فيه، حتى إذا ما كشف عن شيء استساغه وتشربه. ولكوني موسيقيا أرى أن الإيحاء أمر حيوي بالنسبة لي، ولكنى أجد من العسير حصر مداه وتحديده. إنه شيء أعظم من إحساسك بالحب. وعندي أنه يحمل معنى الكشف، بل هو عاطفة جامحة تستهدف شيئا جديدا.. ثم هو يحمل معه قدرا من النظام وضبط النفس، مضافا إليهما ما يشعر به الإنسان من قلق يجعله يثور على الأوضاع القديمة المألوفة.

على أن هذه القوة تثير فيك الدهشة البالغة التي تستهدف تفسير ما تراه من ظاهر، مردها إلى سلطة أسمى من متناول الإنسان. وهذا هو نفس شعوري حيال الطبيعة، التي توحي إلى بكل ما أقوم بإنتاجه وابتكاره. وثمة أشياء كثيرة في هذا الكون أراني عاجزا عن فهمها.. مثال ذلك عجزي عن فهم التفسير العلمي الدقيق، لقدرة الناس على سماع أصواتنا وإدراك كلماتنا ورؤية أشخاصنا.. أو عجزي عن فهم التليفزيون وما ينطوي عليه اختراعه من إعجاز.

والواقع أن مثل هذه المخترعات وما يشابهها كانت منذ سنتين قليلة من الخوارق التي يقصر دونها التفكير.. وقد يكون سبب الحياة

غامضا بالنسبة لي، ولكن ليس معنى ذلك أنه لا يوجد سبب للوجود. إن مثلي هنا كمثل ماتيس والخرشوف، وذلك إني أستطيع النظر إلى هذا العدد غير المحدود من الأضواء والظلال التي تتراءى في ثنايا مقطوعة موسيقية، كما أستطيع أن أدرك ما تنطوي عليه من حقيقة.

* * *

احترام كرامة الفرد

بقلم السيدة جون لي

السيدة «جون لي» سيدة أنيقة الطلعة متموجة الشعر... وهي أم لأربعة أولاد وجدة صغيرة لطفلين اثنين، وهي تنتقل أسبوعيا من بيتها في فارمنجتون بولاية كونكتكت لمزاولة عملها بوصفها رئيسة اتحاد النساء الناخبات في الولايات المتحدة. أما زوجها فمهندس لاسلكي بحرى متخصص في الطيران الحربي، وهو يرى أن أحد أعضاء الأسرة يجب أن يخصص جهوده للون من النشاط السلمي.

لا مراء في أن والدى هو الشخصية التي كان لها أكبر الأثر في حياتي. كان مخترعا وعالما وذا عقلية محبة للاستطلاع. لقد شغف حبا بجمال الطبيعة وما ينطوي عليم من انسجام سيطر على مشاعره إلى أقصى حد. كان يؤمن بالناس، وكان هو نفسه رجلا أمينا. وكانت روح المرح عنده طاغية، وكان عطوفا رحيما، كما كان نشاطه متدفقا لا ينضب له معين. سأله أحد الناس يومًا، كيف توصل إلى اختراعه الجهاز المعروف باسمه -لتجنب الضوضاء، فأجابه قائلاً: «لقد اهتديت إليه عن طريق الإنصات لخرير المياه، وهي تنساب في الماسورة».

تلك هي العملية البسيطة التي كشفت لي عن أفق واسع للتأمل والتفكير، انتهى بي إلى إيمان راسخ بأن العقلية البشرية لا ينبغي أن تخضع لحدود، وإننا نستطيع -باستخدام هذه العقلية البشرية- أن نمضي قدما نحو فهم حقيقة الإنسان، والكون الذي يحيط بنا. ومن شأن هذه المعرفة أن تحقق انسجاما أقوى بين الإنسان والبيئة التي تحيط به، ولا ريب أن هذا هو الطريق لخلق عالم أفضل تطيب لنا فيه الحياة.

أذكر بعد ذلك إني كنت أجلس معه على ظهر سفينة في ليلة من ليالي سبتمبر.. كانت السفينة راسية في خليج صغير، وكان النسيم رقيقا مشبعا ببخار الماء. كنا وقتئذ نستطيع أن نتبين تلاطم الأمواج فوق قطعة صغيرة من الأرض.. وكانت النجوم لامعة، وكنا نشاهد بين الفينة والفينة شهابا منيرا يمرق في سرعة عجيبة عبر السماء. وكان أبي شديد الولع بعلم الفلك، فسرى تفكيري في آفاق لا نهاية لها.. وأحسبني استطعت أن أفهم عن هذا الطريق، أنه لا بد من وجود قانون ونظام في هذا الكون.

أجل.. إن الإنسان ليستطيع أن يلاحظ -بل هو قادر فعلا على الفهم، وعلى تطبيق ما يفهم- وإنما ينصرف هذا التطبيق إلى خدمة الصالح العام. ولست أقصد الصالح العام لفرد أو لفئة قليلة، كما أنني لا أقصد الهدم، وإنما أقصد البناء من أجل البشرية قاطبة.. ولقد امتاز كل من أبي وأمي بضمير اجتماعي يقظ، وكانا يؤمنان بأنهما رزقا من

حسن الحظ قدرا موفورا لم يتح لغيرهما، ومن ثم نبتت عندهما فكرة القيام بواجباتهما، كل في دائرته الاجتماعية. ومن هنا كان إيماني الشديد بأنه يجب على أن أعطى أكثر مما آخذ، وأن الحياة التي تبعث على القناعة يجب أن تقاس بما تقدمه للناس من نفع.

وإني لأذكر ذلك النقاش الذي دار بيننا في المنزل، ومبلغ تأثيره على نفسي. لقد اعترضنا حينئذ مختلف الأفكار، كما فندنا ضروبا مختلفة من الأهواء. واستنرنا بآراء جهابذة الفكر في تصدينا لعلاج كل مشكلة من مشاكل هذا العصر. ومن ثم علمت أن لكل فرد كامل الحق في التمسك بمعتقداته، وأن الهوى من شأنه أن يباعد ما بيننا وبين الحقيقة، وأن العنف، وإن طال به المدى، يجب عليهم أن يقيموا أواصر التعاون فيما بينهم، مستهدفين غاية واحدة، هي النهوض بأحوال البشرية.

وفي اعتقادي أن ثمة مبدأ من المبادئ الباقية على الأيام، وهو في حد ذاته قانون أخلاقي فعلا. ذلك المبدأ، هو احترام كرامة الفرد بوصفه عضوا في البشرية. واستنادا إلى هذا المبدأ، ينبع الشعور بالتضحية من أجل الصالح العام.

وعندي أننا لو ربطنا بين كافة الأفكار السابق بيانها -وهي رغم بساطتها الظاهرة أفكار جوهرية أساسية- ثم تعهدناها بأمانة وصدق، فإذا لن نواجه حينئذ أية عقبات تقف بين الإنسان وبين السمو الذى لا يدرك مداه.

إني أومن بالناس

بقلم دافيد لوث

عمل «دافيد لوث» عشرة أعوام محررا في جريدة نيويورك وورلد القديمة، وسبعة أعوام في جريدة نيويورك تيمس الجديدة. وفيما بين ذلك كان محررا وناشرا لأول صحيفة إسبانية تصدر بالإنجليزية. وقد ألّف عدة كتب في التراجم والتاريخ وهو يقول أنه مدين بكتبه وأسفاره الكثيرة لاهتمامه العظيم بالناس.. وهو يعيش اليوم في وادي نهر هدسون حيث يجمع بين الكتابة وهواية فلاحة البساتين..

إني أومن بالناس.. ومهما يكن من أمر الفوضى التي يبدو أننا حولنا العالم إليها، فإن الناس هم الذين حققوا كل التقدم الذي نعرفه. ولست أعنى التقدم المادي وحسب. لقد تبلور كل ذلك وتم الإعراب عنه على أيدي الرجال والنساء. ويبدو لي حتى حينما يقترف الناس الأخطاء أنهم إنما يرتكبون تلك الأخطاء نتيجة لدوافع طيبة. وأعتقد أن الكثيرين منا يريدون أن يكونوا خيرين.

إني أومن بالناس لأني رأيت كثيرين منهم في مختلف أنحاء العالم.. وإني أفضل أن أثق بتجاربي الخاصة وملاحظاتي، أكثر من ثقتي بتلك

الملاحظات الجافة الساحرة، الصادرة من قوم أشقياء. ولم أفد من إيماني هذا حياة «سعيدة» فحسب، ولكنه يسر لي كذلك أسباب القيام بأي عمل من الأعمال المفيدة التي نهضت بها. وطبيعي أنني أحب الناس كذلك.. وقد يسر لي عملي في الصحافة أن أقابل في غضون عشرين عاما في هذه البلاد -وفي أوروبا وأستراليا- نماذج عديدة من الرجال والنساء، وأن أراهم في خير الظروف وأسوأها. ويسر لي اشتغالي بكتابة التراجم أن أعرف أن أهل العصور الماضية لم يكونوا يختلفون كثيرًا عما نحن عليه اليوم. وأن الدرس المستفاد من التاريخ-التاريخ المدبر، والتاريخ الذي نعده ونهيئه- هو أن غرائز البشر خيرة في أغلب حالاتها، وفي وسعك أن تثق بها.

وقد تكون معلومات البشر خاطئة وقد يكون تفكيرهم سيئا، ولكن أحاسيسهم بريئة سليمة.. ومن هنا يكون الرقى.

لقد عشت في إسبانيا في الوقت الذي سقطت فيه الملكية عام ١٩٣١، وسمعت هناك لأول مرة عن إقامة جمهورية جديدة، عندما أقبلت طاهيتنا من السوق تروى لنا النبأ بأنفاس منقطعة. وكان أول تعليق لها، يعبر عن أهم ما يجول في ذهنها، هو ما قالته وهي تمد بصرها في زهو: «سيدي، سيتعلم أطفالنا الآن كيف يقرؤون ويكتبون» لقد كان شيئا رائعا أن نرى أناسا تحدوهم هذه المثل العليا، ويقومون بثورة سليمة لا تراق فيها قطرة من الدماء.

وعلى الرغم من أن الثورة المضادة كانت مريرة قاسية، فإن هذا لم يغير في الحقيقة الواقعة.. وهي أن أفراد الشعب أنفسهم كانوا في غضون سنوات النهضة هذه، ينطوون على الرقة واللطف والتسامح.

ولست أعرف شيئا يمكن أن ينهض دليلا على ما ينطوي عليه البشر من روح قدسية أكثر من اهتمام الصحافة بالآثام والشرور. وبوصفي صحفيا فقد كنت أوثر على الدوام أن أتحرى قصص العنف والجريمة والخيانة لأنها مشاكل غير عادية. وقد حدث أن كتبت ذات مرة قصة حادثة من حوادث الفساد السياسي في أمريكا، وبعد سنوات من البحث والتحري والتحقيق كان عليَّ أن أعزو هذا الفساد إلى أقل من واحد في المائة من رجالنا العموميين. ولقد أدى بحثي إلى أن أكون على صلة من الناحية التاريخية بعدد أكبر من الرجال الأمناء.

***

الإيمان بالعمل يحقق السعادة

بقلم جو ميكل

ولد جو. ج. ميكل في تكساس، ودرس في جامعتي مينوديست الجنوبية وكولومبيا. وهو رئيس لكلية لويزيانا في شريفبورت منذ عام ١٩٤٥، وميدان اختصاصه الرئيسي هو التاريخ والعلوم السياسية، وإن ظل طوال عشرين سنة يدرس المواد التجارية في جامعة كوانسى جاكوين اليابانية. وقد راقب خلال إقامته باليابان انتشار الروح الديكتاتورية في تلك البلاد فيما بين عامى ١٩٣١، ١٩٤١ فكشفت له تلك الدراسة عن طبيعة الحكومات الدكتاتورية، وضاعفت اهتمامه بالأنظمة السياسية الدولية.

يجب عليَّ أن أعلن على رؤوس الأشهاد أن ذنبي هو التفاؤل البعيد المدى.. ذلك إني أحب أن أستعرض التقدم البشري بحساب القرون، لا بحساب السنين. ولست أومن بأن التقدم يجري على نسق آلي، كما أن تفاؤلي لا يعفيني أبدا من الإحساس بوجوب الإلحاح في العمل لتحسين أحوال البشر.. بيد أن نظرة طويلة متأنية إلى الوراء لأحوال الجنس البشري تجعلني أكثر تفاؤلا.

ومعنى هذا أنني متحمس للحياة.. وقد أثر عن هنري تشيستو

قوله: «**الحماسة أعظم رصيد في العالم.. وهي الإيمان بالعمل لا أكثر ولا أقل**».

وعندي أن أكثر الناس استعصاء على الفهم، هو ذلك الإنسان الكثير السأم. ومع ذلك فإني ألتقى في كل يوم بأولئك الذين يبدون لي وكأنهم موتى حيال الحياة وأمام تحديها.

إن مناحي الحياة البهيجة لتبلغ من الكثرة حدا لا أستطيع أن أتصور معه كيف تبدو متعبة أو مملة. وكم أتمنى أن تكون لي حيوات متعددة.. واحدة لكل نشاط مختلف من غيره. وعندي أن الحياة لذيذة جدًّا بحيث إن التحمس لها أمر طبيعي. وإنه لمن يمن الطالع أن عملي كان من الضخامة بحيث أصبح خليقا بحماستي الكاملة، أي «بإيماني بالعمل».

ولكن عندي أن التفاؤل والحماسة يمكن أن تكون جذورهما عميقة ونشاطهما مستمرا متصلا، إذا نبعا من إحساس باطني وشعور خفي بوجود الله واليقين بأن قوله سبحانه وتعالى ذات أثر عظيم فعال في الوجود. ولقد كان المزمور التاسع والثلاثون بعد المائة من مزامير داود وحيى وشعاري؛ لأنه يعبر عن هذا الإيمان، إذ يقول: «**لقد بحثت عنى يا إلهي وعرفتني، ولو أنني اتخذت لي أجنحة من ضوء الصباح، وجعلت أعمق أعماق البحر مسكني فسترشدني يدك وتقودني حتى هناك**».

هذا الإيمان يجعل الحياة أكثر تنظيما وبساطة وأقرب إلى الكمال.

والشكر كذلك، هو «إيماني بالعمل» فإني جد شاكر للأجيال المنصرمة التي أدت ثمن التقدم البشري، وإني لأحاول ألا أمر على هذه الأجيال العظيمة مر الكرام باللغو.. فإني أشعر بامتنان حي لا ينقع ولا يزول لأولئك الذين قدموا لنا بما تحملوا من آلام كثيرة، حرية أعظم، ووهبوا لنا مطامح أوسع أفقًا وظروفا للحياة أوفق وأنسب. ولكم أحب أن أرجع الزمن القهقري لأتمكن من دراسة حياتهم وألوان كفاحهم.

كذلك أنا ممتن وشاكر لأهل جيلي، وبخاصة لأولئك الذين امتازوا بمواهب تفوق مواهبي وتختلف عنها، أولئك الذين كانوا يواصلون العمل من النقطة التي يقف عندها غيرهم، والذين يواصلون السير صوب ذلك الهدف الإلهي البعيد الذي تتحرك صوبه الخليقة قاطبة.. غير أن عاطفة شكراني لأهل جيلي ولأهل الأجيال السالفة لا يمكن أن تكون كاملة، من غير أن أرفع وجهي إلى السماء بين الفينة والفينة، لأقول: «**شكرا لك يا إلهي**».

والواقع -فيما يتصل بي على الأقل- أن عاطفة الشكران تجد عبيرها الأول والأصيل في هذه الصورة. ومن هنا، أحب أن تفيض في الخارج وتغمر رفاقي في الإنسانية مهما اختلفوا في العنصر أو اللون أو الدين أو المواهب.

لقد عرفت طفلة في اليابان في الرابعة من عمرها.. وقد طلبت في

نهاية يوم قضته في اللعب مع صديقاتها الأمريكيات واليابانيات، أن يؤذن لها بتلاوة صلواتها بألفاظها الخاصة. ثم قالت: «**شكرا لك يا إلهي من أجل هذا اليوم البهيج**» ثم ترددت برهة وهي تفكر في العبارة التالية، ثم قالت بإخلاص ليس بعده إخلاص، موجهة عباراتها لله: «**وأرجو أن تكون قد سعدت أنت أيضًا بوقت طيب**».

وهذا الدعاء يدل على الشكر ما دام صادقا، ويجب أن يكون وثيق الصلة بتصرفات الحياة وأوجه نشاطها. إنه لشاكر صادق ذلك الذي يتوجه إلى الله بهذه العبارة «**أرجو يا إلهي أن تكون راضيا عن تصرفاتي في هذا اليوم**».

***

الإنسان لا يمكن تحطيمه

بقلم ويليام. ل. شيرر

ويليام.ل. شيرر مراسل صحفي ومعقب على الأنباء في الإذاعة، ومؤلف عدة كتب، وقد ظفر بدرجات علمية ودرجات شرقية كثيرة. ولقد سافر إلى الخارج في عام ١٩٢٥، لكى يقضى شهرين فقط.. ولكنه بقى أكثر من عشرين سنة. وكانت باريس ولندن وفيينا وبرلين وإسبانيا بعض الأماكن التي اضطر للإقامة فيها.

من الصعوبة في هذه الأيام الشديدة الضوضاء، الكثيرة الاضطراب والقلق، المحطمة للأعصاب، أن تظفر براحة العقل لحظة لكي تفحص وتتأمل الأشياء التي تؤمن بها. والواقع أن الوقت والفرصة المتاحين لمثل هذا التفكير ضئيلان جدًّا -على الرغم من أن حياتنا متوقفة على هذه الأشياء- وبدونها، أي بدون معتقداتنا، ما كان لنا اليوم أن نطيق وجودنا الإنساني.

ونظرتي الشخصية للحياة، هي -كنظرة كل من عداي- نتيجة لتجاربي الشخصية. وثمة تجربتان، عاونتاني -بصفة خاصة- على تكوين معتقداتي.. تجربة حياتي وعملي في ظل نظام دكتاتوري، ووقوفي على ملامح خاطفة للحرب.

أما معيشتي في بلد دكتاتوري، فقد علمتني كيف أغالي في تقدير نفس الأشياء التي رفض الحاكمون بأمرهم الاعتراف بها لشعورهم.. كالتسامح واحترام الآخرين، واحترام الروح الإنسانية بوجه خاص.

وأما ظروف الحرب التي شاهدتها، فقد ملأتني بالدهشة.. ليس فقط من شجاعة الإنسان واستعداده للتضحية، وإنما كذلك من إرادته الرائعة العنيدة في سبيل الاحتمال والبقاء والسيادة، على الرغم مما يحيط به من آلام ومظاهر للوحشية لا يمكن تصديقها. وإذا أنت رأيت أناسا من المدنيين، وقد ألقيت عليهم القنابل من الطائرات المغيرة، أو شاهدت أولئك الذين كابدوا أفظع من هذه الآلام، بأن حشروا مثلا في معسكرات الاعتقال، وأجبروا على العمل في معسكرات السخرة.. إذا قدر لك أن تراهم بعد نجاتهم من هذه المحن المليئة بالرعب والتعذيب، وهم لا يزالون محتفظين بكيانهم كآدميين وقد امتلئوا عزيمة على السير قدما وأفعموا إيمانا بأنفسهم، وبرفاقهم في البشرية وبالله سبحانه وتعالى.

إذا أنت رأيت ذلك، فستتحقق من أن الإنسان يستحيل تحطيمه والقضاء عليه. ولسوف تقدر كذلك كيف أن الإنسان استطاع بصعوبة خارقة -على الرغم من فساد الحياة وقسوتها- أن يحفظ على نفسه فضائلها العظيمة، من محبة وشرف وشجاعة وتضحية ورأفة، ولسوف تحس بقدر غير يسير من الفخار لأنك عضو في الجنس البشري.. ولسوف يتجدد إيمانك برفاقك في البشرية.

وطبيعي أن هنالك أياما كثيرة -في عصر القلق هذا الذي نعيش

فيه- يشعر فيها المرء بانهياره وفقدانه للشجاعة إلى حد كبير. ولقد اهتديت شخصيا إلى العزاء في مثل هذه الأوقات بوسيلتين اثنتين.. الأولى: الاتعاظ بدروس التاريخ، والثانية: نشداني من جديد حياة ملؤها الرجاء والأمل.

مثال ذلك أن أذهب إلى الماضي لكي أطالع تاريخ بلوتارك.. إنه يذكرني بأنه -حتى في أيام الإغريق والرومان الذهبية، تلك الأيام التي نستمد منها أروع ما في حضارتنا الراهنة- كان يوجد كثير مما نأباه ولا نطيقه في حياتنا اليوم... كالحرب والنزاع والفساد والخيانة والغش والنفاق والتعصب والاستبداد وإثارة الرعاع. وهكذا فإن قراءة التاريخ تصور لك المآسي على حقيقتها، وتساعد على أن تنظر إلى متاعبك نظرة نسبية، وعندئذ تهون عليك تلك المتاعب.

وإني لأجد آخر الأمر أن أعظم قسط من السعادة الحقة إنما ينبع من حياة المرء الداخلية ومن حالة عقله وروحه، ويمكن القول، بصراحة، أنه من الصعب تحقيق حياة داخلية سليمة، وبخاصة في هذه الأيام العصيبة. إن مثل هذه الحياة تتطلب من المرء أن يكون أمينا مع نفسه. وليس هذا بالأمر اليسير، إذ يستلزم أن تكون صبورا واسع الإدراك عظيم الاعتماد على الله.

غير أنها مكافأة سخية تلك التي يحصل عليه المرء لقاء ظفره بسلام داخلي لا تقوى على زعزعته أية عاصفة أو أي حدث من أحداث الزمان وكوارثه.

لم أكف عن الإيمان

بقلم السيدة إيفا. د. ساكل

إيفا. د. ساكل شابة شقراء مرحة من مواليد براغ في تشيكوسلوفاكيا. وبعد أن تعلمت في مدرسة ابتدائية تشيكية ودرست في مدارس ثانوية ما بين ألمانية وفرنسية، التحقت بكلية إنجليزية واستطاعت أن تلم بست لغات. وهي تهوى الأسفار، وقد طوقت بمعظم بلاد أوروبا وآسيا وأمريكا الشمالية. وقد جعلت منها انطباعاتها الشخصية ومغامراتها وروح المرح عندها كاتبة ومحاضرة ممتازة.

أعتقد أنه من الأمور الحيوية المهمة أن ينشأ الإنسان وهو مؤمن بالخير إيماناً ثابتاً لا يتزعزع. ولقد كنت موفقة من هذه الناحية. فوالداي لم يقتصرا على تهيئة بيت سعيد لي، ولكنهما كذلك استطاعا أن يمكناني من أن أتعلم ست لغات وبذلك يسرا عليَّ السفر والتنقل في البلدان الأخرى. وكنتيجة لذلك أصبحت أشد تسامحا وأوسع أفقا، كما ساعدني ذلك على تجاوز صعوبات جمة واجهتها فيما بعد.

فلقد غادرت أنا وزوجي، بعد زواجنا بقليل، وطننا الأصلي تشيكوسلوفاكيا قاصدين الصين للإقامة في شنغهاي، وكانت مدينة

دولية بكل ما في هذه الكلمة من معني.. فالناس من كل الأجناس والأديان يعيشون هناك ويعملون جنبا إلى جنب. كان هناك الأخيار والأشرار كما هو الحال في كل مكان، ولقد ألفيت الكثرة الغالية منهم أخيارا رحماء، ولكن المرء لا يستطيع أن يكون على الدوام مطمئنا هناك.. لأن الكثيرين لا يفصحون عن نواياهم الحقيقية علانية. وكثيرا ما يصعب على المرء أن يضرب على الوتر الذي يحصل منه على استجابة منسجمة. ولكننا استطعنا العزف على تلك الأوتار عندما تعلمنا اللغة الصينية، وفي مقابل ذلك علمنا الصينيون الكثير من فلسفتهم في الحياة.

وفي عام ١٩٤١ اكتشف الأطباء في شنغهاي أنني مصابة بمرض السكر، على الرغم من أنني لم أكن حينذاك قد جاوزت العشرين من عمري. ولقد كان هذا النبأ صدمة مروعة؛ لأنه لا شفاء من مرض السكر وإن كانت السيطرة عليه ميسورة بالأنسولين. وعلى الرغم من أن هذا العقار لم يكن يصنع في الصين، فقد كان ميسورا استيراد كميات كبيرة منه في الخارج. وأعانني ذلك على أن أواصل حياتي العادية في جو من السعادة.

ثم ألقيت القنابل على ميناء «بيرل هاربور» واحتل اليابانيون شنغهاى وانقطع استيراد الأنسولين. ولم يمض إلا القليل من الوقت حتى أصبح الموجود منه غير كاف للمصابين بمرض السكر. ولقد كنت أتبع نظاما في الأكل يكاد يكون هو الجوع والحرمان، لكي أهبط بحاجتي من الأنسولين إلى أضأل قدر مستطاع، غير أن مواردي الضئيلة منه سرعان ما تلاشت. ولقد مات بالفعل كثير من مرضى السكر، وأمست الحاجة باعثي على

القنوط.. ولكنني طوال هذه المحنة لم أكف قط عن الإيمان بأنني -بمعونة الله، وبمحبة زوجي وعنايته- ستكتب لي الحياة.

وهكذا واصلت التدريس بالمدارس الصينية. وامتلأت شجاعة بفضل إيماني وبفضل الجهد المتصل الذي بذله زوجي في سبيل بدء إنتاج الأنسولين في تلك البلاد. فقد جيء ببنكرياس الثور، وبدأت محاولة إنتاج الأنسولين في معمل صغير، ولن أنسى اليوم الذي أعطاني فيه زوجي أول حقنة من الأنسولين الجديد، الذي نجح عندما حقنت به الأرانب. ولقد أسفر حقني به عن نجاح كبير، وفي وسعكم أن تتصوروا مبلغ سعادتي وراحة بالي بعد هذا النجاح.

ولكن كانت هناك أشياء أخرى تثير القلق.. فهنالك الأمراض الاستوائية، والتضخم النقدي والاحتلال العسكري الياباني. أجل، وهنالك قاذفات القنابل الأمريكية المغيرة من طراز ب-٢٩. ولقد حدث ذات مرة أن أصابت قنابلها محطة توليد الكهرباء، فانقطع التيار الكهربائي عنا. ولم يكن يستطاع صنع الأنسولين مع انقطاع هذا التيار.. لقد كانت هذه أوقات عصيبة حقا.

وفوق إيماني بالله، فقد استمددت أعظم قوة لي من تلك المحبة العظيمة، وذلك الفهم الكامل القائمين فيما بيني وبين زوجي.. ويلي ذلك العطف والمعونة اللذان لقيتهما من الأصدقاء الكثيرين من الجنسيات الكثيرة المختلفة، ومن بينهم بعض المدنيين اليابانيين الذين عاونونا على الرغم من أن بلادهم كانت حينذاك في حرب معنا، كلما وجدوا المعونة مستطاعة.

آلام الحياة من صنع الإنسان

بقلم الدكتور ليون. ج. سول

الدكتور ليون.ج.سول خريج جامعتي كولومبيا وهارفارد وأستاذ العلاج النفسي بمدرسة الطب بجامعة بنسلفانيا وقد أشرف في غضون الحرب العالمية الثانية على برنامج مكافحة «الإرهاق الناتج عن الحرب» في قاعدة فيلادلفيا البحرية. وقد ألف كتابين هامين عن التحليل النفسي، هما: «النضج العاطفي»و«السلوك الإنساني»..

أعتقد أن الهدف المباشر للحياة، هو أن نحيا، وأن نحاول الإبقاء على النوع البشري. وكل الأنواع المعروفة للحياة إنما تطويها مراحل العمر.. وما سلم الحياة إلا الميلاد والبلوغ والزواج والإنسان ثم الموت. وهكذا فإن الهدف المباشر للحياة الإنسانية هو أن يعمل كل فرد على تحقيق أطوار حياته. وهذا ينطوي على النضوج السليم والتحول إلى شخص كامل البلوغ.

إن شجرة البلوط تنمو وتترعرع مستقيمة ما لم تحط بها مؤثرات ضارة. وهكذا الأمر فيما يتعلق بالجنس البشري، وأنه لاكتشاف عظيم الدلالة أن الرجل الناضج والمرأة الناضجة، قد زودا بطبيعة وخصائص

القرين الصالح والوالد السليم كما أن لهما المقدرة على التمتع بالعمل والحب المنطويين على المسئولية.

ولو أن العالم كان في الأصل مكونا من أشخاص كاملى النضوج، محبين منتجين، يتحملون المسئولية تجاه الأسرة والعالم، لأمكن حسم معظم المشاكل الإنسانية.. غير أن معظم الناس قد عانوا في طفولتهم مؤثرات عوقت تقدمهم.. ومن ثم، لم تتكامل في مرحلة البلوغ طبيعتهم السليمة الكاملة. إنهم يشعرون أن هنالك شيئا معوجا خاطئا، وإن جهلوا ذلك الشيء. ويشعرون بضآلتهم وخيبة آمالهم واضطرابهم وقلقهم. وهم يقامون هذه المشاعر الباطنية كما يقامون خطرا يهددهم أو عدوا يحاول أن يفتك بهم، وذلك بالاستعداد إما للقتال أو للهرب. أما الهرب فيدفعهم إلى إدمان الخمور والتردي في غير ذلك من الاضطرابات الذهنية. في حين أن حب القتال يدفعهم إلى الجريمة والقسوة والحرب. وهذا الاستعداد للعنف والقسوة في الإنسان ضد أخيه الإنسان، هو من المشاكل الجوهرية في الحياة البشرية، لأنه باتخاذه صورة الحرب أصبح يهددنا جميعا بالعناء والفناء.

ولولا أن الإنسان دافع عن نفسه بالقتال تارة والهرب تارة أخرى، لظل مقبورا في الكهف والغابة. ولكن المشاهد اليوم أن الإنسان قد تمكن- عن طريق عيشته الاجتماعية- أن ينجو، إلى حد ما، من أذى العناصر الطبيعية، ومن عدوان الحيوانات المتوحشة. وهو يتعلم حتى

كيف يحمي نفسه ويحصنها ضد الأمراض. وهو يستطيع أن ينتج ويهيئ الطعام والكساء والمأوى بنسبة تكفى سكان الأرض الحاليين. وما لم يقع حادث فلكي خارق، فإن الإنسان لا يواجه اليوم أي خطر جدي يهدد وجوده، اللهم إلا روح المقاومة التي تنطوي عليها نفسه.. ونعنى بها روح القتال أو الهرب. فهذا الاستعداد الوحشي لإلحاق الأذى والقتل لا يزال حتى اليوم شيئا أثريا كالزائدة الدودية.. فمحاولة حل كل مشكلة بواسطة القتال أو الهرب إنما هي طريقة بدائية، وهي نفس الطريقة التي يعتمد عليها الغلام المراهق. أما الطريقة الثانية، وهي طريقة التفاهم والتعاون، فهي لا بد أن تستند إلى الطاقات الناضجة للشخص البالغ الرشيد.

وربما اضطر الإنسان إلى القتال اضطرارا طالما هو يعيش في عالم تسيطر عليه روح الطفولة، بيد أن مثل هذا القتال جدير بأن يكون أشد أثرا إذا سيطرت عليه قوى رشيدة لتحقيق أهداف رشيدة. والمرجح أن الحروب لن تتوقف إلا إذا حفلت الدنيا بعدد كاف من الأشخاص الراشدين.

***

وتنحصر المشكلة الرئيسة في التكيف الاجتماعي والبقاء البيولوجي، وقوام الحل الرئيس أن يفهم الناس طبيعة نضوجهم العاطفي البيولوجي، وأن يعملوا في سبيل تحقيقه، ويساعدوا الأطفال

في مجال تطورهم صوب بلوغه.

إن معظم آلام البشرية من صنع الإنسان. وهي – أولا وقبل كل شيء- نتيجة لإخفاق البالغين – نظرا لمعاناتهم أهوال طفولة ناقصة مشوهة- في تحقيق حياة ناضجة من الوجهة العاطفية. وهكذا بدلا من التمتع بطاقاتهم في العمل والحب المنطويين على المسئولية، تراهم يبدون بخلاء أنانيين مضطرين مبددي الآمال، قلقين، يضمرون العداوة والبغضاء.

إن النضوج هو الطريق المؤدى من الاضطراب والقلق إلى سلام النفس والعيشة الراضية لكل فرد، وللجنس البشري بأسره.

هذا ما أومن به، وما يؤيده العلم ويزكيه.. وقد انتهيت إليه بملاحظاتي وتجاربي الشخصية.

* * *

الحرية العدالة حق للجميع

بقلم ليلاند ستو

ولد ليلاند ستو في «سوث برى» بكونكتيكوت عام ١٨٩٩، وكان في غضون ربع القرن الأخير مراسلا صحفيا في الخارج إبان السلم والحرب، وشمل نشاطه القارات الخمس قاطبة.. وقد حاز جائزة بوليتزر لقاء أنبائه عن أوروبا بين الحربين.. فكان مراسلا حربيا لجيوش سبع دول مختلفة وجيوش المستعمرات في الحرب الأخيرة. ولقد ألف، نتيجة لمشاهداته، عدة كتب صادفت رواجًا عظيمًا.

أغرقتني مشاغل هذا العالم فترة دامت أربعة وعشرين عاما. قابلت خلالها أناسا من مختلف أقطار العالم، وشاهدت الدول تنساق إلى الحرب، وقد آمنت بعد كل هذا، أن ثمة رسالة مهمة لكل منا في الحياة.. تلك هي أن نحاول تفهم وجهة نظر الآخرين. لقد فكرت طويلا فيما يجب أن أتسم به من تسامح وعدالة، كما لو كنت في موقف إنسان آخر أرى الأشياء كما يراها، وأشعر بها على نحو ما يشعر هو بها. وإني لأذكر ما حدث في السنين التي أعقبت عام ١٩٢٠ مما دار بين الأمريكيين والأوروبيين من نقاش حاد بسبب تخفيض ديون الحرب، وكان عليَّ في هذا الصدد أن أفسر موقف أوروبا وشعورها، ولماذا وقفت هذا

الموقف. وكان من نتيجة هذا، أن أدركت عنصر الضعف والقوة فيما يذهب إليه كل طرف من الطرفين في مثل هذا الصراع.

لم يدر بخلدنا أن نفكر في وجهة النظر الأوروبية وقتئذ التفكير الكافي، وكذلك لم يفكر الأوروبيون في وجهة نظرنا ولم يلقوا لها بالا.. ومتى تعذر إدراك وجهات النظر على هذا النسق، كان لابد من قيام البغضاء واشتعال الحرب. ولكن مثل هذا يحدث في حياتنا اليومية أيضًا. فلو أني تحدثت في احتقار عن جنس آخر من الأجناس البشرية، لكان من أثر ذلك إثارة البغضاء والصراع في بلادنا. ولقد فكرت فيما كان يخالجني من شعور لو أني كنت فردا من أفراد هذه الجماعة المهينة.. شاهدت بعيني رأسي في برلين عدوان أوغاد هتلر على لفيف من الضعفاء، وحين عدت إلى وطني سمعت الناس يعلقون على ذلك العدوان بقولهم: «نعم هذا شأنهم». ولقد نسى هؤلاء أن الحرية والعدالة حق للجنس البشري بأسره، وليس وقفا على الأمريكيين وحدهم.

ولقد نسى هؤلاء أن البشر بشر بغض النظر عن العقيدة أو الجنس أو القومية، وإني لأتذكر فقراء الأسبان واليونان من الفلاحين الذين شاطروني خبزهم وجبنهم، وكان هذا كل ما ملكت أيديهم. كما أذكر تلك المرأة الروسية العجوز التي آثرتني بسريرها وفضلت هي أن تنام على الأرض.. وهكذا كم أناس لا يعرفون لغتي وإنما يخاطبونني بقلوبهم.

إن خير أصدقائي مجموعة كهيئة الأمم، تضم أوروبيين وآسيويين

ومواطنين من أمريكا اللاتينية وأمريكا الشمالية، وكافة أقطار الأرض، ولعل خير ما ينطوي عليه هذا، هو الكشف عن مدى ما نرتبط به من صلات مشتركة تذكرنا على الدوام بأن الصداقة لا تعرف تلك الحدود القومية الجغرافية الضيقة، وما يستتبع هذا من علم بأن كل عناصر الشعوب تستطيع فهم بعضها البعض.

إن طبيعة كل فرد مزيج من الخير والشر. ولقد وجدت أن الخير في طبيعة أغلب البشر يرجح الشر، وتلك ظاهرة ألمسها في كل أقطار الأرض، وما عليك في هذا الصدد إلا أن تعمل الفكرة.. إن إدراك الحقيقة مثله كمثل الزهرة إذ تزدهر، ولكن عليك أن تتعهد نموها بالري، فإذا ما ازدهرت كان إحساسك عجبا، وستشعر بهذا حين تكسب صديقا جديدا، وإني لأتخيل حقيقة الصداقة في الإحسان والمحبة، وفي اعتقادي أن هذا يسبغ على حياتنا معنى جديدا. وبودي لو يقول الناس عند موتي: «**لقد كان هدفه أن يجعل الإنسان يفهم أخاه الإنسان**». وطبيعي أن أخفق في هذا أحيانا، ولكن ما أبذله من محاولة في هذا الصدد يجعل الحياة خليقة بالحرص عليها.

* * *

فلنضحك ولنتسامح

بقلم إليزابيث كوكر

تجمع السيدة «إليزابيث كوكر» في إهاب شخصيتها نواحي ثلاثة.. فهي مؤلفة وزوجة وأم.. وقد احتفلت هي وزوجها صاحب أحد مصانع الورق بمضى عشرين سنة على زواجهما في عام ١٩٥٠، وذلك بنشر روايتها الأول «ابنة الغرباء» أما روايتها الثانية «يوم الطاووس» فلقد نشرت حديثا.. وهي تعيش مع زوجها وطفليها في مدينة هارتسفيل بولاية كارولينا الجنوبية.

حدث حين كنت في السادسة عشرة أن لطمت لطمة عنيفة على الجانب الأيمن من وجهي، فتحطمت عظمة الخد الأيمن وانكسرت عظمة الفك في عدة مواضع، وتطايرت أسناني الأمامية.. وحين سمح لي الطبيب لأول مرة أن أشاهد ما طرأ على وجهي من مسخ في المرآة، أصبت بإغماء. ولكن كان من حسن الطالع أني رزقت أبا حكيما عطوفا، فلم يقبل أن أنزوي في الغرفة الخلفية، وحملني في سيارتنا الحمراء الكبيرة لأقودها حين أصبحت قادرة على ذلك، ثم دفعني إلى التحدث ببشاشة لكل من قابلنا عبر الطريق.

لقد كان هذا في الواقع أمرا شاقا ولكن كان أشق منه أن أتعلم كيف

استقبل كل يوم جديد، وأن أواصل نشاطي العادي كل يوم. كان عليّ أن أدرك أن الحياة ليست وسادة للجلوس عليها، وإنما هي لون من التحدي الذي ينبغي أن تعد له العدة.. وإدراكي لهذه الحقيقة أنبت في نفسي إيمانا أستعين به، فضلا عن شجاعة نفسية مكنتني أن أقف على قدمي في الضراء وحين البأس وعند فقدي الكثيرين ممن أحببت حبا عميقا.

وما تعودت الإعراض عن الناس.. وهذا هو السبب في أنني كنت بصفة خاصة غنية بعدد كبير من الأصدقاء يتفاوتون في السن. وأذكر كيف كنت أسير أشواطا بعيدة في سبيل الإبقاء على الصداقات والاستمساك بها، ولكن هذه الأشواط التي قطعتها في هذا السبيل تقترن في نفسي بأعزب التجارب التي صادفتها في حياتي. وفضلا عن هذا، فقد خلق ذلك مني شخصية عزيزة كريمة. لقد تعودت النظر إلى كل إنسان على أنه شيء ثمين بالنسبة لي، حيوي بالنسبة لحياتي، وقياسا على هذا، بدت لي أهمية الناس. ولست أقصد هنا أهمية البشرية من الوجهة النظرية المجردة.. إذ من السهل حب الناس لأنهم لا يسرفون في طلباتهم الشخصية، وإنما أقصد كذلك هؤلاء الناس الذين يطرقون باب داري يلتمسون عطف قلبي عزاء لهم.

وأنا أومن بجدوى الضحك وفائدته، فهو عجيب مبارك، أنه ترتيل لنغمة أحب إلى الخالق من أنين يتصاعد من مخاوفنا وعجزنا. لقد أشربت نفسي حب المرح. ولذلك استطعت أن أخوض غمار عدة مآزق

كانت كفيلة بالقضاء عليَّ لو أنني واجهتها بالضيق والحزن والندم.

ولو بدا لنا أن نقدر قيمة الضحك تقديرا صحيحا، لاستتبع هذا إيماننا بالتسامح، وهو أقوى ما أدين به من معتقدات في آخر الأمر. إني أؤمن بالتسامح حيال الأجناس البشرية، وحيال الأجناس الضعيفة التي تختلف عن جنسنا والأجناس التي تسمو علينا. وأعتقد أننا متى بلغنا مرحلة التسامح وعرفنا كيف نلائم بينها وبين الظروف المحيطة بنا، أمكننا تحقيق أسباب الحياة السعيدة الناجحة.

***

حاجتنا إلى الأمناء

بقلم كلود.م. فيوس

اشتغل كلود.م. فيوس بالتدريس في أكاديمية فيلبس في آندوفر من أعمال ولاية ماساشوستس منذ أربعين عاما، وقد كان في غضون الخمس عشرة سنة الأخيرة منها ناظرا للمدرسة. وحين اعتزل العمل في عام ١٩٤٨، خلف من ورائه مدرسة أرقى مما كانت عليه بمراحل، وذلك بفضل ما خصص لها من جهود وتضحيات. وقد اشتهر بمؤلفاته التربوية القيمة، وقد سجل أخيرا التجارب التي مر بها في الأربعين سنة التي قضاها مدرسا وناظرا في ترجمة حياته التي نشرها بعنوان «ناظر مدرسة مستقل».

قضيت أكثر من أربعين سنة في تربية الأطفال.. أورثتني إيمانا بكرامة الإنسان، وبذلك المصير النهائي الذي ينتظر البشرية.. إن صفحات الجرائد الأولى لتمتلئ بنماذج من وحشية الشباب، والمغامرات الجريئة التي يقوم بها المراهقون من لصوص البنوك.. ولكن الحقيقة التي لمستها في كل المدارس، هي وجود مظاهر التفكير المتزن والعطف والكرم. وأشد ما تكون هذه الظواهر وضوحا بين الطلبة الذين يتسمون بهدوء الطبع، وينصرفون إلى عملهم في لين وهوادة، لا يبغون

من وراء ذلك مكافأة. وأجدني، نتيجة لهذا، من النوع الذي يمكن أن يقال في وصفه أنه متفائل إلى حد بعيد. أجل، إنني من أولئك الذين يدركون بعض مثالب الناشئ، ولكنهم على ثقة من أن التقدم يحدث في الواقع، رغم ما يكتنفه من بطء وما يعتوره من غموض في بعض الأحيان، حتى لا يكاد يلمس. إنني أعتقد أن الدنيا تغدو ضربا من الهذيان، لو أنها بلغت مستوى الكمال.. لابد أن تنطوي على الصراع والفشل، إذا شئنا أن نصل إلى تقدير دقيق لقيمة النجاح. ولابد من رؤية الظلال إذا قدر لنا أن نتبين النور.

إن أهم عامل في نجاح النظم الديمقراطية. هو تربية المواطن العادي، ولا أعنى بالتربية تثقيف العقل فحسب، وإنما تهذيب النفس والخلق أيضًا، وهذا هو السبب الذي من أجله سررت كثيرًا حين قدم لي تلامذتي سرا إعانة قدرها خمسون دولارا، لأشترى بها معطفا لزميل لهم.. وهذا هو السبب الذي من أجله شعرت بالفخر حين تبينت أن أحد تلامذتي السابقين الذي لقبه الطلبة جميعا «بالأمين» كوفئ أخيرا بميدالية الكونجرس لقاء ما أبدى من بسالة في إنقاذ حياة زميل مجروح في كوريا. إن لمدرستي شعارا مهما بارزا في صلب دستورها وهو «أن المعرفة المجردة عن حب الخير خطيرة».. ولدينا اليوم عدد كبير من الكفاءات البارزة في هيئاتنا التشريعية والمصالح العامة ولكننا نحتاج إلى عدد كبير من الرجال الأمناء.

وقد علمتني تجاربي أيضًا أن الجهد الشاق يمكن الاستعاضة به عن العبقرية، وأن الكثير من الأعمال ينجز الآن يوما بعد يوم، بفضل جهود رجال ونساء يستهدفون خلق عالم أفضل يطيب فيه الوجود، ثم هم يقومون بعملهم في تواضع لا يعرف صلفا أو شموخا.

وثمة تنبؤات مزعجة يتشدق بها رسل الفزع والتشاؤم، فهم يقولون إن مدينتنا آخذة في الانهيار. نعم لقد حدثت تغيرات كثيرة، وربما أعقبتها تغيرات أخرى.. ولكن ليس من الضروري أن يفسر هذا التغيير بالانهيار.. وإذا كان أولادنا وبناتنا لا يسلكون مسلك أجدادهم. فلن يكون معنى هذا أننا نسير من سيء إلى أسوأ. لقد أصبحت أوقن أن شبابنا خليقون بأن يلعبوا دورهم بصورة لم تتح لنا نحن الكبار.

ويقيني أن الإعطاء يبعث على الاغتباط أكثر من قبول العطاء. وأن رابطة من روابط الجوار تربطني بكل رجل وامرأة بصرف النظر عن اللون أو العقيدة، وأن الحياة لا بد وأن تكون أهم من أكل اللحوم، وأن جسم الإنسان يسمو على الكساء، وتلك العقيدة البسيطة قد دعمتها سنون خدمتي كمدرس وناظر مدرسة.

إن أبناء الجيل الجديد متحررون –إلى حد كبير– من روح التعصب لجنس أو لدين.. إنهم يؤمنون بالعدالة والمساواة إيمانا عميقا.. وربما كان من العسير عليهم التعبير السليم عن هذا الإيمان، ولكنه يبدو في

أفكارهم وآرائهم في الحياة المهذبة الكريمة، ويقيني أني تعلمت منهم بقدر ما علمتهم.. كانوا قادرين على الاستمتاع بمعين الفنون الذي لا ينفذ من موسيقى وشعر وأدب، ونعمة البيت والأسرة ولذة الإبداع الذهني، والسرور المقترن بأعمال البر، وما تشعر به من سلام بينك وبين نفسك، نتيجة للإيمان بالله. ولقد شاهدت المئات منهم يقومون بدورهم كمواطنين إلى الحد الذي يسمح به تفكيرهم كتلاميذ في مدرسة، وربما كانت هذه هي المكافأة الخالدة التي يحظى بها مدرس مثلي.

***

أومن بالإنسانية

بقلم الدكتور هارولد تيلور

الدكتور هارولد تيلور من مواليد كندا.. وقد ظفر بدرجتين علميتين من جامعة تورنتو، وحصل على الدكتوراة من جامعة لندن. وبعد أن أمضى عاما في أوروبا، سائحا وكاتبا، التحق بقسم الفلسفة بجامعة ويسكونسين. وفيها أشرف على فرق «التنس» واشترك في أوركسترا الجامعة وكان هو الذي يلعب على الآلة الموسيقية المعروفة باسم «الكلارينت» وذلك فضلا عن تدريسه أشق الدروس المثيرة، الباعثة على الاهتمام. وقد عين عميدا لكلية «سانت لورنس» وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره..

نعيش الآن في مرحلة من مراحل التاريخ البشري تمتاز بالتغييرات الثورية الطارئة على كافة القيم والأفكار الإنسانية وهذا هو الوقت الذي يتحتم على كل فرد منا أن يفتش في قرارة نفسه عن الآراء والمعتقدات والمبادئ التي ينبغي أن يتخذها شعارا أو أساسا لحياته.

إني أومن بالناس وأومن بالإنسانية النقية الخالية من الغش والتزوير. إني أومن بوجوب الإصغاء لما عند الناس من حديث وبمساعدتهم في سبيل تحقيق الأشياء التي يريدونها، أو التي يحتاجون

إليها. وهنالك، بطبيعة الحال أناس يتصرفون تصرف الوحوش.. فهم يقتلون ويخدعون ويكذبون ويدمرون، غير أننا إذا تجردنا من الإيمان بالإنسان وبإمكانياته في المستقبل. فلن يكون ثمة أمل في ذلك المستقبل.. وسوف يورثنا هذا المرارة والأسف على الماضي الذي ولى وأدبر. وأعتقد أنه يجب على كل منا أن يتخذ لنفسه فلسفة يستطيع العيش على هديها. وهناك قوم يخلقون فلسفة قوامها الكفر بكل شيء.. فهم لا يفتأون يرددون: لقد انعدم الحق والصدق ولم تعد الطيبة سوى مجرد مهارة المرء في تغطية أنانيته ومرارتها عن العيون. وهم يقولون إن الحياة مجرد فترة قصيرة بين ميلاد تعس، وموت محتوم.. وهنالك آخرون يقولون إن الإنسان يولد في بيئة الشر والخطيئة.. وما الحياة سوى مرحلة التطهير بالآلام. في حين أن الموت هو الجائزة التي يتلقاها الذين تألموا وعانوا في الحياة الدنيا. وثمة فريق ثالث يقول إن الإنسان نوع من الآلة. يعمل وفقا لقوانين معينة.. وإنك إذا تعلمت القواعد وعرفت مقياس القوة الخاص بإدارة تلك الآلة. استطعت أن تجعل الإنسان يتصرف من تلقاء نفسه تصرفا، أوتوماتيكيا، لكي يحقق أية أهداف ترسمها في ذهنك.

وعندي أن هذه الفلسفات خاطئة.. فأهم شيء في الحياة هو الطريقة التي نعيش بها وليس ثمة سعادة مطلقة، أو طيبة مطلقة، أو أخلاق فاضلة مطلقة، أو أي شيء آخر مطلق، إلا في نظر الشخص الذي يؤمن بذلك، ويعمل جاهدا في سبيل تحقيقه، إنما هنالك فقط

ذلك الإنسان المفرد الذي يعيش والذى يشعر في مختلف مراحل تجاربه الشخصية في الحياة بأنه سعيد أو شقى، نبيل أو وضيع، عاقل أو سيئ التصرف، أو مجرد كائن موجود.

والسؤال الذي يعرض للمرء هو: كيف يتسنى ملء هذه اللحظات المنفردة في مراحل التجارب الإنسانية بثروة من فلسفة تصبح دستورا للمرء في حياته الخاصة؟ وما لم نتعود التضحية بجانب من جوانب أنفسنا، وما لم نعش مع الآخرين ونفهمهم ونقدم إليهم يد المعونة، فنحن لا شك قد فقدنا أهم جانب حيوي من جوانب حياتنا البشرية، وما أساس فلسفتي إلا ما توارثه الإنسان بحكم قوميته من التحرر والثقة والمقدرة على صنع الخير وإذا أتيحت للمرء فرصة صحيحة لاستخدام قواه. فإن هذه الفلسفة ستسفر عن فيض منهمر لا نهاية له من النشاط الحيوي، وقسط عظيم من الإرادة التي تستهدف القيام بأعمال جديدة أساسها الإيمان بالمستقبل.

والطرق التي تؤدي إلى الحكمة والصلاح، لا يقل عددها عن أولئك الذين يعتزمون السير فيها. وهنالك من الحقائق الأساسية التي نستطيع الوقوف عليها عدد يوازي عدد الرجال الذين يجِدُّون في البحث عنها ويعتزمون الوقوف عليها. وهنالك أيضًا من الآراء والمبادئ عدد يكافئ عدد الرجال ذوي العزيمة الذين سيحرصون عليها حية في أذهانهم، وسيعملون بمقتضاها في مضمار حياتهم.

لنكن جديرين بالحياة

بقلم وليام. ف. جيمس

وليام. ف. جيمس شاب في العقد الرابع من العمر يشتغل بائعا للسيارات في سانت لويس بميسوري. وقد كان وكيلا للقومندان في البحرية فأبدى من النشاط ما استحق من أجله الإنعام عليه بوسام كريم. هذا فضلا عن الإنعام عليه بميدالية البحرية والغواصات، وظفره «بصليب البحرية» وقد أكسبته جهوده في ميادين خدمة الشباب «جائزة المؤسسة الحرة» فكرمته الغرفة التجارية بأمريكا.

أريد أن أقول قبل كل شيء إني أستمتع بمعرفة الناس. وأقصد بذلك الناس من مختلف الحرف، بدون تفرقة بين اللون أو العقيدة. إني أسر بمعرفتهم جميعا، وفي اعتقادي أن كل طائفة من هؤلاء الناس يجب أن تظفر باحترام الناس لمشاعرها ومعتقداتها، وأرى أني استفدت كثيرًا من خدمتي في البحرية في السنين الأخيرة القليلة؛ لأني تعلمت في هذه الفترة معنى كلمة «التسامح». وكنت قبل الحرب أدأب على انتقاد الناس، موجها هذا النقد لأشخاصهم أو لأعمالهم، أما اليوم فأنا أعتقد أن كل عمل فردي لابد وأن يستند إلى أسباب أو مبررات.

وغالبا ما تتهمني زوجتي بأنني شديد الحساسية، ولست أعتقد أن هذا حقيقي، ولكني أدرك الآن أن ما يقوله الإنسان من كلمات محدودة له أبلغ الأثر في الآخرين، وما دمت قد تعلمت التسامح، فالذي أشعر به هو حساسية الآخرين ومن ثم تنبغي عليَّ حمايتهم قولا وعملا.

ولقد آمنت بأن علينا في هذه الحياة أن نتحمل لونا من ألوان المتاعب سواء أكانت هذه المتاعب مرضا، أو عجزا، أو تتعلق باعتبارات شخصية: كتشوه جثماني، أو مشكلة تخص الوالدين، أو زواج غير موثق. وفي اعتقادي كذلك أن الوقت كفيل بعلاج كل مأساة عن أحد طريقين: الأول أن يتعود الإنسان ما يقاسيه من عجز أو محنة شخصية، والثاني أن يقتنع في آخر الأمر بأن عليه وحده تقع تبعة مأساته.

ولقد أدركت قيمة الحياة نفسها في فترة مرت بي، كنت فيها «مرهقا بالعمل». حدث أن كنت أتحدث إلى أحد رفاقي الذين كانوا يعملون على السفينة التي كنا نعمل فيها، وقد نجا من موت محقق هو الغرق.. فإذا بالحقيقة تبدو أمامنا سافرة جلية، تلك هي أن متاع الحياة الدنيا من مال وسلطة وقوة يتضاءل كله أمام بحر من الظلمات والزيت والبرد. والله من فوقنا، هو وحده الذي يعرف ما نكابد من عذاب، وهو وحده الذي يستطيع تخليصنا منه، أما نحن فلا نملك من أمرنا شيئا. والوديعة الوحيدة التي نملكها هي حياتنا بالإضافة إلى حيوات أخرى تنتظرنا في ديارنا. وأعتقد الآن، كما كنت أعتقد حينئذ، أني أستحق هذه الوديعة

العظيمة. ومادمت قد فهمت هذا، فقد أصبح لزاما عليَّ أن أنجز من الأعمال ما هو ضروري لتبرير استحقاقي هذه الهبة. فإذا عجزت عن الحياة بالشكل الذي أريده، وبالعقيدة التي أؤمن بها.. فإني أفضل الموت.

وإني أؤمن قبل كل شيء بوجود إله عادل، وأنه سوف يحاسبني، لا على ما عملت أو على ما أنجزت من أعمال، وإنما سيحاسبني حسابا يتناسب وإدراكي للحقائق.

فما دام قد وهبني العقل الذي أدرك به، وأعرف ما أستطيع عمله، وأعرف كيف أميز بين الخطأ والصواب.. فعلى هذا الأساس وحده سوف يحاسبني على ما قصرت فيه، إذا لم أستجب له.. ذلك هو اعتقادي.

***

دنيا واحدة.. في وقت واحد

بقلم روبرت هيلر

ولد روبرت هيلر - الحائز على جائزة بوليتزر في الشعر - في مدينة أيست أورنج في نيوجرسي عام ١٨٩٥، وقد انتدب عقب تخرجه في جامعة هارفرد سنة ١٩١٧ للعمل في الجيش لمدة سنتين، عاد بعدها إلى وطنه.. فاشتغل بالتدريس في هارفرد، وأخيرًا أنعمت عليه الجامعة بكرسي الأستاذية في البيان والخطابة.

«إني لأشعر بالمجد المقبل على هذا العالم من ضياء علوي»..

هذا السطر الأخير من قصيدة بعنوان «العقيدة» لأدوين أرلنجتون روبنسون، يعبر عن جوهر عقيدتي التي أؤمن بها. وأجد من واجبي إزالة ما خلفته العواطف الجامدة والأسف والأسى والأطماع الدنيئة من آثار، حتى يمكن لهذا الضياء الباهر أن يكتسحها كلها. إن الحواس الخمس وتلك الأنفاس الغامضة التي هي سر الحياة، تنساب بنا معرجة في مدهشات هذا الكون، فيتجلى أمامنا مجد الله. وإني - وإن كنت قلما أسمو بنفسي إلى مرتبة ذلك الفيض الروحي الذي يشرق على النفس في لحظات معدودات - إلا أني متأهب مشرئب لمثل هذا السمو على الدوام.. أي أني أتحدى تلك الرغبة التي تجرفنا نحو النسيان. تلك

الرغبة التي تنال من حقيقة الإنسان وجوهره، حتى حين يدعونا الضياء إلى الإشراق الروحي الكامل.

وتلك الرغبة التي تنسينا معجزات الخليقة تتآمر على الروح، مستعينة عليها بظروفها الخارجية، وباعتبارات داخلية من صميم النفس أيضًا.. وعناصر هذا التآمر هي المتاعب والغضب والحسد والمظاهر، وهي بحكم طبيعتها تسعى إلى الأشياء التي تثور عليها، ثم هي نتيجة لهذا تقتنع بتفاهة كل شيء.. ولكنني بالتأمل والصلاة أستطيع الهرب من هذه القوى المظلمة الهدامة، والعودة إلى الآيات البينات في هذا الكون وإلى الابتهاج بالله.

إني أؤمن بالحياة بعد الموت؛ لأني –أسوة بالكثيرين– أوتيت «معرفة بالخلود». ولست أستطيع تفسير هذه الحقيقة بأكثر مما تستطيع البذرة الجامدة تفسير الشجرة الحية المثمرة.

كذلك أؤمن بحسن نوايا الآخرين، وأثق في الناس بحكم الغريزة..؟ ولقد خدعتني هذه الثقة بالناس في أمور صغيرة أحيانا، وفي أمور خطيرة أحيانا أخرى، ولكني لا أستطيع أن أتخلى عن ثقتي بالناس.. لأن الشك ليس من طبيعتي، ولن أعمد إلى هذا لأن عدد الذين برروا ثقتي بالناس هم عشرة بالنسبة إلى واحد عبث بهذه الثقة، والذي أعرفه كذلك هو أني أخفقت في بعض الأحيان إخفاقا جعلني غير جدير بثقة الناس فيَّ، وإن يكن ذلك على غير قصد مني.

أما القول بأن هذا الكون يستهدف غاية معينة، هي الكمال الروحي.. فهذا أمر منطقي، إلا إذا افترضنا أننا جميعا خلايا في مخ أبله. إن إيماني بتطور روحاني ومادي في نفس الوقت، كان من أثره أن جعلني أحتفظ بتفاؤلي رغم ما ذهب إليه المنكرون والمرجفون. وقد تنعكس الآية في قرن أو قرون، ولكن هذا الفشل تافه إذا ما قيس بمقياس التقدم الإنساني المنتظر، أو حتى ذلك التقدم الذي أحرزته البشرية إلى هذه اللحظة.

ودستوري في الحياة اليومية: «دنيا واحدة في وقت واحد» وأعني بهذا أني لا أريد أن تتعقد حياتي باعتبارات مادية. وفي نفس الوقت، لن أعلل النفس بألوان من المتاع أحظى بها في المستقبل، استنادا إلى آراء متعصبة تنكر على النفس استمتاعها بالحاضر.

* * *

أؤمن بخلود الروح

بقلم الدكتور أدموند. أ. براسيت

لم يكد ينتهي الدكتور «أدموند. أ. براسيت» من دراسته في جامعة وانهوزر، ومن جامعتي مونت ريل وهارفارد فيما بعد حتى انصرف لمزاولة الطب والجراحة مدى ثمانية عشر عاما. وعلى الرغم من مزاولته عمله هذا في ظروف قاسية، في أغلب الأحوال، فقد كان يدخر بعض وقته لكتابة تاريخ حياته، ذلك التاريخ الذي يتتبع سلسلة كفاح مرير، من طفولة فقيرة معدمة إلى أن أصبح طبيبا شهيراً. ولقد صادف كتابه نجاحا سريعا عندما نشر بعنوان «طبيب يجوب آفاق الحياة».

إن الطبيب الذي يستطيع أن يزاول نشاطه في حدود الاعتدال، يجد أمامه في عيادته، في غضون عام على الأقل، ألفين من الناس يقصدونه للعلاج. وقد حدث لي في مرحلة الأعوام الثمانية عشر التي زاولت فيها مهنة الطب أن قصدني في عيادتي عدد كبير من المرضى، الذين حدثوني عن أمراضهم، وعما ساورهم من قلق، وما اكتنف حياتهم من مآس. وقد تمخضت هذه التجارب عن حقيقة واحدة جوهرية، تلك هي أن كل إنسان على سطح الأرض، رجلًا كان أو امرأة أو طفلا، خليق بأن يعامل بالاحترام الجدير بكرامة الجنس البشري، وذلك بصرف النظر

عن قيمته في الحياة.

وما جسم الإنسان إلا أعظم آلة، صممت في إحكام دقيق، أضفى عليها من ألوان الجمال ما جعلها أجمل هيكل على وجه الأرض، والواقع أن كل عظمة من عظام الجسم تعتبر في تكوينها آية من آيات الفن. وكل عضو يبرز آيات كفاية، يتضاءل أمام إعجازها أي مهندس. وليست أصغر غدة في الجسم إلا معينا لنشاط كيمائي يتضاءل حياله إنتاج أي معمل في هذا العالم، صنعه الإنسان. ولو أن ما في الأرض من كتب في الطب جمعت فوق بعضها، لبلغت في الارتفاع مبلغ ناطحات السحاب، ولكن هذه لن تأتينا بعلم عما يجري في داخل هذا الجسم، اللهم إلا النزر اليسير الذي يتناول قشورا مما كان يجب علينا معرفته عن نشاط هذا الجسم البشري. وإنك لتجد من فوق إعجاز هذه الصورة المركزة الكاملة عنصرا آخر في الإنسان، لا هو بالآلي ولا هو بالمادي – عنصرا لا وجود له في لون آخر من ألوان الكائنات الحية التي نعرفها.. ذلك العنصر لا نستطيع رؤيته، ولن نقدر حتى على البدء في إدراك حقيقته أو العلم به، ولكنه موجود.. وبه يسمو الإنسان على سائر الحيوان.

هذا ولابد للطبيب أن يساهم في حياة عدد كبير من الناس بقدر. فهو لابد له أن يعرف متاعبهم، وأن يتألم لآلامهم. ثم هو يبذل كل جهد ممكن ابتغاء تحقيق صحتهم وسعادتهم، فإذا نجح في ذلك أمسى مغتبطا لاغتباطهم. إذ الواقع أن الطبيب الكفء، هو في حدود اختصاصه،

خادم لأقل فرد يحتاج لخدماته. ولا أستطيع القول بأنني أحببت كل رجل وامرأة قابلت في حياتي العملية -وإن كنت أحببت معظمهم- ولكن لا علاقة للمحبة بالاحترام.

هناك من الناس من يصبح مرائيا، أو كذابا، أو لصا، أو قاتلا. ولكن هؤلاء جميعا بشر، ولست أستطيع إخفاء مقتي لهؤلاء الناس في بعض الأحيان، غير أن هذا أمر مؤقت؛ لأن الكراهية لا يمكن أن تبقى على طول المدى، إلا إذا وجدت ما يغذيها ويذكى نارها بصورة مستمرة.

وأنا شديد الإيمان بالله، الذي خلق الأرض ودفعها للدوران حول الشمس. وأعرف كذلك أن هذه الأرض في حركتها ودورانها لن تظل هكذا إلى الأبد، ذلك أن حركتها تتضاءل شيئا فشيئا، ولابد أن يأتي يوم -وقد يقع بعد مليون سنة- يقف فيه دورانها، ويفنى كل شيء فيها. ولكن قبل أن يحدث هذا بزمن طويل، ستنتهي حياة البشر على سطح البسيطة، وتطوى صفحة جهودهم وجهادهم فيها فتتلاشى المدن والطرق والآلات والكتب. غير أنني، حتى إذا اختفى وتبدد صوت آخر فرد من أفراد البشرية، وخيم سكون الأبدية الجامد، فطوى هذا الكواكب، لا زلت أؤمن بخلود الروح على صورة من الصور.

***

قانون القلب

بقلم جورج فردريك

جورج فردريك رئيس مكتب العمل، وهو منظمة من منظمات البحث والنشر. وعلى الرغم من أنه المؤسس لمكاتب العمل النظامية، إلا أنه، بالإضافة إلى هذا، قد ساهم في تأسيس نادى مديري الأعمال التجارية في مدينة نيويورك. ولعل أهم ما أنجزوه من مهام في هذا المضمار، هو إكمال الأبحاث الخاصة بتسويق الإنتاج، ذلك الموضوع الذي يحظى اليوم بجانب عظيم من التقدير والاهتمام. وهو متزوج من كاتبة مشهورة بأبحاثها عن إدارة المنزل..

لقد انتهيت في آخر الشوط إلى نقطة بسيطة فيما يتصل بما آمنت به.. آمنت بما أرى تسميته «قانون القلب»، وتلك عبارة معناها في قاموس الطب، ذلك الكشف العظيم الذي انتهى إليه الأستاذ أرنست هنري ستارلنج، ويتضمن النظام الدقيق الذي يجعل القلب يسرع في دقاته ثم يتباطأ من تلقاء نفسه، مستعينا على ذلك بعضلة خاصة، هذا فضلا عن الطريقة التي يعمد إليها في إنجاز عملية حيوية ذات شقين، هي عملية تبادل السوائل فيما بين مجرى الدم وأنسجة الجسم.

وإني لأجد في نظرتي إلى هذه الحياة الدنيا أن هنالك حاجة قصوى

لعملية أخرى ذات شقين أيضًا، هي تبادل العواطف القلبية بين البشر، وهو تبادل بدونه تستحيل الروح الإنسانية والعلاقات التي تربط بين أعضاء الأسرة البشرية، إلى مرحلة من الجمود والخطورة. وما الاعتماد على الفضائل الجوهرية المجردة إلا من قبيل الأفكار الآلية الجوفاء.. مثال ذلك ما اكتشفناه من أن الأطفال لا يتقدمون بدون حب الأم، ذلك الحب الذي يحفزهم على التقدم.

وعندي أن معنى «قانون القلب» هو أن في مقدوري الظفر بسلامة العقل والجسم سلامة كاملة، بالإضافة إلى تنشئة أقوى الروابط الفعالة بيني وبين الحياة والأحياء، لو أن نفسي العاطفية الناجحة استطاعت السيطرة على غرائزي وأفعالي. فإذا ما حكمت العقل في أمر من الأمور، ثم أصغيت لإيحاء عواطفي الحقيقية، فهذا هو أصدق الأحكام وأدناها إلى النزاهة على النحو الذي يمكن أن يتسنى لكائن حي مثلي. والواقع أن للإنسان نفسا واحدة لا تتجزأ، وفي اعتقادي أنه كل متماسك يتآلف من العقل والروح والجسم، ولكن صوتا واحدا يصدر عن هذه العناصر جميعا، ذلك هو صوت القلب.

واعتقادي أن الطريقة التي يعمل بها قانون القلب في هذه الحياة، إن هي إلا صورة رمزية تفيض بأسمى المعاني التي توحي إلينا، فالذي نعلمه هو أن الإنسان لا بد وأن يعطى لأخيه الضعيف الأسوأ حظا شطرا من دمه كبرهان على روح الأخوة. ونعلم كذلك أن القلوب

والشرايين الجامدة التي لا تستجيب ولا تنفعل، قد تنتهي بالمرء إلى موت مفاجئ، بل نعلم أكثر من هذا أن القلوب التي تنسجم دقاتها مع المشاكل والآلام والأحزان والحاجات التي يشعر بها الغير، قد أوتيت علما بالموسيقى السماوية، وهو علم لا قبل لغيرها به.. وكذلك نعلم أن القلوب التي تسرع في النبض عندما تلمح الجمال والنبل أو تستهويها الشجاعة والتضحية أو يثيرها الحب والتعاطف، أو رؤية طفل أو مشاهدة ضياء الشمس لابد وأن تغدو عامرة فياضة بألوان من الحياة ترتل أناشيدها التي لا يفقهها الغير. ونحن نعلم آخر الأمر أن هؤلاء الذين يكبحون غرائز القلب الطبيعية قد ينتهي بهم الأمر إلى إيقاف تيار عاطف جموح ورثهم الجمود والتبطل.

وإذن، فالقانون الأول من قوانين القلب –وهو ما أستطيع توكيده هنا– هو أن يخفق، وأن يحب، فإذا فقدت هذا الخفقان أو الحب، فأنت في طريقك إلى موت روحي عاجل أكيد. وهنالك عدد كبير جدًا من الناس، يبدو أنه قد شغلته نفسه، فوقع تحت نيرها الباطش، فلم يعد قادرًا على الحب أو راغبا فيه. أما القانون الثاني من قوانين القلب فهو، على ما أعتقد، الإعطاء والتسامح والتضحية. وتفصيل ذلك أن القلب هو معين الإمداد والإغداق لكل ذرة من ذرات الجسم الدفينة، كما أن عضلة القلب هي أقوى عضلات الجسم طرا.

تلك هي الأشياء التي أعرفها وأؤمن بها.. وهي الأسس التي أقيم

عليها صرح فلسفتي عن هذه الحياة الدنيا. وهي فلسفة أرى فيها دستورًا نافعا لنفسي. أنها تقربني إلى الأرض.. ولكنها، مع ذلك ترفع رأسي عاليا في السماء.. إن قلبي ليكاد يلمس الحقيقة الأزلية. وفي اعتقادي أن القلب المثقف الناضج هو أنبل ما في الإنسان، بل هو أمل هذا الوجود.

* * *

عشت أربع مرات

بقلم السيدة أليس طومسون

السيدة آليس طومسون، ناشرة ورئيسة تحرير إحدى المجلات الأمريكية المعروفة وقد عملت لدى تخرجها في كلية «سوار تمور» في دار النشر الصحفية المعروفة باسم «كوندي ناست» وظلت بها إحدى عشرة سنة، أسست خلالها مجلة «جلامور» وكانت رئيسة لتحريرها أكثر من سنتين.

إني أعيش حياة ذات شعب أربع: فأعيش كزوجة، وكأم، وكعاملة، وكفرد في المجتمع. نعم، هذه مهام مختلفة متباينة.. ولكن تربط بينها، برباط وثيق، قوتان رئيستان: الأولى: محاولة الاستكشاف والفهم، وقبول آراء أناس آخرين، والثانية: إيمان بمسئوليتي تجاه الآخرين.

وقد بدأت الفترة الأولى منذ طفولتي، حينما انطلقت أنا وأبي نمثل «شكسبير». وأبى والدي أن اقتصر على مجرد ترديد مناجاة هاملت الحالمة ترديد الببغاء، أو أن أصنع مثل ذلك في منظر اليسير أثناء النوم في مسرحية الليدي ماكبث، أو التحليل النفسي «للكاردينال وولزي». ولقد وجهني توجيها رائعا آسرا، وهو يساعدني على إدراك البواعث المتوارية وراء الألفاظ الشعرية.

ومضى في إثارة حبي الشديد للاطلاع على أحوال الآخرين أستاذ في الكلية، فحوله -بقدوته الطيبة- إلى اهتمام عميق وإحساس بالمسئولية، نبع -ليس فقط من المبادئ الدينية الجامدة- وإنما من اهتمامي بكل ما أتلقى، وإيماني بوجوب مواجهته في انشراح وسرور.

وأعتقد أن هذا القبول، وهذه الرقة التي يواجه المرء بها الآخرين، أمران لا يمكن تحقيقهما، بدون الاعتراف بجوهر النفس الإنسانية. وقد حدث في أواخر العقد الثالث من عمري أن بدأت أعرف غرائزي، وكنت حرة في مواجهتها وفي إدراك أنها ليست فريدة في نوعها ولا هي مما يستحيل تحقيقه.

والحياة الغنية السعيدة التي أحياها تقدم لي دليلا جديدا في كل يوم على صدق فلسفتي وصحتها في انطباقها عليَّ. وهذه الفلسفة ناجحة تماما في الحياة الزوجية.. فالزواج الحقيقي تفاهم وقبول مستمر متصل، يؤيدهما ويشد من أزرهما مسئولية متبادلة عن إسعاد القرين لقرينه. وفي كل يوم أسير معززة قوية لمعرفتي أنني أحب زوجي وأن زوجي يحبني، وتنطبق نفس هاتين القوتين على علاقة الأم بأطفالها. والألفاظ تعجز عن وصف الجهود التي أبذلها لفهم أطفالي، بيد أن ديني العظيم لهم لفهمهم عني، هو دين عجزت في معظم الحالات عن الوفاء به. كيف أكون مبالغة في تقدير شاب صغير السن، له من الخيال والعطف وحسن التفكير ما يجعله على الدوام يبعث برسالة تليفونية للاستفسار

عندما يسبب التأخير عن الحضور قلقا، وما يجعله على الدوام يعرف كيف يطمئن النفس ويهدئ من روعها. كيف يمكنني أن أفي بدين ذلك الذي حمل كل أعباء الرجولة –وهو ما يزال في طور البلوغ– بروح قوية ثابتة مرحة.

إن عملي نفسه يعتبر توكيدا للمبادئ التي أعيش من أجلها. ففي البكورة الأولى لحياتي العائلية، كنت ترسًا صغيرًا في عجلة صغيرة في مصنع هائل.

وما أن هجرت عملي المتواضع حتى وجدت أمامي عالما عجيبا مخيفا. ولقد كان كل فرد فيه ينطوي على مودة سطحية. ولكن تحت ذلك السطح، كان هناك الشك وعدم الثقة.. وكانت اليد متأهبة على الدوام لكي تسدد الخنجر في الظهر.

ولقد ظللت سنوات أحسب أنني في عالم غاص بالوحوش البشرية.. ثم بدأت أعرف رئيس الشركة التي كنت أعمل بها، ولم يكن لديَّ سبيل لمعرفة حقيقته، ولكنه هو في السبعين، كان كثير الشكوك عديم الائتمان لأحد واثقا من أن أحدا لا يقول له الحق. ولقد برع في تنفيذ خطة قوامها أن يشي كل واحد منا بالآخر. ولما لمست فساد أساليبه، صرحت في حماسة الشباب، بأنني إذا قدر لي ذات يوم أن أدير عملا، فسيكون ذلك على أسس مغايرة لأسسه.

وفي غضون السنتين الأخيرتين، أتيحت لي فرصة مراقبة الناس

على اختلاف نحلهم وتباينهم- وهم يتعلمون كيف يفهم بعضهم البعض الآخر، وكيف يقبل بعضهم آراء الآخرين، وكيف يشعرون جميعا بمسئوليتهم المتبادلة.

ولقد تحولت محاولاتي وأخطائي، وتجمعت متركزة في إيمان واحد عظيم، هو أنني لست وحدي فيما أحس به من رغبة في الاتصال برفاقي في الإنسانية، وأعتقد أن الجنس البشري ينطوي على التعاون الغريزي الصادق، وأن كل فرد يهمه أمر شقيقه في الإنسانية.

***

كلنا نحمل الآلام

بقلم السيدة مارتي مان

السيدة مارتن مان رئيسة الهيئة التنفيذية للجنة الوطنية لمكافحة المسكرات، وهي ابنة أحد مديري المتاجر الكبرى بأمريكا وقد عادت إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٢٦ بعد إتمام دراستها في أوروبا، فوقعت فريسة العادة المنتشرة حينذاك، إلا وهي غشيان مشارب الخمر. ولما استبدت بها هذه المحنة، اضطرت إلى أن تنقطع عن عمل كان ينطوي على آمال وضاءة مشرقة. ولم يكد يتم شفاؤها من داء إدمان الخمر في مصحة «بلايت وود» حتى أصبحت أول امرأة عضو في جماعة منع المسكرات.

كنت واحدة من المدمنات على تعاطي الخمر، ولكني من السعداء الذين وجدوا السبيل إلى الشفاء. حدث ذلك عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري، ولكنني لم أنس، بل إني لأذكر كيف يصبح المرء فاقد الآمال، إذ يقع فريسة لداء الخمر الوبيل. ولازلت أذكر كيف كنت أبحث عن العون بحثا مشوبا باليأس.. فلما أخفقت في العثور عليه، أحسست بما لا زلت أذكره من اليأس.

إني لأذكر السخرية والاستهتار اللذين واجهت بهما العالم، على الرغم من مخاوفي الرهيبة الدفينة.. مخاوفي من الحياة، ومخاوفي من الموت.

فلقد كنت في بعض الأوقات أخشى الحياة أكثر مما أخشى الموت، حتى لقد سعيت إلى الموت مرتين. ولقد بدا لي أن الانتحار هو المنقذ الوحيد من رعب وعذاب عجزت عن النهوض بعبئهما.

وكم أنا اليوم سعيدة لأنني لم أوفق في محاولة الانتحار. ولكنني لم أكن أؤمن بشيء حينذاك، لقد كنت محبوسة بين جدران أربعة مع آلامي، أشعر بأني وحيدة مخذولة مهجورة، ولكنني بطبيعة الحال، لم أكن منبوذة.

والحق أنه ما من أحد يعتبر منبوذا مهجورًا في هذا الوجود. لقد خيل إليَّ أنني أقاسي الآلام وحدي.. ولكنني أؤمن اليوم بأنني لم أكن قط وحيدة، وأن أحدا منا ليس وحيدا أبدا، وأعتقد كذلك أنني لم أقاس قط من الآلام أكثر مما كان يمكنني احتماله وأن هذه الآلام كانت ضرورية ولازمة لي حتى تحطم الجدار القائم حول نفسي، وتدمر وقاحتي وسخريتي وتكبري، وتدعني أبحث عن العون وأتقبله.

ولقد بدأت أؤمن بذلك وأنا رازحة في أعمق أعماق آلامي، بدأت أؤمن بأن هنالك قوة أعظم يمكنها أن تساعدني، بدأت أؤمن بأنه من أجل هذه القوة –من أجل الله– يوجد قسط من الأمل والعون لي وحدي.

وجدت العون يوجه إليَّ من الناس، من الأطباء الذين تقتضيهم مهنتهم معالجة الآلام، ومن غيرهم من الناس الذين سبق أن عانوا على

النحو الذي أعاني. وفي أعماق الهوة السحيقة لمحنتي الشخصية، تلقيت العطف والعون وحسن الإدراك من أشخاص كثيرين. ولقد تبين لي أن في وسع الناس أن يكونوا شديدي العطف. وأصبحت أؤمن بهذا إيمانا عميقا.. أصبحت أؤمن بالناس، وبجانب الخير الذي ينطوون عليه.

وانتهى بي الأمر إلى التحقق من أن معاناة الآلام مسألة يشترك فيها الناس كافة. وهذه الآلام قد تتوارى خلف كثير من الألفاظ القاسية والتصرفات الجارحة التي تجعل حياتنا اليومية عبئا لا يحتمل ولا يطاق في كثير من الأحوال، وقد أدركت أنني، متى فهمت هذا ووعيته صرت خليقة بأن أتصرف في معظم الأحيان تصرفا مجردًا من الغضب ومنزها عن الإساءة. وأدركت أنني إذا عرفت كيف أتصرف مع ذوى الأخلاق الفظة تصرفا ينطوي على العطف وحسن الإدراك، فقد أساعدهم على تغيير سلوكهم وتعديل تصرفاتهم. لقد أعانتني آلامي على معرفة الكثير من حقائق الأشياء.

ولست أعتقد أنه ينبغي لكل فرد أن يعاني الآلام، ولكنني أؤمن بأن الآلام قد تكون مفيدة، بل وضرورية، إذا عرف المرء كيف يتقبل هذه الآلام باعتبارها جزءا من عملية التعليم الأساسية للإنسان، وإذا عرف كيف يستغل هذه الآلام في الأخذ بيده، وبأيدي سواه من إخوانه المعذبين.

ألسنا جميعا نحتمل الآلام بطريقة أو بأخرى؟.. إن هذه الحقيقة

تملؤني بإحساس عميق من الزمالة والمشاركة مع غيري من الناس، كما تملؤني كذلك رغبة في مساعدة الآخرين بأية وسيلة أستطيعها.

إن هذا هو الإيمان الذي ينطوي عليه عملي الآن؛ لأن مكافحة المسكرات هي الميدان الذي أعددت له خير إعداد –نتيجة لتجاربي الخاصة– كي أعين الآخرين وأساعدهم. وأعتقد أن محاولة مساعدة رفاقي في البشرية هي طريق من أكثر الطرق استقامة في سبيل تعزيز الترابط الروحي. إنه طريق يستطيع أن يسير فيه كل إنسان، وليس من المهم أن يكون المرء جميلا أو موهوبا أو غنيا أو قويا، لكي يهب يدا معينة مساعدة لرفاقه المعذبين.

***

ملف حول التل في هوادة

بقلم داريل. ف. زانوك

داريل. ف. زانوك من مواليد واهو من أعمال ولاية نيبراسكا. ولقد زار كاليفورنيا وهو بعد غلام صغير، وسرعان ما عقد العزم على أن يعمل في صناعة السينما. وهو الآن نائب لمدير قسم الإخراج بشركة القرن العشرين -فوكس- وهو المخرج الوحيد في تاريخ هوليوود الذي استطاع أن يظفر بجائزة أيرفنج تالبرج في ثلاث مناسبات. كما ظفر بثلاث جوائز لأكاديمية الصور المتحركة.

دلتني تجاربي الكثيرة على أن الفضائل التي تعلمتها وأنا صبي، لا تزال هي بعينها الفضائل الجوهرية. لقد تغيرت وجهة نظري بطبيعة الحال عبر السنين، وكذلك تغيرت وجهة نظر أصدقائي. ولكن تغير وجهات النظر هذا يشبه صبيا صغيرا وهو يحدق صوب تل فوق أحد السهول. فالتل لا يزال كما هو، بيد أن الصبي الصغير يراه من زوايا مختلفة في مراحل نموه.

ولقد حاولت على الدوام أن أسير حول كل «تل» في حياتي، منذ ذلك الحين، حتى أستطيع أن أراه من كل زاوية. وأحسب أن هذا التصرف يكشف عن الفرق بين الأمانة والروح الساخرة المستهزئة.

أنك حينما ترى التل من كل زواياه تتاح لك فرصة أفضل لكي تحتفظ بجهودك مركزة.

فإذا ما رأيت التل من زاوية واحدة فقط تعرضت لخطر هائل قد يؤدي لأن تكون مستهزئًا ساخرًا.

ومن الفضائل الأساسية التي خففت عني متاعب الحياة كثيرًا، من أيام طفولتي حتى الآن، فضيلتان اثنتان هما: الإخلاص، وحب الخير، وليس الإخلاص مجرد اصطلاح، وإنما كان لي بمثابة قاعدة أساسية للحياة. ولست أعني بذلك مجرد الإخلاص والولاء لأصدقائي وأسرتي وإنما أعني به الإخلاص للقيم الأمينة التي تقوم البلاد الناهضة القوية على دعائمها. وعندي أن هذا العنصر الذي أسترشد به إلا وهو ولائي وإخلاصي، يستهدف بالضرورة ولاء المرء وإخلاصه لنفسه.

ولقد ثرت، وأنا بعد يافع، على الكثير من الأشياء، وناضلت ضد طائفة من الأفكار والمبادئ الأساسية في الحياة.. ولكنني وجدت، بعد كثير من الثورات، وبعد طوافي بعين العقل حول التل القائم بين سهول نيبراسكا، أن هذه الفضائل لم تنتق عبثا عبر القرون.

والإحسان إلى الناس مبدأ آخر كان سببا لارتياحي العظيم في كثير من المواقف الحرجة.. إن الإحسان شيء يجب أن نتعلمه، ولقد كنت سعيدا جدًّا في حياتي؛ لأن ظروفي ساعدتني على عمل الخير، وينبغي ألا ينتظر المرء أية مكافأة عن الإحسان أكثر من الارتياح الذي يحدثه في النفس.

فإذا ساهمت في عمل من أعمال الخير فيجب أن تشعر نفسك بالراحة من كل قلبك. وأي نوع آخر من أنواع الإعطاء يعتبر خيانة رهيبة للحياة نفسها. والحق أن الإحسان والإخلاص، هما الشيئان اللذان أثرا في حياتي تأثيرًا عميقا، أجل، لقد كانا مصدر ارتياحي العظيم في كل يوم عشته.

وقاعدة الولاء هذه جعلتني أراجع في ختام كل يوم مجال نشاطي طواله.. حتى أتأكد أنني لم أسئ -عن قصد- إلى أحد في مجال نشاطي اليومي.

ولقد حاولت دائما أن أصلح الإساءات التي تسببت فيها قبل نهاية اليوم، ولا ريب أن هذا عمل ينطوي على الأنانية، لأنني أدركت أن هذه المراجعة مني لتصرفاتي في كل يوم تجعلني أنام نوما طيبا.

وهكذا استطعت أثناء سيري حول التل المشرف على السهل كل يوم من أيام حياتي أن أهتدي إلى أن الفضائل هي نفس الفضائل على الدوام، سواء كنت في لندن أو باريس أو روما أو القاهرة أو نيويورك أو هوليوود أو واهو أو نيبراسكا.

إني لمدين لهذه الفضائل العتيدة التي تعلمتها، وأنا بعد صبي في نيبراسكا، وأرجو أن أزود على الدوام بقسط واف من التواضع الصحيح، أعرب به عن امتناني وشكري، إذ ولدت في بلد أتاح لي مثل هذه الفرصة.

فضائل الحياة

بقلم هاري. ج. بليك

هاري. ج. بليك من أشهر تجار الصوف، وهو رئيس شركة بليك بمدينة بوسطن، وكان مديراً لغرفتها التجارية. ولا يقتصر نشاطه على الأعمال التجارية والاقتصادية، وإنما تجاوزه إلى المساهمة في مشروعات اجتماعية وخيرية عديدة، منها إنشاء المستشفيات والمدارس وإعداد المخيمات الصيفية للبنين والبنات.

حدث ذات ليلة من ليالي الصيف الماضي أن كنت جالسا في حديقتنا مع زوجتي ونجلينا. وكان الولدان في أجازة آخر الأسبوع، وهي بالنسبة للولد الأكبر آخر أجازة تعقبها فترة طويلة من البعاد والغياب.

لقد كان ضابطا في البحرية يناهز الرابعة والعشرين من العمر، أما الأصغر -وهو في العشرين- فقد كان جنديا في الجيش، ولكنه أقبل من فورت ديكس ليودع أخاه.

وكنا وقتئذ نسرد الذكريات الجميلة عن طفولتهما، فرحين بهذه الذكريات وبالحديث عن مختلف شئون الأسرة.. ولكن هذه الجلسة العائلية العاطفية لم تكن لتخلو من التعرض لمسائل مهمة.

لقد سألني أولادي عن أهم الصفات التي يجب -في نظري- أن يتحلى بها الإنسان في هذه الحياة.. ولقد فكرت في هذا الموضوع برهة، ولكني أدركت على الفور أن الفضائل الثلاث الأساسية -وهي: الإيمان، والأمل، والإحسان- هي الأساس لكل شيء خليق بالجهد، بل منها وحدها ينبع كل ما فيه الخير. فهي تمثل فينا ذلك الحافز القوي الذي يدفعنا إلى الوفاء بالتزاماتنا نحو خالقنا ونحو المجتمع... بل هي في حد ذاتها الأساس لما نحرز من نجاح دنيوي أو مادي.

ولقد أكد لي ولداي أنهما على بينة من تلك الحقائق البسيطة المعقولة.. ولكنهما اقترحا عليَّ -رغم هذا- أن أعرض لما أقول في شيء من التفصيل، مبتدئا من وجهة النظر التي تحاول تطبيق هذه الفضائل بصفة علمية، وأن أستطرد بعدها إلى تلك الصفات أو الخصائص التي تؤهل الإنسان لحياة موفقة في عمله، وكذلك لتحقيق السعادة في الحياة. وطبيعي أننا اتفقنا على أن الإيمان -وهو أعظم هذه الفضائل جميعا- إن هو إلا اعتقاد الإنسان في وجود الله. ومن المؤكد أن الإيمان هو المصدر الذي يستقي منه الإنسان ولاءه لوطنه وبيئته وأصدقائه.

وما الابتكار إلا نتيجة لهذا الإيمان، كما أن النزاهة والثقة هي الأسس الجوهرية التي يقوم عليها، والأمل هو القوة الفعالة في عزيمة الإنسان وشجاعته أقصد تلك الإرادة التي تستهدف النجاح، والوازع الذي يحفزك إلى الإنجاز، بالإضافة إلى القوة التي تحدوك إلى المقاومة..

وهي عتاد الأمل ومعين قوته. ثم تأتي بعد ذلك يد الإحسان العطوف تلك هي الرحمة والإيثار والتواضع والشفقة، وهي الفضيلة المتعددة النواحي، بل هي أعظم الفضائل جميعا.

ومهما تباينت صور الفضائل الثلاث، فهي على الدوام عماد حياتنا الدنيا في نطاقها الواسع الذي اجتزناه منذ ولدنا. وأخيرًا، هبنا أسأنا تطبيق بعض هذه الفضائل عبر الطريق، فليس من العسير أن نصلح ما اعوج من الأمر وأن نستعيد العمل بها، ذلك أنها معين لا ينضب نستطيع الاستقاء منه جميعا، متى توافرت لدينا نية الاستفادة منه والعمل به.

وكان الظلام يطوي الحديقة عندما انتهينا من هذا الحديث واتفقنا على أن الإيمان وَالأمل والإحسان —وهي فضائل أزلية كأزلية الشمس في مشرقها وغربها، أو قديمة قدم المد والجزر في البحر، أو خالدة خلود الجبال— مازالت تحتفظ بطابعها الجديد، كالمخترعات الحديثة الجبارة في الكيمياء والعلم. إنها في الواقع فضائل يومنا هذا، كما كانت فضائل أجيال مضت.

وأخيرًا... إن هذه الفضائل العظيمة التي تتسم بالكمال والبساطة، يرجع إليها الفضل فيما أنجز البشر من معجزات. ذلك هو ما علمتني الحياة.

***

الحرب وسيلة الجبناء

بقلم لي بريستول

تخرج في كلية هامتلون، وأصاب نجاحًا كبيرًا في الأعمال الحرة، وهو الآن مدير لإحدى الشركات الكبيرة في نيويورك، ويشترك في كثير من الجمعيات القومية العاملة لخير المجتمع ونشر الأخوة والمحبة بين الناس. وفي سنة ١٩٤٧ رأس حملة صحفية قامت بها هيئة الدعاية والإعلان لنشر المبادئ القويمة ومكافحة الفوارق الجنسية والدينية بين الأهلين، فأثبت بالدليل العملي أن استخدام الإعلان في هذا الميدان أبعد أثرا من استخدامه في ميادين التجارة والصناعة.

في مثل مجتمع معقد كالذي نعيش فيه، لا مناص للفرد من أن يشعر أحيانا بشيء من القلق والارتباك. وكثيرون من الناس يرجعون هذا إلى المشكلات العامة التي يعانيها المجتمع أو العالم كله، ولكني أعتقد أن الحل الأساسي لمشكلات الأفراد والجماعات يجب أن يوكل إلى الفرد نفسه أولا وقبل كل شيء. فالواقع أن لكل فرد منا جانبا روحيا تمتد جذوره إلى أقصى أعماق نفسه؛ وهو لذلك لا يستطيع أن ينسى هذا الجانب أو يتناساه، مهما يخيل إليه أنه جانب سطحي من السهل نسيانه أو تناسيه.

وليس من شك عندي في أن الأساس الذي يقوم عليه جانبي الروحي هو الإيمان بالخالق، وبما يتجلى في الكون من مظاهر قدرته الخارقة على الإبداع والتنظيم. ومن هنا وقر في نفسي أن السعادة الحقة في هذه الحياة الفانية لا يمكن أن يحصل عليها الفرد من طريق الأنانية وحب الذات فقط، بل عليه في الوقت الذي ينشد فيه السعادة لنفسه أن ينشدها للآخرين، وبذلك يرضى ذلك الجانب الروحي في نفسه، ويكون تصرفه متفقا مع إيمانه بالله، ومع إيمانه بواجبه في الحياة.

نعم، إن الخدمات التي يؤديها الفرد لغيره هي الطريق الصحيح إلى إسعاد نفسه؛ لأنها هي الزكاة التي يؤديها عن حياته التي وهبها له الله. أما الأنانية والأثرة وحب الذات فهي لا تستطيع أبدا أن تحقق لصاحبها سعادة حقة، وهي في الوقت نفسه تحيط حياته بالمنغصات، بل إليها يرجع ما يشكوه العالم كله من ظلم وفساد، بين الجماعات والأفراد.

والواقع أن كل إنسان ينشد السعادة لابد له من أن يقبل على الحياة بروح سهلة طلقة طابعها المرح والبساطة، كما يجب عليه أن يحرص دائما على أن يكون منسجما مع نفسه ومع من حوله، ليسعد ويسعدوا بحسن التفاهم والتعاون المثمر.

ولئن كان أسلافنا قد أتيح لبعضهم أن يعتنقوا هذه العقيدة استجابة للعظات الدينية التي غرست في نفوسهم حب الخير أملا في الجنة التي وعد بها المتقون في الحياة الآخرة، وخوفا من نار الجحيم التي

أعدت هناك عقابا على الأنانية وحب الذات، فما أحرانا اليوم بأن نعمل بهذه العقيدة لكي نسعد أنفسنا ونسعد العالم الذي نعيش فيه بالقضاء على أسباب الشقاق والمظالم التي تذهب بسلامه وأمنه وسعادته.

لقد كتب «توماس مان» يوما عن الحرب فقال: «إنها الطريق الذي يسلكه الجبناء فرارًا من مشكلات السلام». والواقع أننا لو استطعنا أن يرسم كل منا لنفسه طريقا مستقيما لتنظيم حياته على أساس تبادل المحبة والتعاون مع الآخرين، فإنه في الوقت نفسه يكون قد وجد الطريق إلى إسعاد العالم واستمتاعه بالاستقرار والسلام.

* * *

للحياة قيمة سحرية كبرى

بقلم توماس مان

ولد توماس مان في بلدة ليباخ الألمانية، ونشأ في رعاية أسرته العريقة الثرية ذات النفوذ الواسع، فبرزت مواهبه في سن مبكرة، وعرفه العالم أجمع على إثر نشر قصته الخالدة التي صدرت في ألمانيا قبل عهد هتلر وبيع منها أكثر من مليون نسخة. وزاد في شهرته ظهور قصته الثانية «جبل السحر» سنة ١٩٢٧، ثم حصوله على جائزة نوبل في الأدب بعد سنتين. ويعده الكثيرون خليفة «جوته». كما يعد كتابه «يوسف وإخوته» في مقدمة الكتب العالمية الخالدة. وقد هاجر إلى أمريكا وجرد من جنسيته الألمانية لعداوته للدكتاتورية. ومازال مقيما بسانت مونيكا في ولاية كاليفورنيا.

ليس كالفناء حقيقة ناصعة استحوذت على شعوري وتفكيري، فقدرتها حق قدرها عن عقيدة وإيمان. وقد يبدو الفناء –وأعني به زوال الحياة– شيئا محزنا إلى أقصى حد، لكنه عند من أمعن النظر فيه ليس فيه ما يحزن، فما هو إلا حقيقة الحياة وجوهرها.. وهو الذي يضفي عليها قيمتها وكرامتها وأهميتها؛ لأنه هو الذي يخلق الوقت، والوقت هو جوهر الحياة، أو هو –على الأقل– يمكن أن يكون أعظم النعم وأكبرها

نفعا في الحياة، لما هناك من صلة قوية بينه وبين ضروب الابتكار والنشاط والتقدم كلها، أو لأنه في الواقع هو كل هذه الأشياء!

والفناء يخلق الوقت؛ لأن الوقت لا يمكن أن يوجد ما لم يكن هناك فناء، وبعبارة أخرى ما لم تكن هناك للأشياء بداية ونهاية، أو ميلاد ومات!

إن للحياة قيمة سحرية كبرى، وفي طبيعة كل إنسان ما يجعله يتشبث بالحياة ويتعلق بأهدابها ما استطاع إلى ذلك سبيلا. ولكن الناس جميعا يعلمون علم اليقين أن هذه الحياة موقوتة، لابد أن تكون لها نهاية كما أن لها بداية. ومن هنا كانت تلك القيمة الكبرى للحياة، وكان الإيمان ببدايتها ونهايتها، أو الإيمان بالفناء، أهم ما يميز الإنسان من بين بقية الكائنات.

ثم إن العلم بفناء الحياة هو الذي يبعث في الإنسان تلك القوة المتأججة العاملة، وهو الذي يمد روحه بالقوة المعنوية، ويوجب عليه أن يكون على بينة من أمر الوقت وقيمته. على أن هذا لا يعني أن الإنسان وحده قد اختص بالروح، فالواقع أن الكائنات كلها تحمل طابع الروحانية، ولكن روح الإنسان قد امتازت بقوة الوعي والإدراك، بفضل ما أوتيت من معرفة بالحياة والفناء وتعاقبهما.

ومثل الوقت للإنسان كمثل قطعة من الأرض أعطيت له ابتغاء حرثها والقيام عليها. فهو فسحة من الأجل ينشط فيها الإنسان لتحقيق

أسمى معاني الإنسانية، ويستطيع من طريقها أن يستخلص الباقيات الصالحات من الذاهبات الفانيات.

إني أؤمن، كما يؤمن جميع الناس، بأن هذه الأرض التي نحيا عليها يجب أن تستأثر من دون بقية أجزاء الكون بالجانب الأكبر من عنايتنا واهتمامنا، كما أني أؤمن إيمانا عميقا بأن خلق الكون من العدم، وخلق الحياة من مادة غير عضوية، لم يكن هدفهما إلا خلق الإنسان آخر الأمر.

فخلق الإنسان إذن تجربة كبرى لو فشلت نتيجة لإجرامه لكان هذا الفشل أمرا أخطر مما لو فشلت تجربة خلقه.

وسواء أصحت هذه العقيدة أم لم تصح، فلا شك في أن سلوك الإنسان في حياته مسلك المؤمن بها، جدير بأن يجعله أصلح وأسعد في الحياة.

***

هذا طريقي للنجاح

بقلم هربرت. هـ. لهمان

تخرج هربرت لهمان في كلية وليام سنة ١٨٩٩، وأمضى ثلاثين عاما في ممارسة الأعمال التجارية والصناعية، ثم انتخب نائبا لمحافظ نيويورك، فمحافظا لها. وفي سنة ١٩٤٣ وقع عليه الاختيار لشغل منصب المدير العام لإدارة المعونة والتعمير التابعة للأمم المتحدة، ومنح ميدالية الخدمة الممتازة، ثم صار عضوا في مجلس الشيوخ.

هناك عقيدتان، كانت لهما السيطرة على تفكيري، في حياتي الخاصة والعامة: أما إحداهما فقد تبدو للقارئ أمرا عاديا وهي أن الحياة لا تعطينا إلا بقدر ما نقدم من خدمات، وأما الأخرى فهي أن من الضروري أن نحترم آراء غيرنا وإن اختلفت عن آرائنا كل الاختلاف.

وعلى هذا عشت في كل أطوار حياتي، مؤمنا كل الإيمان بأني مدين للحياة بقدر ما هي مدينة لي، وكنت لذلك حريصا على الأخذ بهذه الفلسفة التي أعتقد صدقها في كل عمل أقوم به، وفي كل علاقاتي بالآخرين، سواء في ذلك أهلي أو من أعمل معهم!

ولقد دلتني التجارب العديدة على أن كل أمر أفعله، أو أقوله، أو

أفكر فيه.. لابد أن يكون له أثر مباشر في علاقاتي بمن يعنيهم هذا الأمر، ولا بد أن يكون هذا الأثر متفقا مع العدل والجزاء الحق؛ ذلك لأن معاملتي لغيري هي في الواقع تمهيد للطريق الذي ينبغي لهم أن يسلكوه في معاملتهم إياي، فالاحترام يبعث على الاحترام، والبغضاء تورث البغضاء، والارتياب يحمل على الارتياب. ومن هنا قيل بحق: «**إذا شئت أن تحصل على صديق مخلص أمين فالطريق إلى ذلك أن تكون صديقا مخلصا أمينا**».

إن الإخاء والتعاطف والشفقة والآداب الإنسانية وتكافؤ الفرص وقيمة الحياة، وما إلى هذا، كلها من الفضائل والحريات المدنية التي نعتز بها، لا يمكن أن تكون حقائق واقعة نمارسها في حياتنا، إلا إذا حرصنا دائما على احترامها وتطبيقها.

ولا شك في أن احترامي حرية الرأي، وحسن استماعي لآراء غيري وإن خالفت رأيي الخاص، مما أكسبني كثيرًا من الدروس النافعة. وإذا كان تاريخ الأمم قد دلنا على أنه ما من أمة استطاعت أن تحتكر لنفسها الحكمة أو العلم أو غيرهما من المواهب، فليس من العقل إذن أن يظن أحد أن فردًا من الأفراد –مهما يبلغ من الحكمة والعلم– يمكن أن يكون في ذلك أوفر حظا وأكبر نصيبا من أمة قوية كاملة، فلا يكون الرأي إلا ما يراه هو وحده لا سواه!

وفي يقيني، أن مثل ذلك الاستبداد بالرأي، والاستهانة بآراء

الآخرين، إنما يرجعان إلى ضعف ثقة صاحبهما برأيه، وإلى شك في قدرة هذا الرأي على الصمود للمناقشة والموازنة بينه وبين غيره من الآراء.

وإنه لمن التجني على المبادئ الديمقراطية الجوهرية، أن يحاول أحد منا أن يفرض رأيه فرضا على مواطن آخر، أو أن يمنع هذا المواطن من إبداء رأيه في أي موضوع.

ولنا جميعا أن نتفاءل خيرا، وأن نطمح إلى مثل أعلى لمستقبل بلادنا ولأولادنا وأحفادنا من بعدنا، ما بقيت حرية الرأي مكفولة لجميع المواطنين.

* * *

معونة الغير سبيل السعادة

بقلم نوريس. ا. دود

نوريس. ا. دود، ولد في سنة ١٨٧٩، وتعلم الصيدلة وفتح عدة صيدليات، ثم تحول للزراعة واهتم بها، وصار صاحب مزارع، خبيرا في الزراعة. وهو رئيس إحدى منشئات الأمم المتحدة التي تشرف على الزراعة.

كان أبي مريضا في السنين القصيرة التي عرفته فيها وتوفى أثناء صباي. وقد اعتاد أن يجلس على عتبة الدار كلما سمحت له صحته أو كلما سمح له الجو بذلك، وكان يلقى عليَّ شيئا من فلسفته التي كان لها أعظم الأثر في حياتي.. وهذه إحدى القصص التي كان لها أكبر الأثر في نفسي: إذ بينما كان أحد أثرياء بلدتنا مارًّا بإزاء دارنا بدرت مني إشارة إلى تمجيد الثراء.

وربما كان ذلك راجعا إلى رقة حالتنا، فرد أبي عليَّ بأن ذلك الرجل ليس ثريا وقد يكون لديه أموال مكدسة ولكنه في فقر مدقع؛ لأنه لا أصدقاء له، كما أضاف أبي قائلاً: إني أعلم تماما أن هذا الرجل في غاية التعاسة فإذا لم يكن للمرء أصدقاء فليس في إمكانه أن يتم شيئا.

وكان لجدتي كذلك عليَّ أثر كبير، لقد كانت تؤكد أمرًا واحدًا أكثر مما عداه ذلك هو العيش مع الناس. وكانت تنصحني بقولها أن أعيش طول حياتي مع الناس. وكانت ترى أن لي أن أختار الطريق التي أحب،

ولكنها كانت تظن أني سأكن أسعد حالا إذا سلكت إلى معونة الناس سبيلا.

معونة تمكنهم من أن ينجزوا أعمالهم بدلا من أن ينحصر تفكيري في أعمالي الخاصة.

ولقد حللت في غرب الولايات المتحدة منذ خمسين عاما فلم أجد بها ما كان سهل المنال في الولايات الوسطى. فلا مدارس ولا صيدليات ولا أطباء أسنان ولا شيء من ذلك. ولقد هيأت لي الظروف أن ألقي نظرة على البلاد المحرومة من هذه الأشياء وعلمت من سكانها أنهم يرغبون في أن يكون لديهم مخزن للأدوية، وطبيب، وطبيب أسنان. وبناء على ذلك أسست صيدلية في أول بلد حللت بها وقصدت إلى الكلية وانتزعت منها طبيبا حديث التخرج متزوجا وعلى درجة بينة من رقة الحال، كما انتزعت طبيب أسنان من كليته، وبدأنا نخلق منا جماعة كان تأسيسها مصدر سعادة لنا.. وهكذا توافر لنا في هذا الوسط جملة من الأصدقاء أسفوا عندما غادرت المكان أنا والطبيب.

وذهبت بعد ذلك إلى «بيكر» إحدى مدن ولاية أوريجون، وأديت فيها نفس الدور وأحسب أنني قمت به حينذاك من أجل المال. والواقع أن شيئا آخر كان يحفزني إلى القيام به.. ذلك هو الارتياح لرؤية عمل بدئ وتم لصالح المجتمع.

وذهبت بعد ذلك إلى «ولوا» على بعد مائة ميل من سكة الحديد.

وعلى من يتحرق لأداء الخدمات الطبية أن يقطع المسافة في ثلاثة أيام أو أكثر. وفيها قمت بنفس العمل. ثم عدت إلى هينز في سنة ١٩٠٤ ولم يكن بها خطوط تليفونية ولا أطباء أسنان ولا معارض للصور ولا مراقص، فأمدنا السكان بهذا كله.

وأعلم أني لم أقم بما قمت به إلا بدافع محبتي للناس، وكنت أحب أن أتخذ من الناس أصدقاء لي. وكان عليَّ أن أفعل ذلك لأتمكن من القيام بهذه الخدمات. ورغما من أني كنت فقيرا ورغم قلة ما بيدي من المال كان لي إيمان في الناس. ولقد كان المزارعون في أعقاب الحرب العالمية الكبرى في حالة مروعة من الضنك، فالأثمان كانت منخفضة وانحط تبعا لها مستوى معيشتهم فقضيت العشرين عاما التالية في الإسهام في عمل البرنامج الزراعي محاولا حمل غيرهم من الناس على رفع مستوى هؤلاء المزارعين الذين كانوا يمدون بالغذاء والكساء القارة الأمريكية وغيرها من بلاد العالم الحر. ولكي أقوم بهذا كان على أن أكثر من الأصدقاء، وهكذا كان أثمن ما كسبت في حياتي الصداقات التي وثقت الصلة بيني وبين عدد وفير من الناس. وليس من المستطاع فيما أعلم شراء هذا الارتياح بمال. وهنا أعود إلى ما ذكره أبي عن الرجل الذي لم يكن ثريا على كثرة ماله لأنه لم يكن له صديق.

إن صداقة الناس كافة ومحاولة معونتهم هو في اعتقادي أفضل ما في الحياة، كما أنه الوسيلة الوحيدة لقضاء حوائج الإنسان.

النصر بالتحدي

بقلم جيمز رمزي أولمان

جيمز رمزي أولمان، ولد في سنة ١٩٠٧، وتعلم بجامعة برنستون، وعمل صحفيا. ثم ألف للمسرح واشتغل مخرجا مسرحيا، وألف عدة كتب أدبية منها: «القلعة البيضاء» و«جزيرة الطيور».

سئل جورج لي مالوري أعظم متسلقي الجبال من الإنجليز عن السر في رغبته الملحة وجهاده القوي كي يتسلق قمة إفرست، فلم يكن جوابه إلا هاتين الكلمتين: «**لأنها هناك**»، وحسب بعض الناس أن إجابته هذه غامضة ولكنها في رأيي من الوضوح ومن الدلالة على المعنى كأية إجابة أخرى، إنها تنطوي على بديهية أولية لا لمتسلقي الجبال وحدهم ولكنها لكل إنسان.. ها هو ذا جبل مرتفع فتسلقه.. ها هو ذا محيط كبير فاعبره.. هذا مرض مزمن عليك بعلاجه.. هاك خطأ عليك بتقويمه. إن الأشياء قد تختلف في مظاهرها السطحية اختلافا بينا ولكنها في جوهرها متطابقة. وفي مقدورنا أن نحذف هذه العبارات المختلفة ومئات غيرها، وأن نستبدل بها لفظا واحدا هو لفظ التحدي.

أمامك ما يتحداك، وعليك أن تقبل التحدي. وفي اعتقادي أن رد الفعل الذي يثيره التحدي في النفس هو جوهر الطبيعة الإنسانية

وينبوعها، فقد نجح الإنسان في تسلق قمة إفرست، وكان ذلك عملا جليلا، ولا أقصد الكلام عن المجهود نفسه. وقد يكون التغلب على العالم المادي مهما في حد ذاته.. نعم، ولكن ما يفوته أهمية هو التغلب على النقائص الاجتماعية والأخلاقية التي تعتري حياتنا كالحرب والفقر والجهل والخوف. وفي ظني أن أبلغها أهمية ليست الأهداف التي نحققها بل تلك التي نسعى إلى تحقيقها؛ لأن مهمة البحث ذاتها هي التي ترتفع بنا عن مستوى الحيوان وإن كانت لا ترقى بنا إلى مرتبة الآلهة.. إني لا أؤمن بالكمال المطلق، فلسنا بطبيعتنا مجهزين لأن نصل إلى الكمال أو ندرك كنهه، فكل نصر نحرزه يثير تحديا من نوع جديد.. وكل خطوة نخطوها إلى الأمام تؤدي بنا إلى خطوة أخرى، وهذه بدورها تؤدي إلى ما بعدها من خطوات. والإنسان اليوم يختلف اختلافا بينا عما كان عليه منذ ألف قرن وسيصبح البون شاسعا بينه وبين الإنسان بعد ألف قرن من الزمان.

وفي حالتنا الراهنة لا يمكن أن تكون في أبدع صورة أحسن تقويمها الخلاق العظيم، شأننا شأن العالم الذي نحن جزء منه... لسنا شيئا جامدا ثابتا لا يتطور، بل نحن في تطور وتحول مستمر كائنا على سفر، مبدأ طريقنا مغمور في ظلام ونهايته لا سبيل إلى تصور كنهها بحال.

وفي اعتقادي أن فينا سرا كامنا يمسك علينا حياتنا في هذه الرحلة

وأن الله هو الذي يحدث الشرارة فينا، فأنا تشتعل حتى تصير نارا متقدة محرقة وأنا تضمحل فتصبح ذابلة واهية —ولكنها لا تنطفئ بحال، فهي باقية على الدوام تنبئنا دائما عن طريق الشعور واللاشعور أن علينا أن نسير..

وسنجد السبيل حتما، ولا ريب أن الرحلة تستحق ما ينفق فيها من جهد وأن الحياة عزيزة على الأحياء. فإذا كانت الرحلة لا حد لها فكذلك التحدي والجهاد لا حد لهما.

وما دمنا نقبل التحدي فلن نضيع أبدا.. ولقد كسبنا النصر في تسلق قمة إفرست كما انتصرنا ألف مرة غيرها —وبعد ذلك أمامنا قمم جديدة ومرتفعات وأعماق جديدة وميادين جديدة للتحدي، لا شك فيها كما لا شك في تعاقب الليل والنهار.

إننا سنواجهها بطريقتنا التي لا تخلو من تخمين وعناد وخطأ؛ لأن هذه هي طبيعتنا التي فطرنا عليها، ليست القمة بذات بال، ولكن المهم هو الجهاد للوصول إليها. ليس المهم في نظري هو هدف الحياة ولكن المهم هو الحياة ذاتها.

***

السعي نحو الحقيقة

بقلم ريموند سوينج

ريموند سوينج، ولد في سنة ١٨٨٧، وعمل في الصحافة وتنقل في كثير من البلاد وهو محاضر ومذيع معروف، وكان رئيسا لقسم إذاعة الأخبار السياسية في صوت أمريكا.

طالما ظننت أني اختصصت وحدي بسوء الطالع –فقد كان لي من المتاعب الظاهرة والباطنة أكثر من كثيرين ممن عرفتهم، ولذلك قضيت مدة طويلة في دراسة متاعبي ومصادرها، وانتهيت إلى أن كلا منها كان سببه عملا قمت به أنا بنفسي، ولا يقع اللوم على أحد سواي من جراء بداية كل هم من همومي.. كما وجدت في جميع الحالات أن كل غلطة ارتكبتها في بادئ الأمر لم تكن صادر عن إرادة من الشر في نفسي، وإنما كانت لجهلي سبيل الصواب. أي أن ما قاسيته لم يكن راجعا إلى أني كنت شريرًا عند بداية متاعبي، ولكن لأني لم أكن قد بلغت من الخير المنزلة التي تعصمني من الشر.

وأخص بالقول عبارة «بداية متاعبي»؛ لأنه كلما تضاعف إحداها كنت أرتكب أحيانا من الأفعال ما كنت أعلم أنه خطأ – ولأني على بينة من ذلك كنت أتخذ من ارتكابي للأخطاء سبيلا إلى زيادة علمي بطريق

الصواب- وعندما عرفت في آخر الأمر ما كان خطأ في بداية متاعبي كانت تلك المتاعب تنتهي بانتهاء الأخطاء التي كانت باعثا عليها.

وبهذا انتهى بي الأمر إلى الاعتقاد أن فشلي كان يرجع في أساسه إلى جهلي، ومن ثم بذلت غاية جهدي في فعل ما أعرف، وأقلعت عن توجيه اللوم إلى نفسي، ولكي أكون منطقيا مع نفسي أقلعت كذلك عن لوم غيري من الناس؛ لأن ذلك الغير كان يبذل جهده في أداء ما يعرف عمله، فإن أحاطت به المتاعب كان ذلك دليلي إلى ما يمر به من أخطاء.

وتستطيع أن تدرك أن في هذا اعتقادا مني في تصرف يخضع للقانون كما ينطوي على الخير، ولتسم هذا التصرف «**سعيا نحو الحقيقة**» وهو ما أعتقد أنه من واجبي... ولقد وصلت إلى العلم بأن هناك قوة حكيمة سامية لا تدركها الأبصار تخضع لها جميع الأشياء من أكبرها حتى تصل إليَّ أنا -بل وإلى ما هو دوني- وكلما ازددت إلماما بها كلما أدركت أن فيَّ جزءًا من هذه الحكمة السامية. ولكني كنت أدرك أيضًا أن منزلتي صغيرة إلى أبعد الحدود، وقد نجمت بعض متاعبي من جراء جهلي -في الوقت الملائم- لدوري كجزء من الملكوت الإلهي، كما كنت أجهل -وفي الوقت الملائم أيضًا- ضآلة قيمتي.

فإذا سعيت في سبيل الحقيقة، وإذا أحببت أو عاونت الآخرين أو حاولت أن أجعل الناس أحرارًا، فإني مؤد دوري كجزء من هذه الحكمة السامية، أما إذا ملك على لبى النجاح الذي أحرزه أو قدرتي

على الإفادة من شيء ما أو مما يؤديه الناس لي داخلني الغرور عند ذلك وكبرت في نظر نفسي.

ولقد أدركت أخيرا أن ما لم يرضني من عيوب الناس هو أيضًا ماثل في عيوبي، الأمر الذي استطعت تشخيصه ومن ثم استطعت أن أقلع عن هداية الآخرين، وأخذت في معالجة شئوني الخاصة، إذ إني أنا الشخص الوحيد الذي يدخل في دائرة اختصاصي والذي تقع مسئوليته عليّ...

كما أدركت أيضًا أن الحب والحرية اللتين أؤيدهما لنفسي يجب أن يقاسا بمقدار ما أمنحه الغير منهما.. وإن دليلي على تقديري لشيء ما ليبدو فيما أمنحه الغير منه. وفي دستوري أن أفعال المرء هي مقياس عقيدته – فإذا أنا آمنت بفكرة واستمسكت بها وعلمت بهديها، كبرت فخرجت من حدود دائرتي إلى دائرة الزمالة الإنسانية أي إلى الدائرة التي تفوق إدراك الإنسان.

أني أعتقد أن السعادة والشقاء هما وجهان لمعنى واحد ألا وهو السعي نحو الحقيقة، وأعتقد أن هذه المحاولة هي مأساة الخليقة عينها، فإذا كان الشقاء ماثلا في أحد وجهيها فإن الرحمة تشيع في الجانبين معا.

وهذا هو الجمال الذي تنطوي عليه الحياة.

* * *

خلية في الجسم مركب

بقلم نورمان كوزينز

نورمان كوزينز هو محرر مجلة «ساترداي» الأدبية ورئيس اتحاد الفيدراليين العالمي.

إني خلية فريدة في جسم مركب من ألفي مليون خلية، وهذا الجسم هو البشرية..

حقا إني لأعظم بفردية النفس، ولكن فرديتي لا تفصلني عن نفسي الكلية ثم إن ذاكرتي شخصية ومحدودة، إلا أن جوهري غير محدود وليس له نهاية. ولم يبتدع هذا الجزء من ذلك الجوهر الذي هو أنا، بل تجدد؛ لأن دماء الإنسانية ما دامت تنبض بالحياة، فالحياة تجرى في دمائي.

ولست أعتقد أن النوع الإنساني ليس إلا آلة ولا هو من سقط المتاع، ولا أن المجموعات الشمسية والمجرات التي تعمر هذا الكون تفتقر إلى النظام أو الضبط. وقد لا أحيط علما بهذا النظام العالمي ولا أتحكم فيه، ولكني أستطيع أن أأتلف وإياه لأنني جزء منه.

فلست أرى انفصالا بين النظام الملكي والنظام الخلقي.

وأني لأعتقد أن انتشار المعرفة يفضي إلى انتشار الإيمان، وأن توسيع

آفاق العقل يؤدي إلى سعة آفق الاعتقاد. ذلك أن عقلي يغذي إيماني، كما يغذي إيماني عقلي.

فلست أتضاءل بنمو المعرفة بل بإنكارها.

ولم يضق صدري بالحدود الظاهرة في الحياة، ولم أجزع إزاء الشعور بفقدان الحدود في الكون.

ولن أستطيع إثبات حقيقة الله إذا عجزت عن إثبات حقيقة الإنسان، ولو أنكرت أحدية الإنسان فقد أنكرت أحدية الله، ومن أجل ذلك أثبت كلتا الحقيقتين؛ لأني بغير هذا الاعتقاد في وحدة الإنسانية أجد نفسي خاويا وناقصا.

إن وحدة الإنسانية ثمرة التعدد والاختلاف، فهي الائتلاف بين الأضداد، وهي البحر المتعدد الشطآن تموج فيه الألوان والأعماق.

إن الإحساس بوحدة الإنسان سبيل إلى الإحساس بتوقير الحياة.

وهذا التوقير للحياة ليس ثمر رهبة منها أو انفعال بها، إنه الإحساس بالمجموع، والقدرة على التشوف، وهو احترام العالم المتشابك بنسيج الحياة الفردية.. إنه الشعور المتسامي بالشعور نفسه.. إنه الاعتزاز بالوجود.

إني لأدخل بيتي وأنا أحمل معي الشعور بأن مائدتي ليست مجهزة إلا نصف تجهيز؛ لأن نصف سكان هذه الأرض يحسون بخواء الجوع، وأشعر بأن سقف بيتي ليس كامل البناء؛ لأن نصف إخواني في البشرية

يعيشون في مساكن لا تصلح للإيواء.

وحين أمشي في شوارع مدينتي أمشي وأنا شاعر بتلك المدن المتداعية التي لا يحصيها العد، ووجودها على هذا النحو هو الحقيقة الغالبة في هذا العالم.

من أجل ذلك وهبت نفسي لقضية الإنسان؛ وما يستطيع تحقيقه منها بقدر طاقته.

وسأعمل في سبيل وحدة الإنسان في ظل سلام محدود الأهداف، وفي سبيل نمو نظام أخلاقي يسير جنبا إلى جنب مع نظام الكون.

بهذا الطريق انتهيت إلى وجود الإيمان في الحياة، ووجود الحياة في الإيمان، هذه إذن فلسفتي: أني خلية فريدة في جسم مركب من ألفي مليون خلية، وهذا الجسم هو البشرية.

* * *

الإيمان والشعور بالرضى

بقلم هارلاند كليفلاند

هارلاند كليفلاند، تخرج في جامعة برنستون وعمل في الإدارات الحكومية، واشترك في إدارة المساعدات الاقتصادية الأمريكية، وهو خبير في المسائل الاقتصادية والدولة.

إن المبادئ التي أؤمن بها ليست مجموعة من المبادئ الثابتة ولكنها مجموعة من الأفكار المتغيرة الدائمة التغير. وهذه الأفكار كلها من النوع الذي أريد أن يتحول إلى نوع من العمل، فإذا لم أكن على استعداد لتحويل الفكرة إلى عمل، فإنها تظل في نطاق الأفكار النظرية ولا يصح تسميتها مبادئ أو معتقدات.

وأذكر أن والدتي كانت تعيد على مسامعنا مبدأين. وقد كررت ذكر هذين المبدأين لدرجة جعلتنا نذكرهما على الدوام. كانت تقول لنا: «**لا تنقطعوا في يوم من الأيام عن التعلم، ولا تشعروا أنفسكم في أي وقت بأنكم قد وصلتم إلى النهاية**». ولقد أصبحت أشعر في ضوء هذين المبدأين أن ما أعتقده وأؤمن به لا يخرج عن كونه رغبات وحوافز تتعلق بالمستقبل.

ولست أدري إذا كان ما أعتقد اليوم سببا أو نتيجة، فقد اخترت

قبل الحرب أن أكون على صلة ببرامج معاونة الفلاحين ذوى الدخل المنخفض، وأما أثناء الحرب وبعدها فإني اشتركت في برامج الإغاثة والتعمير في أوروبا والشرق الأقصى. وعلى أي حال سواء أكان الأمر سببا أم نتيجة فإني أؤمن بأن من واجبي أن أبذل غاية جهدي لرفع الروح المعنوية لأكبر عدد ممكن من الناس إلى أقصى حد مستطاع.

ولا شك أن أهم غايات العمل الاجتماعي هو أن ترتفع الروح المعنوية للفرد وأن يشعر بالرضا والطمأنينة.

وإني لأرى أن حالة الروح المعنوية لأي شخص يمكن أن تقاس بدرجة إشباع أربع حاجات نفسية أساسية: فالإنسان يريد أولا أن يشعر بالطمأنينة، ويريد أن يشعر بالتقدم والترقي، ويريد كذلك أن يشعر بالعدالة، ويريد أن يشعر بأنه يسهم فيما يتخذ من قرارات تؤثر تأثيرًا مباشرًا في أمور حياته وفي مستقبله.

أما عن شعوري بالتقدم والترقي فإني لا أحس به شخصيا، إلا إذا أدركت أنني أقوم بدور إيجابي عملي إزاء هذه الحاجات الأساسية، والمبدأ المتضمن هنا يقوم على فكرة حديثة نسبيا في تطور الفكر الإنساني، وهذه الفكرة هي أن التقدم أمر يتصف بصفات ثلاث: أولاها أنه طبيعي، وثانيتها أنه حسن، وثالثتها أنه ممكن عمليا. وترتبط هذه الفكرة بفكرة أخرى قديمة وهي أن الفرد على جانب كبير من الأهمية بل إنه كوحدة يمكن أن يكون أهم من الأسرة وأهم من

المجتمع وأهم من الدولة.

وقد أصبحت أعتقد أنه على الرغم من كوننا منغمسين في حضارة تقوم على الفلسفة العقلية فإن هناك من الأدلة العقلية والأدلة الغريزية ما يقنعنا بوجود الله.

وأذكر أن ولدي بدأ يسألني منذ تعلم الكلام أسئلة لا يمكن الإجابة عنها وتتناول هذه الأسئلة من بعيد أو من قريب موضوع اللانهاية. وتصدر مثل هذه الأسئلة عنه طبيعية جدًّا. وهناك حقيقتان واضحتان عن هذا الكون غمرتا كل تفكيري في كل وقت. وهاتان الحقيقتان من الوضوح بحيث تبدوان بديهيتين. أما الحقيقة الأولى فهي ذلك النظام العجيب الذي ينتظم كل شيء، وندرك هذا النظام في القوانين الطبيعية وفي ألحان الموسيقى وحتى في علاقة فرد بآخر. وأذكر عندما كنت طفلا صغيرًا أني تعلمت شيئا أرجو أن يكون صحيحا: لقد تعلمت أني عندما أحرك إصبعي الصغير فإن هذه الحركة تؤثر في أبعد نجم في السماء.

وكان يحدث أحيانا أن أكون سائرا بمفردي فأحرك إصبعي الصغير لا لسبب إلا لأني أريد أن أجعل هذا النجم البعيد في حالة حركة ويقظة. وهذا الذي يصدق على المكان يصدق كذلك على الزمان. فالذي أفعله اليوم يبقى أثره ويعيش في المستقبل. كذلك كينونتي هذه لا يمكن أن تفنى وتمحى عندما يدركني الموت.

وبديهي أيضًا أن ندرك أن إله هذا الكون –المنظم والمستمر– هو إله الناس جميعا، وفي كل شخص اعتقاد غريزي في وجوده وفي سلطاته، ودليلي على هذا أن ساعات الحرج في حياة الإنسان إنما يواجهها الإنسان عن فطرته بالتوجه إلى الله، فيشعر أن الله يستجيب لدعائه عندما يدعوه ويتضرع له.

ولم أتعلم هذا عن طريق دروس الدين، وإن كنت ابن رجل من رجال الدين. وأذكر لهذه المناسبة أني عندما كنت في الحادية والعشرين من عمري قضيت ليلة على سفينة مهشمة وقد كانت حالتها سيئة جدًّا على إثر اصطراعها مع الأمواج العالية في عاصفة شديدة قامت في وسط الأطلنطي.. قضيت الليلة جالسا على ظهر بقايا السفينة ممسكا بين ركبتي رأس امرأة عجوز أصابها كسر شديد في رقبتها وكان بقاؤها على قيد الحياة يتوقف على تصرفي في هذه الظروف غير المواتية. ولأول مرة في حياتي وجدت نفسي أدعو الله وأتضرع إليه، وقد اتجهت إلى دعائه والتضرع إليه بطريقة تلقائية دون قصد أو شعور واضح.

***

إنني رجل سعيد

بقلم أوسكار هامرشتين

أوسكار هامرشتين، ولد في سنة ١٨٩٥، وتعلم في جامعة كولومبيا، ثم التفت للفنون فلحن عدة أغان اشتهرت، واشترك في إخراج عدة ألحان لأغاني الأفلام السينمائية. كما كتب عدة قصص ظهرت على الشاشة البيضاء.

إن مذهبي في الحياة لا يتمشى مع مذاهب كثير من الناس، فإنني رجل قر في يقيني أنني سعيد. والذي يجعل قراري مجافيا للمألوف هو أن الرجل السعيد قل أن يفضي إلى الآخرين بالحديث عن سعادته، على حين أن الرجل الشقي أكثر إفضاء بأمور نفسه، فلن تراه إلا وقد ألح به هيام ليعد على الزمان العيوب.. ويبدو أن الأقدار قد منحته موهبة يجتذب بها أكبر عدد من المستمعين...

ولعل من مآسي العصر الحديث أن يجد اليأس له كثرة من الناطقين باسمه، على حين لا يجد الأمل إلا قلة.. ومن هنا كان معتقدي بأنه من المهم للإنسان أن يتفاءل على الدوام، ولو أن مثل هذا التفاؤل ليس فيه من إثارة المشاعر ما في صيحات المتشائمين.

ولماذا ثبت في يقيني أنني سعيد؟ ألم تعدو المنية على كثير ممن أحب

فحرمتني وجودهم؟ ألم تتعقب بشاعة الفشل أكثر جهودي جدًّا ودأبا؟ وكثيرا ما خيب الناس ظني فيهم، كما خيبت ظن الناس فيّ، وكما خيبت ظني في نفسي...

وأكثر من هذا فإنني أعلم أن غمامة من الصراع العالمي تنتشر في السماء، وقد تنفجر هذه الغمامة فتمطر الأرض بوابل من قنابل ذرية تعصف بملايينَ من الحيوات وفيهن حياتي.. ألا أستطيع أن أبني من هذه الدلائل الواضحة سببا قويا أتعلل به إذا ما زعمت أنني غير سعيد على الإطلاق؟

أجل إنني أستطيع، ولكن الصوْرة التي أرسمها حينئذ ستبلغ من الزيف ومجافاة الصدق مبلغ الصورة التي أصف بها شجرة كما تبدو للعين في الشتاء فحسب. ولو فعلت أكون قد أغفلت عرفاني بكثير من وجوه النجاح التي لاحت في كثير من مضايق فشلي، وأكون قد أغفلت نعمة الصحة السابغة، ولذة المشي تحت إشراقة الشمس، وأكون قد أطرحت جانبا إيماني بأن الخير الكامن في الإنسان سينتصر في نهاية المطاف على الشر الذي يؤجج الحروب..

إن هذه الجوانب المضيئة لها من عالمي نصيب يعدل نصيب جوانب الهم المعتمة.

إن الصراع بين الخير والشر يتشابك في نسيج ملتحم السدى.. ولن تستطيع أن تجعل الفضيلة والجمال والنجاح والضحك بمعزل عن

الالتقاء بالرذيلة والدمامة والفشل والبكاء، وإن امرأ يحاول أن يفعل ذلك لمورد نفسه موارد التهلكة، إنه سيدور في كآبة موحشة.

ولا أصدق أن امرأ يستطيع أن يستطيب لذة العيش في هذا العالم إلا إذا استطاع أن يتقبل وجوه النقص الكامنة فيه... فعليه أن يعرف ويعترف بأنه غير قادر على التمام، وأن الفانين من البشر غير قادرين على التمام، وأن من سذاجة الطفولة أن يجعل لوجوه النقص في الحياة سبيلا إلى تقويض معاقد أمله، ومناط رغبته في أن يعيش.

إن الطبيعة أقدم من الإنسان عمرا، ومع هذا فإنها لا تزال بعيدة عن الكمال. فإن مواسم الصيف فيها لا توافينا على موعد لا تخلفه في الحادي والعشرين من يونيو كل عام. والحشرات الهوام كثيرًا ما تبعد عن غايات الطبيعة وأهدافها الواضحة، فتلتهم الأوراق والبراعم التي تكسو بها الطبيعة أنحاء ريفها أثوابا من الجمال.

وعندما يصيب الجفاف الأرض لمدى طويل فإن الطبيعة تبعث إليها من الغيث الهتون ما يحيي مواتها.. ولكن كثيرًا ما يستحيل هذا المطر إلى سيول يبلغ من شدتها أن تضر أكثر مما تنفع، وأن تقلع أكثر مما تزرع.

ولكن الطبيعة -على كل حال- ماضية على مدى السنين في طريقها الذي لم يخل من وجوه النقص. وعلى الرغم مما نحصيه عليها من الذنوب والأخطاء فإن معجزة الحياة لا تزال في استمرار.

وقد يكون من الحمق لإنسان أن يبحث عبثا ليفعل أحسن مما يجري في طريقه المحفوف بالنقصان.. فليحمل أخطاءه ممتطيا متن تلك العاصفة القاسية المحيرة، الجميلة المثيرة، عاصفة الحياة، حتى يحين حينه، ويحل مع المنون أجله!!

* * *

كل كلمة تطبع ستخلد

بقلم جيك زايتلن

جيك زايتلن، مؤلف ومحاضر وناشر معروف، كان رئيسا للجمعية الأمريكية، كما أنه من أصحاب المكتبات التي تبيع الكتب النادرة في جنوب كاليفورنيا.

ليس ما أعتقد هو مسألة لغة براقة، بل هو مشكلة عملية تتصل بمحاولتي الحياة في أسرتي وبين أصدقائي وفي المجتمع عامة.. أعتقد أن عليَّ أن أحكم عقلي في السيطرة على حياتي، وعندي ميل يقرب حد الإيمان بأن العقل في سبيله إلى السيطرة على تصرفات الناس، وإني أشاطر جفرسون رأيه أن التحكم في عقول الناس وحياتهم شر، ولذلك أتجنب فرض إرادتي أو فلسفتي على غيري...

إني أثق في النظام المثمر الذي ينبعث عن النفس، ولا يزال بعض الشعراء والفلاسفة يجادلون في أن مصير الإنسان في هذه الأرض محتوم، وإني لا أقبل هذا المنطق فأكيف على أساسه حياتي، إذ لو أني وثقت أن نهاية العالم بعد عشرة أيام لبدأت في أن أبني دارًا أو أقرض شعرًا.

وإني أعتقد أن عليَّ أن أحتمل نصيبي من المسؤولية عما يصيبني من الأحداث بما في ذلك الأحداث العارضة والخطأ.. إني أثق بالكرامة الإنسانية وأن هذه الكرامة تستحق أن أتمسك بها إلى حد أني لا أفرض

على الغير ما يمس كرامتهم، والخوف ألد أعدائي، يليه في رأيي الكبرياء التي هي نوع من الخيلاء وهي قرين السخف..

إني أذكر منذ طفولتي قولة رجل من تكساس «**أيها الأولاد إن الناس يستطيعون أن يقتلونا ولكنهم لن يستطيعوا أن يأكلونا**».. ولا أظن أني أرى أن أرد الإهانة التي توجه إليَّ بمثلها، فلا أحد يستطيع أن ينقص من شأني، ولكن أنا الذي أستطيع ذلك، وعلى ذلك فلن يقدر أن يحكمني من يسلبني كرامتي، لا بالوعيد ولا بالإهانات ولا بالملق.. إني أعتقد أن الابتسامة العذبة خير من العبوس. ولقد تعلمت الضحك من زوجتي الطيبة الهولندية، تلك التي عاش أجدادها في هناء وسعادة تحت السماء الملبدة جملة من السنين..

وإنه لأيسر عليَّ أن أغتفر خطأ عربيد مرح من العفو عن أحمق عبوس.

إن مهنتي كبائع كتب هي مظهر لعقائدي.. إني أقضي يومي نهاره وليله بين الكتب ومع محبيها.. وإن كل ما يريد الناس معرفته وكل ما يخلد آثار حياتهم وتاريخهم، كل ذلك له قيمته عندي. إن كل كلمة تطبع ستخلد رغما من أحكام الاستبداد وحرق الكتب والرقابة وتغير الأذواق، وكلما بعت أحدا كتابا فإني أشعر بالسعادة؛ لأني نقلت إليه شيئا ثمينا، كما أشعر أني نلت الربح الذي أستحقه بجدارة.

إني أؤمن أن التصرف المبني على هذا العلم خير من تصرف لا

أساس له منه، ولكني لا أؤمن أن العلم هو سبيل النجاة، ولقد يخلصنا العلم من صعاب الطبيعة المادية ولكنه لا يخلصنا من الشقاء.

وأخيرا أعتقد أن زوجتي وأولادي وزملائي في العمل هم أصدق الناس حكما عليَّ، فهم لا ينسبون إليَّ فضلا لا أستحقه.

وإن ما أعتقد سوف تبرهن على صحته اختبارات الحياة يوما بعد يوم، وهم يدركون ذلك وأرجو أن يصدقوني القول حقا.

* * *

الخدمة العامة برغم الإيذاء

بقلم السيدة مارجريت تشير سميث

السيدة مارجريت تشير سميث ولدت في سنة ١٨٩٧ واشتغلت بالتعليم ثم بالصحافة، وانتخبت عضوا بمجلس النواب الأمريكي، وفي سنة ١٩٤٨ انتخبت عضوا لمجلس الشيوخ الأمريكي، وهي الآن المرأة الوحيدة في هذا المجلس.

طالما عدت ليلا من مكتبي أو من مجلس الشيوخ مكدودة يائسة. ولقد يرى الشعب عضو الشيوخ وقد أحاطت به هالة من المجد والشهرة كما يراه لامعا بما يسلط عليه من أضواء، ولكن الذي لا يراه الشعب هو قسط مماثل من الألم والإيذاء وسوء التقدير.

وفي الواقع لقد تقدمت للخدمة العامة والأعمال السياسية، مفتحة العينين كغيري من الناس، وكنت أعلم أن من يقوم بخدمة عامة يضع نفسه هدفا للسباب والنقد المجحف القاسي، وأن نكران الجميل هو جزاؤه المنتظر، كما كنت أعلم أن الأصدقاء وقت الرخاء سينصرفون عني إن أحسوا أني أكف عن خدماتهم الخاصة، وأن كل أنواع السباب ستوجه إليَّ، وأن أقل ما يقال فيَّ أني خائنة لبلادي.

كنت أعلم كل هذا، ولكني لم أكن أتوهم مدى الشر الذي يلغون

فيه ولا شدة وقعه في نفسي، أذكر كل هذا عندما أكون مكدودة يائسة. وعندما أتساءل: إن كانت عضوية مجلس الشيوخ تستحق كل ما أقاسيه منها.. ففي هذه اللحظات أفكر في ترك الخدمة العامة، والعودة إلى الدعة والترف في حياتي الخاصة.

ولكن هذه اللحظات نفسها هي اللحظات التي أكون فيها أشد اقتناعا بأن كل ألم وإهانة وإيذاء وسباب ليست ثمنا غاليا أؤديه أو تضحية كبيرة أسديها؛ لأني في هذه اللحظات بالذات كنت أسائل نفسي عن الهدف الذي أقوم من أجله بهذه الأعمال، وعند ذلك أتأكد من أني أؤمن بأشياء لولاها لما كان للحياة قيمة كبيرة في نظري.

وهذا هو ما أؤمن به..أؤمن أن للحياة هدفا حقيقيا، وأن الله قد هيأ لكل إنسان ما يصلح له، وأن لكل امرئ واجبا مقدرا عليه. وأن على كل منا عملا وإن كان مخالفا لعمل غيره فإن الجميع سواسية في وجوب إحسان العمل الذي يؤدونه.

وفي مذهبي أن لكل إنسان أتصل به، حقا في حسن المعاملة والتقدير من جانبي. وأعتقد أنه ليس لي أن أطمع في أن أنال من الغير مالا أرغب في أن أقدمه لهم، وأني حرة في التصرف فيما أملك.

وفي اعتقادي أن لكل إنسان الحق في النقد الذي يهدف إلى الإنشاء، كما أن له الحق في أن يرى الرأي المخالف لرأي الجماعة، وأن يعلن احتجاجه على ما لا يود بطريقة مشروعة، كما أن له الحق في إبداء رأيه الحر المستقل.

وفي اعتقادي أنه يجب ألا يساء استعمال حرية القول حتى لا يكون هذا مانعا من حرية الغير في التعبير عما في نفوسهم، وإني لأعتقد اعتقادًا جازما أنه ليس من الجائز أن يدعو التسامح إلى الاستهتار وعدم المبالاة، ولا يصح أن يبلغ الناس من الاستهتار والسخرية والسفسطة حدا يفقدهم الحافز إلى العمل.

وفي اعتقادي أن علينا ألا ننسى أن يكون الخلاف بيننا بالحسنى وأن يهدف النقد للإنشاء والتعمير. وإني لأعتقد من كل قلبي أن علينا ألا نكون أمة أصنام تنقاد لمحترفي الزعامات بلا تفكير..

وفي اعتقادي –ونحن نبحث دائما عن الطمأنينة والسلام– أنه لا يمكن أن نحصل على راحة البال قبل أن نسيطر على نفوسنا.. وعلى أن أؤمن –وبخاصة في اللحظات التي تعز عليَّ فيها كلمات التشجيع– على أن أؤمن بإخواني في البشرية، وأن أؤمن بنفسي، وأن أؤمن بالله.. ذلك هو ما يجب أن أؤمن به، وإلا فلا معنى للحياة.

***

النقص من طبيعة الإنسان

بقلم جاكي روبنسون

جاكي روبنسون.. من نسل السود في الولايات المتحدة، ومن أبطال رياضة «البيسبول» وكان أول زنجي قُبل في الاتحاد الأكبر لهذه الرياضة وعرف في فريق بروكلين.

في أوائل دورة الألعاب العالمية لسنة ١٩٤٧ شعرت بعاطفة جديدة عليَّ عندما سمعت النشيد الوطني، ففي تلك اللحظة أحسست أن النشيد قد عزف لي أنا كما عزف لغيري، فها هو ذا اتحاد البيسبول الأكبر وها أنا ذا أقف بين أعضائه الآخرين وكل ما يدور حولي لابد أن ينتظمني كما ينتظم كل فرد سواي.

وبعد عام من ذلك التاريخ قصدت إلى أتلانتا بولاية جورجيا لأشترك في مباراة استعراضية، وكان من شهود الملعب في هذه البلدة بيض وسود، سود غيري أنا. وفي تلك اللحظة ومض بخاطري: ها قد تحققت العقيدة التي آمنت بها طويلا.. ولمن يسألني عن هذه العقيدة التي آمنت بها طويلا أقول: إن النقص –لا الكمال– من طبيعة الإنسان. ولكن ما دام في عمر الإنسان متسع وفي رأسه عقل مفكر فهو سيقترب من الكمال مهما كان سيره إليه وئيدا.

ولست أدعى أننا بلغنا الكمال أو قاربنا الوصول إليه. بل ليس من الضرورة بمكان أن يكون هذا هو أحد أهدافنا. فالعوائق جمة والأهواء متباينة.

وكلما ازدادت العوائق كان جهادي في إزالتها أشد، ولولا أن لدىّ عقيدة قوية لا تتزعزع في أن أمامي فرصة للنجاح لكان مجهودي ضائعا وجهادي مستحيلا..

ولعل الذي هيأ لي هذه الفرصة أن جهادي كان في مجتمع يدين بالحرية، فلم أضطر يوما إلى مغالبة عقبة لا تتزحزح، ولم أجد يوما من الأيام أن السبيل أمامي مغلقة فلا منفذ فيها؛ فالعقول الحرة والقلوب الرحيمة كانت تؤازرني دائما فيما أنا بسبيله، وكانت أمامي دائما فرصة للتقدم والانتصار..

وإذا أنا ألقيت نظرة على أولادي الآن أشعر أن عليَّ أن أعدهم لملاقاة بعض الصعاب ومقارعة بعض الأهواء، ولكن في مقدوري أن أنبئهم أن بعض هذه الصعاب لن يقف عقبة في طريقهم؛ لأن قوما غيرهم سبقوهم إلى التغلب عليها: وإذا حدثت نفسي فإني أسطيع أن أقرر جريا على سنة التقدم التي لا تتغير أن كثيرًا من النصوص الجامدة ستزول عندما يبلغ أولادي الحلم، وفي مقدوري أن أنبئهم أن أمامهم فرصة للعمل –هي مجرد فرصة لا صكا مضمونا، وهذه الفرصة آتية لأنه لا جمود في مجتمع حر.

لقد انقضى منطق القرون الوسطى الذي كان يعوق التقدم الإنساني، ومع أني لا أؤمن بأن كل إنسان لا بد مصيب نجاحا في كل نواحي الحياة -رغم تألب الظروف عليه- فإن هذا كمال لا ندعيه.. ولكن الذي أعتقد فيه بكل جارحة مني أن كل ما وصلنا إليه من رقى كان في إطراحنا منطق الماضي، وفي ارتياد الحقيقة في وقتنا الحاضر، وفي الوصول إلى عظمة المستقبل.

إني أؤمن بالجنس البشري، إني أؤمن بوحدته وتماسكه.

إن لي ثقة في القلوب المؤمنة، إن لي ثقة فيما ينطوي عليه المجتمع الحر من خير.

وفي اعتقادي أن الجماعة ستظل صالحة خيرة مادمنا مستعدين لأن ندافع عنها وندفع عنها كل عوامل النقص والفساد. فقد كان ميدان جهادي إزالة الفوارق التي كانت تعوق السود عن ارتياد ملاعب البيسبول، ففي هذا الميدان وجدت النقص الذي أجاهد فيه. ولقد جاهدت فعلا لأني كنت واثقا أن النصر كان غاية هذا الجهاد، ولم أكن أقدر أن تكون المعركة خاسرة وبخاصة عندما تكون في مجتمع حر.

وإني لأؤمن إيمانا قويا أن ما قدمت من خير قد قدمته لنفسي، وأن ثقتي بالله قد أمدتني بالعون في هذا الجهاد، وأن ما بلغته من النصر سيبلغه غيري من المجاهدين.

***

الشك مفتاح المدنية

بقلم دافيد شونبرون

دافيد شونبرون.. ابتدأ حياته في التدريس، ثم عمل صحفيا وكاتبا. عرف بآرائه الحرة الجريئة ومعالجته لجميع نواحي الحياة..

لم يلتحق شاب أو شابة بإحدى جامعات الولايات المتحدة إلا وقد سمع ذكر الفيلسوف الفرنسي دي كارت وقولته المشهورة: «**أنا أفكر ولذلك فأنا موجود**». وقليل من الناس من يقرأون ما كتب دي كارت وأقل من القليل من يعني بهم ما كتب. أما أنا فقد قرأت له لا لأني أفضل عقلا من غيري، بل لأني كنت أعد نفسي لأن أكون معلما للغة الفرنسية، ورأيت أن أقرأ لأعظم فلاسفة فرنسا بنفسي بدلا من أن يلقنني أحد الناس المعنى الذي أراد الفيلسوف.

ولم أكن أعلم حينذاك أن ذلك كان فاتحة حياة جديدة لي، وأنه هيأ لي أسلوبا من التفكير لا يزال يسيطر على تصرفاتي.. وربما كان يحدث ذلك على وجه من الوجوه؛ لأني لم أكن أحمل كلام أي إنسان معنى خاصا، وكنت دائما أعتمد على نفسي في المعرفة. ولكن دي كارت الرجل الذي عاش وكتب قبل ميلادي بأربعمائة عام كان أساسا معقولا لمزاجي، كما فتح لتفكيري وروحي آفاقا جديدة. وكانت حكمة دي

كارت مقتضية وغير مفهومة تمام الفهم... إن ما يعنيه هو ما فهمته من قراءة ما كتب بعد ذلك ككتاب «تأملات فيما وراء المادة» وهو يمكن أن يفهم على النحو التالي: أنا أشك، ولذلك فأنا أفكر، وإذن فأنا موجود. لأن الشك هو الأساس الصحيح للتفكير، الشك هو جوهر الديمقراطية، هو مفتاح ما نسميه المدنية الغربية.

ومن الشك تنبعث الحرية.. ولولا الشك لسادت العبودية والاستبداد العام. وإذا قبلت كل شيء على علاته لحق أن يقال لك إنك من الأموات وهذا ما عناه دي كارت عندما قال: أنا أفكر فإذن أنا موجود، فإذا لم تفكر ولم تشك فأنت آلة ولست بإنسان. ولكن هل المقصود من هذا أن عليك أن تشك في كل شيء؟ أو لا يؤدي ذلك إلى الفوضى التامة وشل كل حركة؟

والجواب على ذلك سلبا، ففي كل يوم بل في كل لحظة أنتهي إلى قرارات وأعمل وفقا لما هو أمام عيني من الدلالات، ولكني لا ألبث أن أشك في صحة ما قررت وأفكر فيه يوما ويوما وأظل أعاود اختباره لأرى إن كان لا يزال مطابقا للحقيقة.

وهذا هو لب الإرادة الحرة بل هو الحرية بعينها.. والشك في عالم الصناعة معناه أن تدأب باستمرار لتجود ما صنعت ولو كان مصيدة للجرذان، ومعناه في عالم الطب البحث ومعاودة البحث عن أدوية جديدة وطرح ما يساوره شك مما أوجدته أهواء الماضي.

والشك في الصحافة -وهي مهنتي المختارة- هو لب عمل المحرر. وأن قراءتي لمؤلفات دي كارت هي التي دعتني إلى الانتقال من مهنة التدريس إلى مهنة الصحافة وهي أكثر المهن أهمية في نظري.

ثم ما رأى دي كارت في النفس وفي الروح، وهل الشك عند دي كارت معناه نفي وجود الله!...وللمرة الثانية أجيب على هذا السؤال سلبا.. فقد أعلن دي كارت نفسه إيمانه بالله... ولقد قال: أن الشك هو أن تعرف أن هناك نقصا وعليه فلابد أن يكون هناك كمال. وحيث إنه لم يجد مطلقا على الأرض هذا الكمال فقد انتهى حتما إلى وجود الله الذي يمثل الكمال.. وإن منطق دي كارت لهو نفي بات للإلحاد؛ لأنك إذا شككت في وجود الله فإنك لابد شاك في عدم وجوده، وليس هذا اعتقادا ولكنه إيمان..

والإيمان يصدر عن النفس لا عن العقل.. هذا مذهبي.. وهذا ما أؤمن به.

***

أؤمن بالحق والنظام

بقلم روبرت مالك كلور

روبرت مالك كلور.. ولد في سبتمبر سنة ١٨٩٦. وتلقى دراساته في المدارس الحربية، وعمل طويلا في الشرق. وكان في الحرب العظمى الثانية رئيسا لأركان حرب القوات الأمريكية التي تحارب مع الجنرال شنج كاي تشك في الصين.

لي ثقة في إيمان البشر وإيثارهم. والتاريخ يحدثنا عن أقوام ضحوا بحياتهم ليسعدوا غيرهم وليهيئوا لهم حياة أهنأ، وكم من فرد جاد بدمه لقوم لا صلة له بهم ليبقى على حياتهم، ولربما هرعت جماعة من الناس لمعونة جار تلتهم النار داره فلم تبق لها آثرا.. أو صبي خلع دثاره ليقي كلبه بردا قارصا... أو شرطي حمل أثناء نوبته سلة البقل والخضر لعجوز كادت تقعدها السنون.. أو سائق قاطرة لوح بيديه لصبية متعلقين بسور المزرعة أو الزريبة.. إن ما أعنيه بكلامي هذا واضح غاية الوضوح.

إن الناس يبذلون من نفوسهم ليجعلوا للغير قسطا من السعادة والراحة والأمن. وإني أدين باحترام الأحياء، كما أذكر بالتقدير والتقديس من التنقل من هؤلاء.. إني أثق أيضًا بالنظام.. وكثيرا ما

ذكرت أثناء عملي في الجيش لكافة الضباط وغيرهم من أن النظام ينطوي على تقدير الغير والطاعة السريعة الراضية لأولى الأمر.

وإني أعتقد أن خير ما في نفوسنا جميعا تبرزه روح النظام.. من ذلك نصح الآباء المنطوي على المحبة، أو عطف المعلمين ورجال الدين والأصدقاء والموظفين العموميين، ولكن ضبط النفس هو أبرز هذه السجايا جميعا.

ومما أؤمن به إيمانا اتخذت منه شعارا أن الحكيم من اتعظ بتجاربه هو، ولكن أحكم منه من استفاد من تجارب غيره من الناس، وإني أحاول أن أتعلم شيئا جديدا كل يوم أعيشه.

وفن الزعامة متأصل قديم كالطبيعة تماما ويمكننا أن نتعلم كثيرًا من دراسة الشخصيات الناجحة في الماضي، ومها يكن من أمر فالمحن الشخصية والألم والفشل، كل ذلك مما يخلق مني إنسانا أفضل لو كانت لدى الحكمة والشجاعة للإفادة من تجارب الغير.

ويجب أن يشجع الشباب وتترك لهم مطلق الحرية لاختيار المستقبل الذي يرغبون فيه ويجب أن يسمح لهم أن يفكروا لأنفسهم.

وإذا كان للآباء أن يساعدوا الأبناء وأن يزودوهم بالنصح في كثير من نواحي الحياة، فإن خير تراث يتركونه لهم إنما هو جسم سليم وعقل على قسط معقول من الذكاء.

ولي ثقة في عظمة البساطة وبساطة العظمة، وإن أبرز الشخصيات

الذين عرفتهم هم في غاية البساطة والتواضع وعدم الالتواء. ولقد وجدت مرضى العظمة وأصحاب (النفخة الكذابة) قوما ضعفاء وأنانيين.

وعندي أن إبراهام لنكولن هو أعظم من أنجبتهم أمريكا على الإطلاق، ولقد تأثرت به أكثر مما تأثرت بغيره، ولقد أبى ذلك البسيط الذي تولى قيادة البلاد في أحلك أيامها، أبى أن ينزل عن المبادئ البسيطة التي كان يدين بها، وإني لأعتقد أسوة بلنكولن نفسه أن روح المرح ضروري ليعتدل بها ميزان العقل الصحيح.. ألا ما أحوجنا الآن إلى أمثال هذا الرجل العظيم.. وإني أثق متأثرًا بهذا الرجل في كرامة الجنس البشري وأعتقد أن جميع الناس في جميع أنحاء المعمورة هم بطبيعتهم معتدلون راغبون في حياة هادئة يسودها الأمن والسلام. إني أفضل أن نتخذ طريقا إيجابيا لا سلبيا لمواجهة مشاكلنا الحاضرة ولا أعتقد أن الحياة الآن شاذة مفجعة أو تسودها الفوضى أو مستعصية على الحل بوجه من الوجوه.

وفي ختام كلمتي أقرر ثقتي بالله لا على مذهب بعينه.. وأن إنسانا يسمع ذكر الله على لسان معظم من يستعدون للقائه لا يمكن أن يشك في وجود الله العلي القدير.

* * *

الفهرس

***

علمتني الحياة

أن تختصر أهم دروس الحياة في كلمات ثم تدفع بها إلى صديق يحتاج إلى دليل في درب متشابك معقد كالذي نمضي فيه، إنه لشيء لا يُقدر بثمن..

في هذا الكتاب، أو لنقل في هذا "المشروع" الذي قام على إعداده القامة الفكرية الكبرى د. أحمد أمين، نقرأ خلاصة حياة، نرتوي بعصير أيام أكثر من 60 كاتب ومفكر وصاحب تجربة في المشرق والمغرب..

إنها الحكمة التي أكد ربنا سبحانه وتعالى أن من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيرا..

تقرأ في هذا الكتاب خبرات كل من :

محمد حسين هيكل
توفيق الحيكم
محمود تيمور
زكي نجيب محمود
عبدالرازق السنهوري
محمد شفيق غربال
إميل زيدان
طاهر الطناحي
سهير القلماوي

عباس محمود العقاد
أمينة السعيد
د.أحمد زكي
ميخائيل نعيمة
محمد زكي عبدالقادر
حافظ وهبة
إبراهيم مدكور
فؤاد اسكندر
أحمد زكي أبوشادي

وغيرهم الكثير ...

أجيال
AJIAL
دار أجيال للنشر والتوزيع
00201224242437

Design by
Shimaa Mohamed
01224326054